من حديث المعارضات الأدبية

تأليف الأستاذ الدكتور

عبدالوارث عبدالمنعم الحداد

أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد

كلية اللغة العربية بالمنصورة

جامعة الأزهر

فقهيات حول المعارضة

تعريفها، وشروطها:

الذي يعنيني في تعريف المعارضة لغويًا هو ما يحمل معنى المقابلة والمحاذاة والتصدي والمجاراة (المحاكاة)؛ لأن التعريف اللغوي لكل كلمة مادتها (عرض) متنوع، وأكثره يخرج عما نحن بصدده، من ذلك قولهم، ((عارض الكتاب بالكتاب)) [1] يعني: قابله به، وعارض فلانًا: باراه وأتى بمثل ما أتى به، وعارض فلان فلانًا في السير بمعنى سار حياله، وعارضه في الشعر، وعارضه في السير، وعارضه بمثل صنيعه، كما يقال: ((تعارضا)) [2] عارض أحدهما الآخر.

أما تعريفها الأدبي فهو أن ينشئ ناظم أو ناثر نصًا على غرار نص آخر بدافع من الدوافع يتفق معه في الموضوع أو الروح والاتجاه ملتزمًا بالبحر والقافيه وحركة حرف الروي إن كانت المعارضة في الشعر أو مختلفًا معه في شيء من ذلك.

هذا التعريف خلاصة ما ارتآه الدكتور ((محمود رزق سليم)) [3] والدكتور ((أحمد الشايب)) [4] وهو يتفق مع ما ذهب إليه معظم المؤرخين والنقاد، ولكن الدكتور ((محمد رجب البيومي)) يرى أن المعارضة في الشعر لابد أن يتحد فيها الموضوع والوزن والقافية، ووجهة نظره في ذلك أن اشتراطه هذا يحدد المجال على نحوٍ ضيق، إذ التعريف الذي يرضي الأغلبية الآن يجعل (99%) من الشعر العربي كله معارضات لأن القوافي محددة كالأوزان.

وهذا رأي علمي له وجاهته؛ لأن معظم القصائد الآن اختلط حابلها بنابلها، وأصبحت أدنى مشابهة بين قصيدتين تنزل الثانية منزلة المعارضة للأولى، ربما لأن المعارضة جزئية من جزئيات الدراسات الأدبية، ومن طبيعة الجزئية التحديد والتخصيص، يجب ألا نتوسع في موضوع الجزئية حتى لا نخرج من الجزئية إلى

---

[1] المعجم الوسيط – جـ 2ص 593 .

[2] المرجع السابق ص 594.

[3] عصر سلاطين المماليك – المجلد الثامن ص 447 طبعة أولى.

[4] تاريخ النقائص في الشعر العربي ص 7 طبعة ثانية مكتبة النهضة المصرية 1954م.

الكلية، وأستثني من رأي الدكتور ((رجب البيومي)) [1] اتفاق حركة حرف الروي لأنه شيء نادر وقع في مجالٍ ضيق مثلما عارض ((الحسين بن الضحاك)) بقصيدته الهمزية في وصف الخمر والتي يقول مطلعها:

بدلت من نفحات الورد بالآء [2]   ومن صبوحك در الإبل والشاء

فقد عارض ((أبا نواس)) في همزيته الخمرية الشهيرة:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء   وداوني بالتي كانت هي الداء

هذا: والناظر في التعريف الأدبي لا يراه ينفك عن التعريف اللغوي، ولا يبتعد عنه، كما يلاحظ التقدم والتأخر بين المتعارضين، ومن الممكن أن يكونا متزامنين أو فصل بينهما زمن يسير أو طويل، أو يكونا في عصرين مختلفين، وهذا هو الأغلب الأعم في قصائد المعارضات.

ولأن الاتفاق التام غير مشروط في المعارضة، فإنها حينئذٍ تنقسم إلى معارضة تامة إذا اتفق النصان من جميع الوجوه، وتسمى معارضة ناقصة إذا تخلف وجه من وجوه الاتفاق.

علمًا بأن ((التقيد بالموضوع لا يعني اتحاد الموضوعين، ولكن يعني اتفاقهما في الاتجاه، فالمدح والرثاء موضوعان، بيد أن كليهما مدح، أما الأول فمدح لحي، وأما الثاني فمدح لميت، ومثل ذلك المدح والهجاء، فالأول إثبات صفات طيبة، والثاني إثبات صفات مذمومة)) [3].

وأقف أمام تلك المعلومة لأقرر أن ما يتعلق بالمدح والرثاء مسلم به؛ لأن في كليهما مدحًا حقًا ويجوز أن يقعا في قصيدتين من قصائد المعارضة، فما رثى به الرسول صلى الله عليه وسلم حين وفاته أو قريب منها يعد رثاء، أما ما صدر بعد فترة طويلة فإنه يعد مدحًا، وفي الغالب تقع القصيدة على حافر القصيدة الأولى في الموضوع.

أما المدح من شخص والهجاء من شخص آخر فهو أدخل في باب النقائض.

---

(1) حديث خاص.

(2) الآء: ثمر شجر.

(3) المعارضة في الأدب العربي د/ إبراهيم عوضين ص 8 الطبعة الأولى 1980.

إذن فهناك شروط ينبغي توفرها أو بعضها في المعارضات، يوحى توفرها هذا أن هناك معارضه بين نصين، وإن لم يشر المعارض بنصه إلى ذلك.

ومن نافلة القول في هذا المجال أرى عرضًا لبعض نماذج المعارضات الناقصة إرضاءً لمن يصرون على اعتبارها معارضات:

فمن المعارضات التي تخلف فيها شرط اتحاد القافيه معارضة ((الفرزدق)) ((لكثير عزة)) وهو يقول:

ألا ليتنا يا عز من غير ريبة　　　بعيران نرعى في الغلاة ونعزب

كلانا به عر فمن يرنا يقل　　　على حسنها جرباء تعدى وأجرب

إذا ما وردنا منهلاً صاح أهله　　　علينا فما ننفك نرمي ونضرب

يقول الفرزدق:

فياليتنا كنا بعيرين لا نرد　　　على منهل إلا نشل ونقذف

كلانا به عر يخاف قرافة　　　على الناس مطلى المساعر أخشف [1]

ومن المعارضات التي اختلف فيها الوزن، معارضة الجارم في قصيد: ((الشريد الأعمى)) ومطلعها:

أطلت الآلام من جحره　　　ولفت الأسقام في طمره

فقد عارض ((حافظ إبراهيم)) في قصيدته:

هذا صبي هائم　　　تحت الظلام هيام حائر

ومن ذلك أيضًا معارضة ((صلاح الدين الصفدي)) ((لابن نباته)) وهو يقول:

ومولع بشباك　　　يمدها وشراك

قالت لي العين ماذا　　　يصيد؟ قلت: كراكي

يعارضه ((الصفدي)) فيقول:

أغار على الكرى حينما رمى　　　كراك غزال للبدور يحاكي

فقلت ارجعي يا عين عن حسن ورده　　　ألم تنظريه كيف صاد كراكي؟ [1]

((وشوقي)) يعارض ((البوصيري)) في همزيته التي يقول مطلعها:

---

[1] المعارضات في الشعر العربي ص 60.

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء [2]

ومن هذا القبيل معارضة ((الكميت)) ((لذي الرمة)) في بائيته:

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كلى مفرية سرب

يقول: ((الكميت)):

طربت وما شوقًا إلى البيض أطرب ولا لعبًا مني وذو الشيب يلعب

ومن المعارضات التي اختلفت فيها حركة حرف الروى، معارضة:

((الحسين بن الضحاك)) ((لأبي نواس)) في قصيدته:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بالتي كانت هي الداء

يقول ((الحسين)):

بدلت من نفحات الورد بالآء ومن صبوحك در الإبل والشاء

وهذا هو ((ابن القيسراني)) يعارض ((أبا تمام)) بقوله:

هذي العزائم لا ما تدعي القضب وذي المكارم لا ما قالت الكتب

فقد عارض ((أبا تمام)) في قصيدته التي يقول مطلعها:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

ومن هذا القبيل رثاء ((حسن القاياتي)) ((لمصطفى كامل)) بقوله:

ألا طرق المقدار بالفتكة البكر عشية أودى سهمه بفتى مصر [1]

وقد عارض في قصيدته ((أبا تمام)) وهو يرثي ((محمد بن حميد الطوسي)) في قصيدته:

كذا فليجل الخطب وليقدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر [2]

ومن المعارضات التي اختلف فيها الموضوع والقافية معًا، معارضة الجارم في قصيدته عن ((شوقي)):

وقفت تجدد آثارها وتنشر للعرب أشعارها

---

[1] المرجع السابق ص 115.
[2] الشوقيات جـ 1 ص 34 المكتبة التجارية الكبرى.
[1] ديوان القاياتي : جـ 1 ص 62 الطبعة الأولى 1910م.
(2) ديوان أبي تمام : جـ 4 ص 79 دار المعارف بمصر 1965م.

فقد عارض ((شوقي)) في قصيدته عن ((سعد زغلول)):

نجا وتماثل ربانها　　　　ودق البشائر ركبانها

ومما اختلف الغرض والمضمون فيه، معارضة ((البوصيري)) ((لأبي تمام)) في قصيدته:

سلم على الربع من سلمى بذي سلم　　　　عليه وشم من الأيام والقدم

يقول ((البوصيري)):

أمن تذكر جيران بذي سلم　　　　مزجت دمعًا جرى من مقلة بدم

و ((البوصيري)) في بردته هذه: ((قد استوحى نبرتها الموسيقية، وقافيتها، وحركة رويها، وإطارها العام دون غرضها، من قصيدة أبي تمام الميمية أيضًا مع اختلاف الغرض والمضون)) [1].

بواعث المعارضة وأهمية دراستها:

تعددت دوافع المعارضة، فكان منها الرغبة في محاكاة السابقين، أو المعاصرين، إما بهدف صنع نص يحاكي المثال الأول الذي ملأ على المحاكي وجدانه، وحرك مشاعره، فغلبه التأثر بالنص الأول، ودفعه إلى محاكاته، بدافع الإعجاب والانبهار، وإما تكون الرغبة في الاشتهار من وراء تلك المعارضة، حين تصدر من قبل شاعر خامل لشاعر نابه مشهور، حينئذٍ لا يكون الإعجاب بالنص وحده، وإنما يكون بصاحبه أيضًا.

وهنا يتداخل الإعجاب بالإستعانه، فقد استعان المعارض بمثاله المشهور، لتكتب له الشهرة كذلك، باقتران عمله بعمل نموذجه الذي يعارضه.

على أن الاستعانه لها وجهٌ آخر، عبر عنه الدكتور ((إبراهيم عوضين)) [2] بالغرابة، بمعنى أن يكون النص عربيًا غير مشتهر، فيستعين المعارض بالنص الأول الغريب، ويعارضه في محاولةٍ لإظهار أن نصه بكر من صنعه، لم يسبقه أحدٌ إليه، ويضرب ذلك مثلاً بما فعله ((عبد الله بن الزبير)) بأبيات ((ابن أوس))

---

(1) تاريخ المعارضات في الشعر العربي ص 163.

(2) المعارضة في الأدب العربي ص 41.

فقد حكى ((أبو عبيدة)) وغيره أن ((عبد الله بن الزبير)) دخل على ((معاوية)) فأنشده لنفسه:

إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته على طرف الهجران إن كان يعقل

ويركب حد السيف من أن تضيمه إذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل

فقال له ((معاوية)): لقد شعرت بعدي ((يا أبا بكر)) !

ولم يفارق ((عبد الله)) المجلس حتى دخل ((معن بن أوس المزني)) فأنشده قصيدته التي أولها:

لعمرك ما أدري وإني لأوجل على أينا تعدو المنية أول

حتى أتى عليها، وهذان البيتان فيها.

فأقبل ((معاوية)) على ((عبد الله بن الزبير)) فقال: ألم تخبرني أنها لك؟!

فقال: المعنى لي واللفظ له، وبعد، فهو أخي من الرضاع، وأنا أحق الناس بشعره.

على أنه يمكن أن تكون المعارضة بسبب التأثر والإعجاب حيث يأتلف الذوق والقلب معًا، ذلك ((أن الشاعر الموهوب لا يتصنع القول حين يعارض شاعرًا، وإنما تتفجر المعاني من نبع القلب..... فمن العسير أن نتصور الشاعر مستعبدًا لمن يعارضه، وإن تأثر خطواته في الوزن والقافية والموضوع)) [1].

ويرى الدكتور ((زكي مبارك)) أن المعارضة في صميمها هي تلاقي روحين، وائتلاف قلبين، حينئذٍ تلغى الفوارق الاجتماعية بين الشاعرين، وتكون قوة تأثير الشاعر في الشاعر الخامل هي مثار الإعجاب والتأثر.

وكما يكون الإعجاب بنص كامل لما حوى من تعبير آسر، أو قافية جميلة ووزن طروب، وموسيقى رقيقة، وخيال محلق، ومعنى دقيق، يكون الإعجاب بموضوع معين، أو بغرضٍ من أغراض الشعر.

وقد تكون المعارضة بدافع إظهار البراعة والقدرة على التفنن في القول، مثلما أتيح لصاحب النموذج الأول، رغبةً في التحدي والمغالبة، وإن كان عنصر التحدي والمغالبة في المناقضات أظهر منه في المعارضات.

---

[1] الموازنة بين الشعراء : د/ زكي مبارك ص 273، 274 الطبعة الثانية.

هذه الدوافع أو بعضها قد تكون الاستجابة من ورائها، وحينئذٍ تكــون الاســتجابة داخلية أو خارجية.

فالداخلية: تكون بتحريك دافع أو أكثر يمور في أعماق الشــاعر، فتتحــرك لــه شاعريته، وتمده بعوامل القدرة على المعارضة، والتفنن في المحاكاة، ولا مانع من أن تكون الاستجابة تحقيقًا لرغبة تخليد النفس، أو تحقيق الإمتاع لهــا فــي هــذه الحالة.

وقد تكون الاستجابة لنفس فارغة من الهموم، أو التجارب الذاتية، فهــي تتســلى بمساجلات شعرية في صورة خطابات منظومة شعرًا عاديًا، أو ألغازًا منظومــة، فيرد عليها المرسل إليه ملتزمًا نفس البحر والقافية في الرسالة.

وهذه الظاهرة كانت أوضح ما يكون في العصر المملوكي؛ حيث الضعف الأدبــي الذي يلجئ الشعراء إلى هذا اللون من النظم.

والخارجية: تكون بطلب الإحتذاء والمعارضة لشاعر بعينه، أو قصــيدة معينــة، حينئذٍ أرى قصيدة المعارضة أقرب إلى شعر المناسبات؛ لأنها لــم تصــدر عــن انفعال صادق، أوحت به تجربة ملأت على الشاعر وجدانه، وتملكت عليه أقطــار نفسه، إذ الصدق الفني فيها يكون شاحبًا، والعاطفة باردة.

ويرى الدكتور ((إبراهيم عوضين)) أن التجربة في الاستعانة تقــوم فــي نفــس المحاكي وتختص به، ولحرصه على إخراجها في ثوب تعبيري جيد، يفتش عــن شاعر أجاد التعبير في هذا الموضوع، ويهتدي به في صياغة تجربته، ويضــرب لذلك مثلاً ((بشوقي)) وقد نُفِي إلى بلاد الأندلس، يعاني من مكابدة الغربة يتمثــل ((البحتري)) في وصفه إيوان كسرى، وما أثاره خرابه من أحزان، مثلما أثير في نفس ((شوقي)) خراب الحمراء، وزوال دولة العرب في ربوع تلك البلاد، استناد التصريح ((شوقي)) بما يوحي بذلك [1].

أقول: إذا صدق هذا بين شاعر ناشئ وآخر راسخ القدم في عالم الشعر والشعور، فلا يصدق تمامًا على ((شوقي)) مع ((البحتري)) ذلك أن ((شوقي)) وهو في تلــك المرحلة كان ناضج الشاعرية، يكفيه الائتناس بصياغة البحتري وتصويره، ولــه

---

[1] الشوقيات جـ 2 ص 44 المكتبة التجارية الكبرى.

بعد ذلك القدرة على الإنشاء والإبتكار، بدليل أن ((شوقي)) أتى بما لم يـأت بـه ((البحتري))، وهو يتحدث عن القدر في أبياته:

عقلت لجة الأمور عقولاً كانت الحوت طول سبح وغس

غرقت حيث لا يصاح بطاف أو غريق ولا يصاخ لحس

فلك يكشف الشموس نهارًا ويسوم البدور ليلة وكس[1]

هذه الصورة البديعة يقول عنها الدكتور ((زكي مبارك)): ((ولـم تظفـر الـنفس الإنسانية برثاء أبرع من هذا الرثاء، ولا وجدت العقول من يذرف عليها مثل هذه الدمعة وهي على جبروتها ألعوبة القدر، وأضحوكة القضاء، ومن ذا الذي وقـف على القبر الذي ثوت فيه آمال الأمم المعذبة، ثم جاد عليها بمثـل هـذه الدمعـة الغالية، يذرفها مثل شوقي على تلك العقول التي عقلتها لجـة الخطـوب، والتـي غرقت حيث لا يصاخ لحس ولا يصاح بطاف أو غريق)) [2] كذلك يرى الدكتور ((زكي مبارك)) البون شاسعًا بين ((البحتري)) و ((شوقي)) في حديثهما عن عنف الدهر وجوره، بما عبر عنه ((شوقي)) في البيتين الأولين من الأبيـات السـابقة، وعبر عنه البحتري بقوله:

وكأن الزمان أصبح محمولاً هواه على الأخس الأخس

ويقول عن صورة ((شوقي)): إن هذه صورة شعرية نادرة المثال[3]

كما كان ((لشوقي)) انفراد بالحديث عن خروج العرب من الأندلس، ومدى التصدع النفسي الذي أصاب الأندلسيين وهم يغادرون بلادهم، وذلـك فـي ثمانية أبيات تبدأ بقول ((شوقي)).

آخر العهد بالخريرة كانت بعد عرك من الزمان وضرس [1]

فهل كان شوقي في حاجة إلى من يرود له الطريق، أم كان يبحث له عـن أنـيس يبكي معه، فيخف الجوى بين الجوانح؟

---

(1) المرجع السابق ص 48.
(2) الموازنة بين الشعراء ص 156.
(3) المرجع السابق ص 159.
(1) الشوقيات جـ 2 ص 51.

هذا، ولعل دراسة فن المعارضات يكون من الأهمية بمكان، إذا عرفنا أن تلك الدراسة تلقي بالأضواء على عصور الأدب المختلفة، فتتضح صورة المجتمع الجغرافية، وعاداته الاجتماعية، وثقافته الأدبية، وتربطنا بالتراث ربطًا وثيقًا يكشف لنا ازدهار أو خمود الحركة الأدبية على مدى الأعصر المختلفة، فهي تحمل من التاريخ جوانبه المتعددة، وتميط اللثام عن طبائع النفوس ودخائلها وما يمور في أعماقها من مشاعر وخلجات، وما تعرضت له من تجارب ذاتية، كانت من وراء ذلك التعبير المفعم بالصدق الفني في أغلب حالات تلك التجارب.

فضلاً عن ذلك فإنها تضع الأعصر التاريخية والأدبية والسياسية وجهًا لوجه، فيسهل على المتلقين دراسة تلك العصور دراسة مقارنة، بعد أن تتلاشى المسافات بين الأماكن، وينعدم البعد الزمني في خيال الدارسين بين تلك الأعصر المتباعدة.

الفصل الثاني

نشأة المعارضة وتطورها

واكبت المعارضة نضوج الشعر وارتقاءه، حينما استوى عوده فأعجب الزراع نباته، وكانت أولية ذلك في العصر الجاهلي؛ حيث أحس الشاعر –بعد أن نضجت شاعريته– أنه بمقدوره أن يعلو ذكره، كما علا ذكر غيره من الشعراء، فيحاكي رفيع الشأن من الشعراء رغبة في الاشتهار، أو لتسمو قبيلته، كما سمت قبيلة أخرى نبغ فيها شاعر، أو بدافع التحدي، إن كان شأن القبيلة يرتفع به، أو يرد كيد قبيلة أخرى.

ولعل أول مظهر من مظاهر المعارضة في العصر الجاهلي هو ما وقع بين ((امرئ القيس)) و ((علقمة بن عبدة))، وكان التحدي من وراء تلك المعارضة، عندما احتكم الأخير إلى زوج الأول لبيان أيهما أشعر، فقالت ((أم جندب)): قولا شعرًا تصفاه فيه الخيل على رويٍ واحدٍ وقافيةٍ واحدةٍ، فقال ((امرؤ القيس)) قصيدة مطلعها:

خليلي مرا بي على أم جندب		لنقضي حاجات الفؤاد المعذب [1]

---

[1] في بعض الروايات ((نقض لبانات الفؤاد المعذب)).

وقال ((علقمة)) قصيدة مطلعها:

ذهبت من الهجران في كل مذهب ولم يك حقًا كل هذا التجنب

ثم أنشداها جميعًا، فقالت ((لامرئ القيس)): علقمة أشعر منك، قال:

وكيف ذاك؟ قالت لأنك قلت:

فللساق ألهوب وللسوط درة وللزجر منه وقع أخرج منعب

فجهدت فرسك بسوطك، ومريته بساقك، وقال ((علقمة)):

فأدركهن ثانيًا من عنانه يمر كمر الرائح المتحلب

فأدرك طريدته وهو ثان من عنان فرسه، لم يضربه بسوط، ولا مراه بساقٍ، ولا زجره، قال: ما هو بأشعر مني، ولكنك له وامق [1].

والناظر في تلك القصة، يرى المعارضة ولدت تامة في العصر الجاهلي؛ لأن القصيدتين اتفقتا وزنًا، وقافية، ورويًا، وموضوعًا، وهذه أقصى شروط المعارضة التامة.

وتشيع المعارضة في العصر الجاهلي، ويكون ((أوس بن حجر)) هو ذلك المثال الذي يحتذيه المعارضون، وبخاصة في وصف الصيد، فكان ((زهيربن أبي سلمى، يتوكأ في شعره على شعر ((أوس))، وكان ((النابغة)) كذلك يعتمد على شعره في الصيد على وجه الخصوص: ((فكل ما في شعر زهير والنابغة من وصف الصيد، معتمد فيه على شعر أوس في الصيد أيضًا)) [2].

فإذا ما انتقلنا إلى عصر صدر الإسلام، فإننا نرى فن المعارضة وقد توارى بالحجاب؛ إذ انشغل الشعراء المسلمون بدينهم الجديد، وأصبحت هموم الدعوة وانتشارها هي شغلهم الشاغل، وشعراء الكفار صبوا اهتمامهم على تحطيم هذا الدين الجديد، فانصرف هؤلاء وهؤلاء عن المعارضة إلى المناقضة، فكان شعراء المسلمين ينقضون ادعاءات شعراء المشركين بشعر على نفس الوزن والروى والبحر أيضًا، ولكن الموضوع كان يختلف:

---

(1) ديوان ((امرئ القيس)) : دار بيروت للطباعة والنشر ص 64- 1972م،
و((الشعروالشعراء)) ((لابن قتيبه)) الطبعة الثالثة 1977م تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ص 224.

(2) في الأدب الجاهلي : د / طه حسين – الطبعة الثالثة 1933م، ص 297.

ففي أحد الأطراف فخر وهجاء، وعلى الطرف الآخر فخر وهجاء أيضًا، ولكن بعد هدم الثاني لما بناه الأول.

وينتهي عصر صدر الإسلام، ولا نرى معارضة بالمعنى الأدبي الذي أشرنا إليه ونحن نعرف بها، وحتى بعد أن انتهى أمر شعراء المشركين، واستقر المسلمون في المدينة، شغلوا بأمر الفتوحات الإسلامية، وشغل شعراؤهم بأمر نشر الدعوة، وتحميس المجاهدين، ورثاء الشهداء إلى غير ذلك من الموضوعات التي ملأت عليهم فراغهم – إن كان هناك فراغ.

ولكنها في العصر الأموي تعود إلى الظهور والذيوع، وتواكب المناقضة في مسيرتها، ويكون لكل ميدان فرسانه.

فمن معارضات العصر الأموي، معارضة، ((الكميت)) بقصدته:

هل أنت عن مطلب الإيقاع منقلب

أم هل يحسن من ذي الشيبة اللعب؟!

عارض ((ذا الرمة)) في قصيدته:

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كلى مفرية سرب

وقد اعترف ((الكميت)) ((لذي الرمة)) بتلك المعارضة، حينما قدم ((ذو الرمة)) الكوفة، وأخبره الكميت بتلك المعارضة، فأقره ((ذو الرمة)) عليها، وقدم له بعض التوجيهات الفنية، حيث قال: ((ما أحسن ما قلت، إلا أنك إذا شبهت الشيء ليس تجيء به جيدًا كما ينبغي، ولكنك تقع قريبًا، فلا يقدر إنسان أن يقول: أخطأت ولا أصبت، ولم تصف كما وصفت أنا، ولا كما شبهت)) [1].

ومن ذلك أيضًا معارضة ((عمر بن أبي ربيعة)) بقصيدته [1]:

ألم تسأل الأطلال والمتربعا ببطن حليات دوارس بلقعا

عرض بها ((جميل بن معمر)) في قصيدته:

عرفت مصيف الحي والمتربعا كما خطت الكف الكتاب المرجعا

معارف أطلال لبثنة أصبحت معارفها قفرًا من الحي بلقعا

---

[1] المعارضة في الأدب ص 99.

[1] تاريخ المعارضات في الشعر العربي ص 18.

وقريب من ذلك –وفي العصر العباسي– معارضة ((الخراز)) ((لأبي نواس)) بعد أن جمع بينهما ائتلاف الذوق والقلب وربط بينهما الغزل، وتباريح الغرام، يقول ((أبو نواس)):

يا ريم هات الدواة والقلما أكتب شوقي إلى الذي ظلما
من صار لا يعرف الوصال وقد زاد فؤادي في حبه ونما
غضبان قد عزني هواه ولو يسأل مما غضبت ما علما
فليس ينفك منه عاشقه في جمع عذر من غير ما اجترما
لو نظرت عينه إلى حجر ولد فيه فتورها سقما
أظل يقظان في تذكره حتى إذا نمت كان لي حلما

وأبيات ((الخراز)) تقول:

إن باح قلبي فطالما كتما ما باح حتى جفاه ما ظلما
وكيف يقوى على الجفاء فتى قد مات أو كاد أو أراه وما
أشك أن الهوى سيقتلني من غير سيفٍ ولا يريق دما
كيف احتيالي لشادن غنج أصبح بعد الوصال قد صرما
ما قلت لما علا الصدود به يا ريم هات الدواة والقلما
لكن سفحت الدموع من حزن لما تمادى الصدود ثم نما
إن الرسول الذي أتاك بما أتاك عني قد حرف الكلما [1]

لقد كانت المعارضة تصل العصور ببعضها فنرى بعض شعراء العصر العباسي يعارضون بعض شعراء العصر الجاهلي، من ذلك: معارضة [2] ((مروان ابن أبي حفصة)) –وهو يمدح الخليفة المهدي ويتشفع لديه بعد أن وشي به الوزير ((ابن يعقوب))– يعارض ((النابغة الذبياني)) –وهو يعتذر للنعمان ابن المنذر– الذي يقول في بعض اعتذارياته بعد أن وشي به الوشاة أيضًا:

وعيد أبي قابوس في غير كنهه أتاني ودوني راكس فالضواجع
فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقع

---

[1] الموازنة بين الشعراء ص 274.
[2] المعارضات في الشعر العربي ص 73.

يسهد من ليل التمام سليمها لحلي النساء في يديه قصاقع

فيعارض مروان، هذه الأبيات بأبيات تقول:

أبيت وجنبي لا يلائم مضجعًا إذا ما اطمأنت بالجنوب المضاجع

أتاني من المهدي قول كأنما به احتز أنفي مدمن الضغن جادع

وقلت وقد خفت التي لا شوى لها بلا حدث: إني إلى الله راجع

ومالي إلى المهدي لو كنت مذنبًا سوى حلمه الصافي من الناس شافع

ويطوي ((مروان بن أبي حفصة)) الزمن طيًا وهو يمدح الخليفة المهدي بقصيدته التي يقول فيها:

صحا بعد جهل فاستراحت عواذله وأقصر عنه حين أقصر باطله

وقال الغواني قد تولى شبابه وبد شيبًا بالخضاب يقاتله

طوى مروان، الزمن بأن تطلع إلى ((زهير بن أبي سلمى)) الجاهلي في قصيدته:

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعرى أفراس الصبا ورواحله

فأدنى العصر الجاهلي من الأموى حيث تتطلع أيضًا إلى ((الأخطل)) في قصيدته:

صحا القلب عن أروى وأقصر باطله وعاد له من حب أروى أخابله [1]

وهذا هو ((البحتري)) يعارض أستاذه ((أبا تمام)) في أبياته:

وقالت أتنسى البدر قلت تجلدًا إذا الشمس لم تغرب فلا طلع البدر

فأذرت جمانًا من دموع نظامها على الصدر إلا أن صائغها الشفر

وما الدمع ثان عزمتي ولو أنها سقى خدها من كل عين لها نهر

عارض ((البحتري)) بأبياته:

إذا ما نهى الناهي فلج بي الهوى أصاخت إلى الواشي فلج بي الهجر

ويوم تثنت للوداع وسلمت بعينين موصول بلحظهما السحر

توهمتها ألوي بأجفانها الكرى كرى النوم أو مالت بأعطافها الخمر[2]

وها هو ذا كل من الخليع ((الحسين بن الضحاك)) و ((ابن المعتز)) يتخذون من

---

(1) المرجع السابق ص 76.

(2) المعارضة في الأدب العربي ص 109.

((أبي نواس)) إمامًا ونموذجًا رفيعًا في وصف الخمر، فإذا ما انطلق ((أبو نواس)) بقصيدته الهمزية يقول:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء   وداوني بالتي كانت هي الداء
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها   لو مسها حجر مسته سراء
رقت عن الماء حتى ما يلا ئمها   لطافة وجفا عن شكلها الماء
فلو مزجت بها نورًا لما زجها   حتى تولد أنوار وأضواء
لتلك أبكي ولا أبكي لمنزلة   كانت تحل بها هند وأسماء [3]

يقول ((أبو نواس)) ذلك فيعارضه ((الحسين بن الضحاك)) بقصيدة تلتقي مع قصيدة أبي نواس في شروط المعارضة ولكنها تختلف في حركة حرف الروي، يقول فيها:

بدلت من نفحات الورد بالآء   ومن صبوحك در الإبل والشاء
ففي غد لك من زهراء صافية   بطير ناباذ ماء ليس كالماء
راح الفرات عليها في جداوله   وباكرتها سحابات بأنواء
تمازج الروح في أخفى مداخله   كما تمازج أنوار بأضواء
لا يدرك الحس منها حين تبعثه   إلا التنسم أولدغًا بأحشاء
لا يستطيع سنا نور لها نظرًا   حتى تعود له لحظات حولاء [1]

ويعارض ((ابن المعتز)) ((أبا نواس)) كذلك، وإن اتفق مع الحسين ابن الضحاك في مخالفة حركة حرف الروي. فكان مما قال [2]:

أمكنت عازلتي من صمت آباء   ما زاده النهي شيئًا غير إغراء
أين التورع من قلب يهيم إلى   حانات قطر بل بالعود والناء
أجرى الفرات إليها من سلاسله   نهرًا تمشي على جرعاء ميثاء
تلك التي إن تصادف قلب ذي حزنٍ   تجزل عطيته من كل سراء

---

[3] ديوان أبي نواس : دار صادر – بيروت 1962 ص 7.
[1] الموازنة بين الشعراء ص 387.
[2] ديوان ابن المعتز: دار صادر – بيروت 1961ص 13.

وإذا كان ((أبو نواس)) إمامًا ((للحسين بن الضحاك)) و ((ابن المعتز)) فعارضا بما مضى، فقد كان مأمومًا ((لامرئ القيس)) في قصيدته التي يقول مطلعا [3]:

رب رام من بني ثعل   متلج كفيه في قتره

فأعجب بها أبو نواس، وعارضها بقصيدة مدح بها ((العباس بن عبيد الله ابن جعفر المنصور)) يقول مطلعها [1]

أيها المنتاب من عفره   لست من ليلي ولا سمره

كما ربط خيال المتنبي العصر الأموي بالعصر العباسي حينما أراد أن يمدح كافور الإخشيدي، فاستلهم قصيدة ((الكميت)) التي يمدح بها الهاشمين والتي يقول مطلعها:

طربت وما شوقًا إلى البيض أطراب

ولا لعب مني وذو الشيب يلعب

فعارضه بقصيدته التي يقول مطلعها:

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب

وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

وكما عارض المتنبي غيره فقد عورض هو الآخر من قبل كثير من الشعراء، فقد عارضه ((ابن رزيك)) ((وأسامة بن منقذ)) في قصيدته المشهورة:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم   وتأتي على قدر الكرام المكارم

أما قصيدة ((ابن رزيك)) فقد بعث بها للأمير أسامة بن منقذ، بعد أن عارض بها ((المتنبي)).

ألا هكذا في الله تمضي العزائم

وتقضي لدى الحرب السيوف الصوارم

وقد رد ((أسامة بن منقذ)) على ((ابن رزيك)) بقصيدة عارضة فيها يقول مطلعها:

لك الفضل من دون الورى والأكارم

فمن حاتم؟ ما نال ذا الفخر حاتم [1]

---

[3] ديوان امرئ القيس ص 102.

[1] ديوان أبي نواس ص 308.

ونحن مع المتنبي نشير إلى معارضة وقعت منه بدافع الاستجابة الخارجيـــة أولاً، أعقبتها استجابة داخلية، وذلك بعد أن سمع سيف الدولة شعر ((أبي ذر سهل بـــن محمد الكاتب)):

يا لائمي كف الملام عن الذي	أضناه طول سقامه وشقائه
إن كنت عاذله فداو سقامه	وأعنه ملتمسًا لأمر شفائه
حتى يقال بأنك الخل الذي	يرجى لشدة دهره ورخائه
أولا فدعه فما به يكفيه من	طول الملام فلست من نصائحه
نفسي الفداء لمن عصيت عواذلي	في حبه لم أخش من رقبائه
الشمس تطلع من أسرة وجهه	والبدر يطلع من خلال قبائه

فيأمر ((سيف الدولة)) شاعره ((المتنبي)) بأن يعارض ((أبا ذر)) فيقول:

عذل العواذل حول قلب التائه	وهوى الأحبة منه في سودائه
يشكو الملام إلى اللوائم حره	ويصد حين يلمن عن برحائه
وبمهجتي يا عاذلي الملك الذي	أسخطت كل الناس في إرضائه
إن كان قد ملك القلوب فإنه	ملك الزمان بأرضه وزمانه
الشمس من حساده، والنصر من	قرنائه، والسيف من أسمائه
اين الثلاثة من ثلاث خلاله	من حسنه وإبائه ومضائه
مضت الدهور وما أتين بمثله	ولقد أتى فعجزن عن نظرائه

هذه الأبيات السبعة صدرت نتيجة استجابة خارجية عند ما طلب ((سيف الدولة)) إلى المتنبي أن يعارض ((أبا ذر)) فلمح ((المتنبي)) بذكائه المتوقد رغبة أميره في أنه يمدح بمثل معاني ((أبي ذر))، وفي الوقت نفسه تولد في أعماق المتنبي شعور بالخوف من أن يحتل ((أبو ذر)) مكانة ((المتنبي)) من قلب ((سيف الدولة))، كما تحركت فيه نوازع الغرور والعظمة فدفعته إلى محاولة التفـــوق والتبريـــز، كمـــا خشى ان يكون ذلك اختبارًا لشاعريته الجبارة، ومـــدى قـــدرتها علـــى المحاكـــاة والمعارضة، وقد يكون الاختبار هذا بالإضافة إلى رغبة سيف الدولة في التخليـــد

---

(1) تاريخ المعارضات في الشعر العربي ص 59.

بالمدح، دفع كل ذلك به إلى أن يطلب المزيد من المتنبي، فظل المتنبي ينشد حتى بلغت أبياته خمسة وعشرين بيتًا منها:

القلب أعلم يا عذول بدائه   وأحق منك بجفنه وبمائه

فومن أحب لأعصينك في الهوى   قسمًا به، وبحسنه، وبهائه [1]

وها هو ذا ((ابن القيسراني)) يمدح ((نور الدين محمود)) –أحد سلاطين الدولة الأيوبية– ويهنئه بفتح حصن ((إنب)) (في نواحي حلب) بقصيدة قال فيها:

هذي العزائم لا ما تدعي القضب   وذي المكارم لا ما قالت الكتب

وهذه الهمم اللاتي متى خطبت   تعثرت خلفها الأشعار والخطب

قل للطغاة وإن صمت مسامعها   قولاً يصم القنا في ذكره أرب

ما يوم إنب والأيام دائلة   من يوم (يغرا) بعيد لا ولا كثب

خانوا فخانت رماح الطعن أيديهم   فاستسلمو وهي لا نبع ولا غرب

أبناء ملحمة لو أنها ذكرت   فيما مضى نسيت أيامها العرب

فانهض إلى المسجد الأقصى بذي لجب

يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب

يا من أعاد ثغور الشام ضاحكة   من الظباعن ثغور زانها الشنب [2]

و ((ابن القيسراني)) في ذلك يعارض ((أبا تمام)) في قصيدته عن فتح عمورية ومدحه ((المعتصم)) ويشتهر مطلعها بهذا البيت:

السيف أصدق أنباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب

وإن كان قد خالف في حركة حرف الروى.

ومن متأخري العصر العباسي نرى ((أبا المظفر الأبيوردي)) يعارض ((الشريف الرضي)) في قصيدته:

يا ظبية البان ترعى في خمائله   لهنك اليوم أن القلب مرعاك

فيقول:

كيف السلو وقلبي ليس ينساك   ولا يلذ لساني غير ذكراك [1]

---

[1] المعارضة في الأدب العربي ص 112.

[2] معجم البلدان – ياقوت الحموي جـ 1 ص 342 طبعة مصر 1906 م.

والحديث عن معارضات العصر العباسي طويل، نكتفي منه بهذا القدر المحدود للتمثيل، وليس الإحاطة.

وإذا كنا نريد الخروج من الحديث عن معارضات العصر العباسي، فلا ينبغي أن ننسى معارضة الأندلسيين لبعضهم، ومعارضتهم لغيرهم من شعراء المشرق، والتفنن في هذه المعارضات حتى شملت الموشحات، وأحيل القارئ على كتاب: ((تاريخ المعارضات في الشعر العربي)) للدكتور ((محمد محمود قاسم نوفل)) فقد درس هذا الموضوع بعناية ما بين صفحة 75 حتى صفحة 154، فإذا ما تجاوزنا ذلك إلى العصر المملوكي، فسوف نرى المعارضة فيه صارت سمة من سماته، وعلامة أدبية من علاماته المميزة؛ لأنه عصر ضعف أدبي، نضبت فيه القرائح، وندرت فيه التجارب الذاتية، وضعف لدى الشعراء القدرة على الصياغة المحكمة، والديباجة الصافية، والشاعرية المحلقة، لدرجة أن أطلقت عليه بعض العبارات، فقيل عنه: إنه عصر التكلف والتصنع، وأنه عصر السرقات، والتضمين، والاقتباس، والبديعيات، وعصر نظم العلوم والفنون، فلجئوا إلى النماذج الرفيعة يحاكونها، ويعارضونها، إعجابًا، أوتزجية لوقت الفراغ، ولذلك ((فإننا نجد أن العصر المملوكي أغزر عصر من حيث النتاج الأدبي لشعر المعارضات..... فشعراء العصر المملوكي أولعوا بالمعارضات الشعرية وإحياء التراث القديم، وإبراز النتاج الأدبي المعاصر لهم، كما أظهروا منافسة حادة في ذلك، وتباروا في تنميق مطالع قصائدهم، وإظهار براعتهم، وتجويد استهلالهم، [(1)]. وقد أصبح أهم دوافع المعارضة الإعجاب والاستعانة والتسلية [(2)].

ولأن الشعراء في ذلك العصر كادوا يتفرغون للمعارضة رأيناهم يتوسعون في أنماطهم فيعمدون إلى التشطير، أو التخميس، أو التسبيع، أو التعشير، حتى أطلق على عصرهم عصر المعارضات، وبجانب ذلك أطلق على هذا العصر أيضًا عصر المدائح النبوية؛ لأنها شاعت فيه شيوعًا واسعًا.

[(1)] المعارضات في الشعر العربي ص 79.

[(1)] تاريخ المعارضات في الشعر العربي ص 176.

[(2)] المعارضة في الأدب العربي ص 120.

وها هو ذا ((صفي الدين الحلي)) يستجيب لطلب أحد أركان الدولة، فيمدح الملك ((الناصر)) بقصيدة يقول مطلعها:

أسبلن من فوق النهود ذوائبا

فجعلن حبات القلوب ذوائبا [3]

وينهي القصيدة بالشطرة الأولى من قصيدة ((المتنبي)) التي عارضه فيها والتي يقول مطلعها:

بأبي الشموس الجانحات غواربا

اللابسات من الحرير جلاببا

و ((لصفي الدين الحلي)) نونية عارض بها بشامة النهشلي، والتي يقول فيها:

إنا محيوك يا سلمى فحيينا   وإن سقيت كرام الناس فاسقينا

وإن دعوت إلى جلى ومكرمة   يومًا سراة كرام الناس فادعينا

إنا بنو نهشل لا ندعى لأب   عنه ولا هو بالأبناء يشربنا

إن تبتدر غاية يوما لمكرمة   تلق السوابق من والمصلينا

وليس يهلك منا سيد أبدًا   إلا افتلينا غلامًا سيدًا فينا [1]

فيعارضها ((صفي الدين الحلي)) بقصيدته التي يقول فيها [2]:

سلي الرماح العوالي عن معالينا   واستشهدي البيض هل خاب الرجا فينا

وسائلي العرب والأتراك ما فعلت   في أرض قبر عبيد الله أيدينا

لما سعينا فما رقت عزائمنا   عما نروم ولا خابت مساعينا

يا يوم وقعة زوراء العراق وقد   دنا الأعادي كما كانوا يدينونا

يضمر ما ربطناها مسومة   إلا لنغزوا بها من بات يغزونا

و ((جمال الدين ابن نباته المصري)) يعجب أيما إعجاب ((بابن زيدون)) إلى حد أن وضع عنه كتابًا أسماه: (سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون)، وهذا الإعجاب يدفعه إلى معارضة ابن زيدون، في نونيته الشهيرة:

---

[3] ديوان صفي الدين الحلي – دار صادر – بيروت 1962 م، ص 95.

[1] المعارضات في الشعر العربي ص 110.

[2] المرجع السابق ص 111.

أضحى الثنائي بديلاً عن تدانينا   وناب عن طيب لقيانا تجافينا

فعارضه بقصيدة قال فيها:

أعدى بغيركم دمع المحبينا   حتى تلون يوم البين تلوينا

يا هاجرين بلا ذنب سوى شجن   بين الجوانح لا ينفك يشجينا

لا تسألوا ما جرى من فيض أدمعنا   فيكم وما قد جرى من غدركم فينا

أما الرجاء فما راعيتموه لقد   غرت بدوركم آمال سارينا

يجني علينا وتجنبي للأسى ثمرًا   شتان ما بين جانيكم وجانينا

كونوا كما شئتمو نأيًا ومقتربًا   إن لم تكونوا من الدنيا كما شينا

و ((لابن نباته)) أيضًا قصيدة عارض بها ((كعب بن زهير)) في بردته:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيم إثرها لم يفد مكبول

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا   إلا أغن غضيض الطرف مكحول

إن الرسول لنور يستضاء به   مهند من سيوف الله مسلول

في عصبة من قريش قال قائلهم   ببطن مكة لما أسلموا زولوا

فيعارضه مترسمًا خطاه فيقول:

ما الطرف بعدكم بالنوم مكحول   هذا وكم بيننا من ربعكم ميل

يا باعثين سهادًا لي وفيض بكًا   مهما بعثتم على العينين محمول

أوفى النبين سيفًا واتضاح علا   كأنه غرة والقوم تحجيل

في معشر تجب تغزو نبالهم   ما لا غزت في العدا الطير الأبابيل [1]

ويجمع الإعجاب بين ((صلاح الدين الصفدي)) وأستاذه ((ابن نباته)) ببردة ((كعب)) فيعارضه هو الآخر فيقول:

سلوا الدموع فإن القلب مشغول   ولا تملوا ففي إملائها طول

واستخبروا صادحات الأيك عن شجني

هل في الغرام الذي تبديه تبديل

أحبتي لا وعيش مر لي بكم   وربع لهوى باللذات مأهول

ما كان لي مذ عرفت الوجد قط ولا

---

[1] ديوان ابن نباته ص 372.

يكون في غيركم قصد ولا سول [1]

ويظل ((ابن نباته)) نموذجًا يعجب به شعراء عصره فيقبلون على معارضة شعره، من ذلك معارضة ((برهان الدين القيراطي)) له في تائيته:

قضى وما قضيت منكم لبانات   متيم عبثت فيه الصبابات

فيعارضه ((برهان)) بقصيدته:

ما لابتداء صباباتي نهايات   يا غاية ما لعشقي فيه غايات

ويعارضه ((ابن حجة الحموي)) بقصيدته:

لعجبه ولذيل الهجر شمرات   وللقلوب من الأجفان كسرات

((وقد أوغل شعراء هذا العصر في المحاكاة والتقليد، حتى أفضى بهم إلى السرقة. كالذي ذكره جمال الدين بن نباته عن سرقة صلاح الدين الصفدي – تلميذه – لأشعاره، وأن ذلك كثرة حتى ألف فيه ابن نباته رسالة سماها: خبز الشعير [2]

وتتسع دائرة المعارضة في العصر الحديث ويكون ((البارودي)) رائد المعارضات، كما كان رائد مدرسة البعث في العصر الحديث، ويكون ((شوقي)) أمير المعارضات كما كان أمير الشعراء أيضًا، وهذان الشاعران تفردا في العصر الحديث بالإكثار والإلحاح وانكباب على هذا اللون من الشعر، فالبارودي عارض عددًا ضخمًا من الشعراء ابتداء بالعصر الجاهلي، وها هو ذا يعارض النابغة الذبياني في قصيدته[3]:

أمن آل مية رائح أو مغتد   عجلان ذا زاد وغير مزود

يعارضه بقصيدته: [1]

ظن الظنون فبات غير موسد   حيران يكلأ مستنير الفرقد

كما عارض ((عنترة بن شداد)) في معلقته:

هل غادر الشعراء من متردم   أم هل عرفت الدار بعد توهم [2]

---

[1] المعارضة في الأدب ص 123.

[2] المعارضات في الشعر العربي ص 115.

[3] ديوان النابغة – دار صادر – بيروت 1960 م، ص 134.

[1] ديوان البارودي – دار المعارف – مصر 1972م، جـ 1 ص 74.

عارضه بقصيدته:

كم غادر الشعراء من متردم   ولرب تال بذ شأو مقدم [3]

ويعارض ((أبا نواس)) في قصيدته:

أجارة بيتينا أبوك غيور   وميسور ما يرجى لديك عسير [4]

عارضه بقصيدته:

أبى الشوق إلا أن يحن ضمير   وكل مشوق بالحنين جدير [5]

ويعود إلى ((أبي نواس)) فيعارضه بقصيدته:

ذهب الصبا وتولت الأيام   فعلى الصبا وعلى الزمان سلام [6]

عارض بها القصيدة التي مدح بها الأمين ومطلعها:

يا دار ما فعلت بك الأيام   ضامتك والأيام ليس تضام [7]

وبعارض ((البحتري)) بقصيدته:

أقلا ملامي في هوى الشادن الأحوى

فقلبي على حمل الملامة لا يقوى

يعارضه في قصيدته التي مدح بها ((أبا عيسى بن صاعد)) والتي يقول مطلعها:

لنا أبدًا بــث نعانيــه فــي أروى		وحزوى وكم أدنتك من لوعه حزوى[1]

ويعارض البارودي (المتنبي) في قصيدته التي مدح بها (أبا علي الأوراجي) والتي يقول فيها:

أمن ازديارك في الدجى الرقبــاء		إذ حيث كنت مــن الظــلام ضــياء [2]

عارضه بقصيدة منها:

---

[2] ديوان عنترة – دار بيروت للطباعة والنشر 1978م، ص 15.

[3] ديوان البارودي جـ 3 ص 485.

[4] ديوان أبي نواس ص 327.

[5] ديوان البارودي جـ 2 ص 16 المطبعة الأميرية / القاهرة 1954م.

[6] ديوان البارودي جـ 3 ص 333.

[7] ديوان أبي نواس ص 575.

([1]) ديوان البحتري جــ2 ص325 الطبعة الأولى مطبعة هندية 1911م.

([2]) تاريخ المعارضات في الشعر العربي ص 182.

صلة الخيال علــى البعــاد لقــاء		لــو كــان يملــك عينـــي الإغفــاء [3]

ويعارض (المتنبي) مرة أخرى في قصيدته التي يمدح بها (كافور الإخشيدي) والتي يقول فيها:

أود مـــن الأيـــام مـــا لا تــوده		وأشكو إليهــا بيننــا وهــي جنــدة [4]

عارضه بداليته:

رضيت مــن الــدنيا بمــا لا أوده		وأي امرئ يقوى على الدهر زنــده [5]

ويعارض مرة ثالثة في قصيدته التي يقول فيها:

غيري بأكثر هذا النــاس ينخــدع		إن قــاتلوا جبنــوا أو حــدثوا شــجعوا
أهــل الحفيظـــة إلا أن تجـــربهم		وفي التجارب بعــد الغــي مــا يــزع
وما الحياة ونفسي بعد ما علمــت		أن الحيــاة كمـــا لا تشـــتهي طبـــع
يعارضه فيقول:		
والدهر كالبحر لا ينفــك ذا كــدر		وإنمـــا صـــفوه بـــين الـــورى لمـــع
لو كان للمرء فكر فــي عواقبــه		ما شــان أخلاقــه حــرص ولا طمــع
إن الحياة لثــوب ســوف نخلعــه		وكــل ثــوبٍ إذا مــا رث ينخلــع [6]
ويعارض (أبا فراس) في قصيدته:		
أراك عصي الدمع شيمتك الصــبر		أما للهوى نهــي عليــك ولا أمــر [7]
بقصيدته:		
طربت وعادتني المخيلة والســكر		وأصبحت لا يلوي بشيمتي الصــبر [8]

(3) المرجع السابق ص 183.

(4،5) المرجع السابق ص187.

(6) المعارضة في الأدب العربي ص130.

(7) ديوان أبي فراس –دار صادر– بيروت، رواية ابن خالويه ص 157.

(8) ديوان البارودي جـ 1 ص 134.

ويعارض الشريف الرضى في قصيدته:		
لغير العلى مني القلـــى والتجنـــب		ولولا العلى ما كنت في الحب أرغب[9]
عارضه بقصيدته:		
سواي يتحنان الأغاريـــد يطـــرب		وغيري باللـــذات يلهـــو ويلعـــب [10]
ويعجب (البارودي) (بالبوصيري) و(ابن الفارض) الذي راد الطريق (للبوصيري) في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم والتوسل به أملاً في شفاعته، وترجمة للحب الصادق الذي يعتمل به قلبه، ومن أبيات (ابن الفارض) قوله:		
هل نار ليلى بدت ليلاً بـــذي ســـلم		أم بـــارق لاح فـــي الـــزوراء فـــالعلم
أروح نعمان هلا نســـمة ســـحرًا		ومـــاء وجـــرة هـــلا نهلـــة بفـــم
يا لائمًا لامني فـــي حـــبهم ســـفهًا		كف المـــلام فلـــو أنصـــفت لـــم تلـــم
طوعاً لقاضٍ أتى في حكمه عجبًـــا		أفتى بسفك دمي فـــي الحـــل والحـــرم

أصم لم يسمع الشكوى وأبكم لم   يحر جوابًا وعن حال المشوق عمى [11]

ينظم (البوصيري) بردته في مائة وستين بيتًا أولها:

أمن تذكر جيران بذي سلم   مزجت دمعًا جرى من مقلة بدم

فيعارضها البارودي بقصيدة طويلة أسماها: (كشف الغمة في مدح سيد الأمة) بلغت أربعمائـــة وسبعة وأربعين بيتًا، يقول مطلعها:

يارائد البرق يمم دارة العلم   واحد الغمام إلى حي بذي سلم [2]

ولطول هذه المدحية عدها بعض النقاد – ومنهم الأستاذ العقاد– ملحمة، وإن كـــان الـــدكتور ((سعد ظلام)) فضل أن تسمى مطولة، واعتبرها أولى المطولات، ذات الطابع الإسلامي فـــي

([9]) ديوان الشريف الرضى المطبعة الأدبية بيروت جـــ1 ص85.

([10]) ديوان البارودي جـــ1 ص 22.

(1) المعارضات في الشعر العربي ص 183.

[2] نشرت القصيدة منفصلة تحت عنوان: (من المدائح النبوية) الجزء الثاني، وقد قدم لها الدكتور سعد ظلام بمقدمة ضافية، وراجعها محمد صادق.

العصر الحديث، وانتصر لنفسه بتقديم البارودي لها على أنها قصيدة لا ملحمة، فضلاً عن أن الملحمة لها مواصفات معينة (وديناميكية) خاصة، وهي تعتمد على الخيال، وخوارق العادات، وبراعة الاستهلال، ونسج الخرافات، والبعد عن الحقائق، والميل إلــى الأســاطير، والاتكــاء عليها اتكاءً عظيمًا، ونربأ أن تكون حياة الرسول على هذا النحو [3].

وأكثر شعراء العصر الحديث تناولاً لفن المعارضة هو (شوقي)، وقد سبق الدكتور (إبــراهيم عوضين) فوضع كتابًا عن (المعارضة في شعر شوقي)[1] استعرض في فصله الثاني معارضة (شوقي) لعشرين شاعرًا هم: المتنبي، والبحتري، وأبو العلاء المعري، وأبو نواس، والشريف الرضي، وابن الرومي، وابن زيدون، ولسان الدين الخطيب، وإبراهيم بن سهل، والبوصيري، والحصري، وأبو الحسن التهامي، ودعبل الخزاعي، وابن سينا، والبهاء زهير، وأبــو تمــام، وعمارة اليمني، والفرزدق، والعباس بن الأحنف، وابن النبيه.

وأضيف إلى ذلك معارضة (شوقي) (للحارث بن حلزة) في قصيدته:

آذنتنا ببينها أسماء   رب ثاوٍ يمل منه الثواء

يقول (شوقي) [2]:

خدعوها بقولهم حسنا   والغواني يغرهن الثناء

أتراها تناست اسمي لما   كثرت في غرامها الأسماء

إن رأتني تميل عني كأن لم   تك بيني وبينها أشياء

كما عارض (عَمْرًا بن كلثوم) في قصيدته:

ألا هبي بصحنك فاصبحينا   ولا تبقي خمور الأندرينا

عارضه بقصيدته: (توت عنخ آمون) [3]

قفي –يا أخت يوشع– خبرينا   أحاديث القرون الغابرينا

ويعارض (أبا خالد بن محمد المهلبي) في قصيدته التي رثى فيها (المتوكــل) والــذي كــان حاضرًا ساعة مقتله، وفيها يقول:

إنا فقدناك حتى لا اصطبار لنا   ومات قبلك أقوام فما فقدوا

يعارضة ((شوقي)) وهو يرثي ((عبد الخالق ثروت)) بقصيدة مطلعها [1]:

يموت في الغاب أو في غيره الأسد   كل البلاد وساد حين تتسد

---

[3] المرجع السابق ص 32.

[1] صدرت الطبعة الأولى عام 1982م.

[2] الشوقيات جــ 2 ص 112.

[3] الشوقيات جــ 1ص 266.

[1] الشوقيات جــ 3 ص 62.

وفيها يقول مطابقًا لقول المهلبي:

وقد يموت كثير لا تحسهم كأنهم من هوان الخطب ما وجدوا

ويعارض ((شوقي)) ((أبا زيد عبد الرحمن الأشبوني)) في قصيدته التي مدح بها الأمير: ((إدريس بن يحيى بن علي بن حمود الفاطمي)) حاكم مالقة، والتي يقول فيها:

البرق لائح من أندرين ذرفت عيناك بالماء المعين

عيرتنا بسقام وضنى إن هذين لزين العاشقين

وكأن الشمس لما أشرقت فانثنت عنها عيون الناظرين

وجه إدريس بن يحيى بن علي بن حمود أمير المؤمنين

انظرونا نقتبس من نوركم إنه من نور رب العالمين [2]

يعارضه بقصيدة ((أم المحسنين)) والدة الخديوي ((عباس الثاني)) وفيها يقول:

ارفعي الستر وحيي بالجبين وأرينا فلق الصبح المبين

وقفي الهودج فينا ساعة نقتبس من نور أم المؤمنين

واتركي فصل زماميه لنا نتناوب نحن والروح الأمين

قد سقينا بمحياك الحيا ولقينا حول يمناك اليمين [3]

ويعارض أبا البقاء الرندي في رثائه بلاد الأندلس وما كانت عليه من عز وجاه وعظمة فكان مما قال:

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان

أين الملوك ذوو التيجان من يمن وأين منهم أكاليل وتيجان؟

وهي الجزيرة أمر لا عزاء له هوى له أحد وانهد ثهلان

فاسأل (بلنسية) ما شأن (مرسية) وأين (شاطبة) أم أين جيان؟

وأين قرطبة دار العلوم فكم من عالم قد سما فيها له شان [1]

فعارضه ((شوقي)) بقصيدة (دمشق) فكان مما قال [2]:

قم ناج جلق وانشد رسم من بانوا مشت على الرسم أحداث وأزمان

بنو أمية للأنباء ما فتحوا وللأحاديث ما سادوا وما دانوا

كانو ملوكًا سرير الشرق تحتهم فهل سألت سرير الغرب ما كانوا

بالأمس قمت على (الزهراء) أندبهم واليوم دمعي على (الفيحاء) هتان

---

[2] تاريخ المعارضات في الشعر العربي ص 198.

[3] الشوقيات المجهولة: د/ محمد صبري ص 319.

[1] جواهر الأدب –السيد أحمد الهاشمي جـ 2 ص 385، مؤسسة المعارف – بيروت.

[2] الشوقيات جـ 2 ص100.

لولا دمشق لما كانت (طليطلة) ولا زهت ببني العباس بغدان

مررت بالمسجد المحزون أسأله هل في المصلى أو المحراب مروان؟

كما يعارض شوقي ((أبا علي إدريس بن اليماني العبدري اليابسي)) وهو يمدح ((ابن واجب)) ويصف الحمامة بقولة[3]:

وادي الأراك أصلت شكوى الشاكي بشميم كل بشامة وأراك

ورقا مطوقة السوالف سندسًا لم يحك صنعتها حياكه حاك

تشدو على خضر الغصون بألسن صبغت ملائمها بغير سواك

وكأن أرجلها القوافي ألبست نعلاً من المرجان دون شراك

وكأنها كحلت بنار جوانحي فترى لأعينها لهيب حشاك

يعارضه ((شوقي)) بقصيدة طويلة بعنوان ((زحلة)) [1] يضمنها غزلاً رقيقًا حيث يقول:

شيعت أحلامي بقلب باك ولمحت من طرق الملاح شباكي

واليوم تبعث في حين تهزني ما يبعث الناقوس في النساك

يا جارة الوادي طربت وعادني ما يشبه الأحلام في ذكراك

لم أدر ما طيب العناق على الهوى حتى ترفق ساعدي فطواك

وتأودت أعطاف بانك في يدي واحمر من خفريهما خداك

ودخلت في ليلين فرعك والدجى ولثمت كالصبح المنور فاك

وتعطلت لغة الكلام وخاطبت عيني في لغة الهوى عيناك

ويعارض ((شوقي)) ((ابن حمديس الصقلي)) في قصيدته التي يتــذمر فيهــا مــن الزمــان وخطوبه، والتي يقول فيها:

ألا كم تسمع الزمن العتابا تخاطبه ولا يدري الخطابا

وفيها يقول:

صبرنا للخطوب على ضروب إذا رمى الوليد بهن شابا[2]

يعارضه شوقي بقصيدتين: الأولى نظمها ((بعد المنفي)) [3] ومطلعها:

أنادي الرسم لو ملك الجوابا وأجزيه بدمعي لو أثابا

وفيها يقول:

أولئك أمة ضربوا المعالي بمشرقها ومغربها قبابا

---

[3] تاريخ المعارضات في الشعر العربي ص 87.

[1] الشوقيات جــ 2 ص 178.

[2] تاريخ المعارضات في الشعر العربي ص 219.

[3] هذا هو عنوان القصيدة – الشوقيات جــ 1 ص 64.

جرى كدرًا لهم صفو الليالي   وغاية كل صفو أن يشابا
كما عارضه بقصيدة أخرى بعنوان: ((ذكرى المولد)) [1].
سلوا قلبي غداة سلا وتابا   لعل على الجمال له عتابا
وفيها يقول:
أخي الدنيا أرى دنياك أفعى   تبدل كل آونة إهابا
وهذه القصيدة أقوى معارضة ((لابن حمديس)) من القصيدة الأولى التي نظمها عقب عودته من المنفى.
ويعارض ((شوقي)) أحد معاصريه وهو: ((إسماعيل صبري)) في قصيدته التي مدح بها الخديوي توفيق، وهنأه بعيد الأضحى، بعد أن عنون القصيدة بعنوان: (عيد الفداء) وفيها يقول [2]:
لو أن أطلال المنازل تنطق   ما ارتد حران الجوانح شيق
عيد الفداء ألا سعدت بسدة   أمسى يحيط بها الجلال ويحدق
يعارضه شوقي بقصيدة تحت نفس العنوان، يقول مطلعها [3]:
أما العتاب فبالأحبة أخلق   والحب يصلح بالعتاب ويصدق
وقد عارض ((شوقي)) ((البارودي)) في أبياته التي نظمها على بحر لم تنظم عليه العرب، وهو مجزوء المتارك، يقول ((البارودي)):
املأ القدح   واعص من نصح
وارو غلتي   بابنة الفرح
فالفتى متى   ذاقها انشرح
وهي إن سرت   في العليل صح
ويقول ((شوقي)):
مال واحتجب   وادعى الغضب
ليت هاجري   يشرح السبب
عتبه رضا   ليته عتب
من مدنف   دمعه سحب
بات معتبًا   همه اللعب [1]

---

[1] المرجع السابق ص 68.
[2] ديوان إسماعيل صبري، شرح أحمد الزيني ص 54، لجنة التأليف والترجمة 1936م.
[3] الشوقيات: جـ 1 ص 161.
[1] النصان عن كتاب المعارضات في الشعر العربي ص 322.

بعد أن استعرضت شعر قطبي الرحى في معارضات العصر الحديث -البارودي وشوقي- أشير إلى بعض القصائد فيما قبل العصر الحديث، وعورضت فيه باستثناءه بردة ((كعب)) و((البوصيري))، ومقصورة ((ابن دريد))، ودالية ((الحصري))، حيث سأخصها بحديث خاص، هذا، وقد كان المتنبي أكثر من عارضه الشعراء في العصر الحديث، فهو في قصيدته التي مدح بها

((كافور الإخشيدي)) والتي يقول مطلعها:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا

يعارضه ((محمد عبد المطلب)) بقصيدته التي رثى فيها ((فتحي زغلول))، فيقول مشطرًا قصيدته [2]:

أرى الشعر يدمي بالدموع المآقيا كفا حزنًا أن تسمع الشعر باكيا

تمنى المنايا ما وفت عهده بها وحسب المنايا أن يكن أمانيا

ويعارضه ((أحمد محرم)) فيقول [1]:

أجلك مشكو الخلال وشاكيا وأهواك مجفو الجناب وجافيا

تدير أمور الناس بالرأي تارة وآنًا ببأسٍ يترك الدهر جانيا

كما يعارضه أحمد نسيم بقصيدته [2]:

هم لهم دعوى الهوى والهوى ليا وأشكو وهم يبدون فيه التشاكيا

حببتك غدارًا وشيمتك الجفا فكيف يكون الحب إن كان وافيا

ويعارضه شوقي بقصيدته التي رثى بها ((إسماعيل أباظة)): [3]:

سقى الله (بالكفر الأباظي) مضجعًا تضوع كاوفورًا من الخلد ساريا

يطيب ثرى(بردين) من نفح طيبة كأن ثرى (بردين) مس العواليا

وقصيدة ((المتنبي)):

باد هواك صبرت أم لم تصبرا وبكاك إن لم يجر دمعك أو جرى

يعارضها ((إسماعيل صبري)) [3] مشطرًا:

البدر عن وجه البشاشة أسفرا والجو رق نسيمه وتعطرا

---

[2] ديوان محمد عبد المطلب ص 197.

[1] ديوان أحمد محرم ص 260.

[2] ديوان أحمد نسيم جـ 1 ص 87.

[3] الشوقيات جـ 3 ص 161.

[3] ديوان إسماعيل صبري ص 137.

شغلت محاسن فضله وخصاله   (أسبى مهاة للقلوب وجؤذرا)

ويعارض ((عزيز فهمي)) ((المتنبي)) في قصيدته:

واحر قلباه ممن قلبه شبم   ومن بجسمي وحالي عنده سقم

يعارضه ((عزيز فهمي)) وهو يرثي ((أحمد شوقي)) بقوله [5]:

أسرى بك الهم أم أسرت بك الهمم   قلب على نوب الأيام يحتدم

شوقي وفيت وهذي بعض موجدتي   حبات قلبي إلا أنها كلم

ويمدح البحتري ((أبا نوح عيسى بن إبراهيم)) بقصيدة مطلعها:[1]

طيف الحبيب ألم من عدوائه   وبعيد موقع أرضه وسمائه

جزع اللوى عجلاً ووجه مسرعًا من حزن أبرقه إلى جرعائه

ومن نفس البحر والقافيه يمدح: ((يوسف بن محمد)) بقصيدةٍ مطلعها [2]:

يا غاديًا والثغر خلف مسائه   يصل السرى بأصيله وضحائه

ألمم بساحة يوسف بن محمد   وانظر إلى أرض الندى وسمائه

فيعارض ((شوقي)) ((البحتري)) في هاتين القصيدتين، وهو يرثى مولانا ((محمد علي)) كبير زعماء الهند المسلمين، وكان مما عارض به قوله [3]:

بيت على أرض الهدى وسمائه   الحق حائطه وأس بناته

الفتح من أعلامه والطهر من   أوصافه والقدس من أسمائه

تحنو مناكبه على شعب الهدى   وتطل سدته على سينائه

ويعارضه الجارم فيقول [4]:

بهر الوجود بلؤلؤي ضيائه   نجم تألق في بديع سمائه

---

[5] ديوان عزيز فهمي دار المعارف القاهرة ص 45.

[1] ديوان التختري جـ 1 ص 7.

[2] المرجع السابق ص 9.

[3] الشوقيات. جـ 3 ص 12.

[4] ديوان الجارم جـ 1 ص 12 مكتبة المعارف ــ القاهرة 1939م.

لبس المساء به غلالة مسفر   حتى كأن الصبح من أسمائه

ويمدح ((البحتري)) ((المتوكل))، ويصف بركته في قصدته [5]

ميلوا إلى الدار من ليلى نحييها		نعم ونسألها عن بعض أهليها
يادمنة جاذبتها الريح		تبيت تنشرها طورًا وتطويها
فيعارضه شوقي بقصيدته[12]		
أهل القدود التي صالت عواليها		الله في مهج طاحت غواليها
خذن الأمان لها لو كان ينفعها		واردنها كرمًا لو كان يجديها
ويصف ((البحتري)) إيوان كسرى في سينته[13]:		
صنت نفسي عما يدنس نفسي		وترفعت عن جدا كل جبس
فيعارضه ((شوقي)) في سينته الأندلسية فيقول [14]:		
اختلاف النهار والليل ينسي		اذكرا لي الصبا وأيام أنسي
ويعارضه ((عزيز أباظه)) في رثاء زوجته – في معارضة ناقصة– وكان مما قال:		
ذكرتك عند كل جليل أمرٍ		وكل يسيره فبكيت نفس [15]
وعارضه محمد الهراوي بقصيدة ((أبي الهول)) منها [16]:		
نبئ الناس يا أبا الهول أنا		أمة كالحديد صلب المجس
لم يعبنا أنا بلتنا شعوب		وبلونا الشعوب من كل جنس
كل من ساءنا أذقناه سوءًا		بيد الله كل كأس بكأس
فاسألوا الروم مادها الروم فينا		واسألوا الفرس عن مصاب لفرس
أممٌ تلك ذات نابٍ وضرسٍ		قد مضغنا ما بين نابٍ وضرس
فنيت كلها ونحن بقينا		من حمى الله في حظيرة قدس

---

[5] ديوان البحتري جـ 2 ص 318.

[12] الشوقيات جـ 2 ص 145.

[13] ديوان البحتري جـ 2 ص 56.

[14] الشوقيات جـ 2 ص 44.

[15] ديوان أنات حائر ص 32.

[16] الموازنة بين الشعراء ص 178 (هامش).

وابن زيدون يمدح ((ابن جهور)) بقوله [17]:

مـــــا للمــــدام تـــديرها عينـــاك		فيميــل مــن سـكر الصـبا عطفــاك
هــــلا مزجـــت لعاشـــقيك ســـلافها		ببــــرود ظلمــك أو بعـــذب لمــاك
فيعارضه ((الجارم)) بقوله [18]:		
مــــالي فتنـــت بلحظـــك الفتـــاك		وســـــلوت كـــل مليحــــة إلاك
يســراك قـــد ملكـــت زمـــام صـــابتي		ومضــــلتي وهــــداي فـــي يمنـــاك
((ولابن زيدون)) نونيته المشهورة ومطلعها مشهور أيضًا وهو:		
أضـــحى التنـــائي بـــديلاً عـــن تـــدانينا		ونـــاب عـــن طيـــب لقيانـــا تجافينـــا
فيعارضه شوقي بنونيته [19]:		
يانــــائح الطلـــح أشـــباه عوادينــــا		نشـــجي لواديـــك أم نأســـى لوادينـــا
وعارضه ((الماحي)) بقصيدته [20]		
ريحانـــة القلـــب هـــل وعـــد نســـر بـــه		فقـــد تعـــذب بـــالهجران صـــادينا
نأيـــت عنـــا فـــلا والله مـــا هـــدأت		نفســـي ولا رقـــأت عـــين لباكينـــا

هذا، وقد عارض الشاعر السعودي: ((حسين عبد الله سراج)) نونية ((ابن زيـــدون)) بـــاثنى عشر بيتًا ضمنها مسرحيته الشعرية: ((غرام ولادة)) [21]، وقد أحببت إثبات تلـــك الأبيـــات ليتأكد القارئ من جمالها وروعتها، وأنها لبست ثوب ((ابن زيدون)) الشـــعري، ممـــا حـــدا بالأستاذ ((محمود تيمور)) أن يقول عنها: ((تكاد أبياتها توهم القارئ أنها تكملة للأصل، كانت خافية على الناس)) والأبيات هي:

---

(17) ديوان ابن زيدون دار صادر – بيروت 1975.

(18) ديوان الجارم جـــ 2 ص 127.

(19) الشوقيات جـــ 2 ص 104.

(20) ديوان الماحي ص 83.

(21) ص 46 – الطبعة الثانية 1982 – الكتاب العربي السعودي رقم 66.

أمســت ليــالي الهنــا حلمًــا تناجينــا		وأصــبحت ذكريــات الحــب تشــقينا
كنــا خليلــين فــي دنيــا الغــرام وقــد		أضــفت علينــا مــن النعمــى أفانينــا
نسقي حميا الورى فــي الكــأس مترعــة		ممزوجــة بحنــانٍ كــان يحيينــا
وللصــبا فــي قشــيب البــرد روعتــه		وللعيــون نــداء كــاد يغرينــا
ورقــة فــي دلال زانــه خفــر		وعفــة توجــت فخــرا ليالينــا
نمســي ونصــبح والأوتــار صــادحة		ونحــن فــي نشــوة حلــت مجالينــا
وللقيــان غنــاء هــز ســامرنا		وللنــدامى حميًــا مــن تصــافينا
والســامرون بــذكرا ناشــدوا طربًــا		والعاشــقون تمنــوا مــن أمانينــا
وللنســائم أنفــاس معطــرة		من نفحـك الطيـب كـافورًا ونسـرينا
والمــاء ينســاب والأشــجار راقصــة		والطيــر تســجع والــدنيا تهنينــا
ياربة المجـد أيـن العهـد هـل عبثـت		به الأعادي وهل أنسيت ما ضينا؟
إن صح يا قلب ما قـد قيـل فابـك علـى		أيامــك البـيض وايـأس مـن تلاقينـا
وها هو ذا ((ابن الرومي)) يمدح ((أبا الصقر)) بنونيته (جنة المحبين) [22]: يقول في مطلعها:		
أجنــت لــك الوجــد أغصــان وكثبــان		فــيهن نوعــان: تفــاح ورمــان
وفــوق ذينــك أعنــاب مهدلــة		ســود لهــن مــن الظلمــاء ألــوان
وفــوق هاتيــك عنــاب تلــوح بــه		أطــرافهن قلــوب القــوم قنــوان
فعارضه ((عباس محمود العقاد)) بقصيدة (الحب الأول) [23] يقول في مطلعها:		
يهنيــك يــا زهــر أطيــار وأفنــان		الطيــر ينشــد والأفنــان عيــدان
طوبــاك لســت بإنســان فتشــبهني		إنــي ظمئــت وأنــت اليــوم ريــان
هــذا الربيــع تجلــى فــي مواكبــه		وهكــذا الــدهر آن بعــده آن

(22) ديوان ابن الرومي جـ 1 ص 20 كامل كيلاني.

(23) ديوان العقاد جـ 1 ص 75.

ويعارضه ((عبد الرحمن شكري)) بقصيدته (الجمال المنشود) [24] يقول في مطلعها:

رأيت في الحلم وجهًا منك أعبده		وفوقه من نجوم الليل تيجان
توجت نفسك بالأفلاك مكرمة		كما يتوج بالأزهار جذلان
فإن وجهك بدر يستضاء به		إذا بدوت ووجه الأفق غيمان

(والبوصيري) في بردته [25]

أمن تذكر جيران بذي سلم		مزجت دمعًا جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة		وأومض البرق في الظلماء من إضم

يعارضه عدد هائل من الشعراء، وأخص منهم في في العصر الحديث، الشاعر

(أحمد محفوظ) الذي عارض البوصيري بقصيدة طويلة أسماها: (بردة محفوظ) يقول في مطلعها[26]:

قلب تقسم بين اللبث والألم		بادي الصبابة من شوقٍ ومن ضرم
ما زال يخفق في حسناء غادرة		حتى استجاب إلى الأدواء والسقم
تبدو الحياة ضياء كلما ابتسمت		وقل ذاك فما حظي سوى الظلم

كما عارضها الشاعر: محمد عبد المطلب بقصيدة طويلة أيضًا وأسماها: (ظل البردة) [28] يقول مطلعها:

أغرى بك الشوق بعد الشيب والهرم		سار طوى البيد من نجدٍ إلى الهرم
يا ساري الطيف يجتاب الظلام إلى		جفن مع النجم لم يهدأ ولم ينم
يغريه بالدمع حاد بات مرتجزًا		يحدو المطي لأجراح بدي سلم

وعارضها الشاعر: ((هاشم الرفاعي)) بقصيدة تحت عنوان: ((نهج البردة)) يقول مطلعها [29]:

هبت رياح الصبا فاستكتبت قلمي		مدح الرسول كريم الخلق والشيم
مالي وللرسل أمضي في مدائحهم		إن الرسول رفيع القدر عن كلمي

---

[24] ديوان عبد الرحمن شكري – الطبعة الأولى 1960ص 321.

[25] ديوان البوصيري – تحقيق محمد الكيلاني ص 190.

[26] بردة محفوظ – تصدير الدكتور: محمد حسين هيكل – مطبعة أمين عبد الرحمن.

[28] ديوان عبد المطلب – شرح وتصحيح إبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي – طبعة أولى ص 257.

[29] دويوان هاشم الرفاعي (الأعمال الكاملة) جمع وتحقيق محمد حسن بريغش 1980 ص 72.

شـــوقي إليـــك رســـول الله أظمـــأني		والمدح يطفـــي لهيــب الظـــامئ الـــنهم
وعارضه أيضًا، ((ميشيل الله ويردي بقصيدة عنوانها: وحي البردة)) يقول في مطلعها [30]:		
أنوار هادي الورى في دارة العلم		رفت على ذكر جيران بذي سلم
وأرســـلت نعـــم التوحيـــد عـــن ملـــك		كـــالروح منطلـــق كـــالزهر مبتســـم
فمزج روحـــك بـــالروح التـــي ازدهـــرت		يغنيك عـــن مـــزج دمـــع ســـاجم بـــدم
((وأبو تمام)) يرثي ((محمد بن حميد الطوسي)) فيقول:		
كـــذا فليجـــل الخطـــب وليفـــدح الأمـــر		فليس لعـــين لـــم يفـــض ماؤهـــا عـــذر
توفيـــــت الآمـــــال بعـــــد محمـــــد		وأصبح في شغل عـــن الســـفر الســـفر
وما كان إلا مال من قل ماله		وذخرًا لمن أمسى وليس لـــه ذخـــر [31]
فيعارضه((جميل صدقي الزهاوي)) وهو يرثي أخاه ((عبد الغني صدقي الزهاوي)) [32] فكان مما قال:		
تضمن منك القبر لو يعلم القبر		أديبًا بكاه الناس والعلم والشعر
وقفت على قبـــر طـــوى أقـــرب الـــورى		إلي ودمع والحزن من أعيني نثر
فيـــا قبـــر أنت اليـــوم أكرم بقعـــة من الأرض ذات العرض فيها انطوى حر		

ويعارضه ((حسن القاياتي)) وهو يرثي ((مصطفى كامل)) فكان مما قال [33] -في معارضـــة ناقصة-:

ألا طـــرق المقـــدار بالفتكـــة البكـــر		عشـــية أودى ســـهمه بفتـــى مصـــر
أبـــــي يـــــرى أن الهـــــوادة خلـــــة		هي الكفر لا بل تلك شـــر مـــن الكفـــر
فجعنـــا بـــه بـــدرًا كمـــا شـــئت (كـــاملاً)		وأفـــدح مـــا تلقـــى الفجيعـــة بالبـــدر

---

[30] مجلة الرسالة- العدد 1005 بتاريخ 1952/10/16م، ص 1121.

[31] ديوان أبي تمام – جـ 4ص 79 – دار المعارف – مصر – 1965 م.

[32] ديوان جميل صدقي الزهاوي – 79- بيروت 1972 م.

[33] ديوان القاياتي – جـ 1 ص 62 الطبعة الأولى 1910 م.

فمـــن عبـــرة تجـــري علـــى خـــد آســـف		ومن حرقة فـــي قلـــب مكتئـــب تجـــري
إليـــــك ســــــلام الله يهـــــدي فـــــإنني		أرى الموت نزالاً علـــى الرجـــل الحـــر
و((ابن سينا)) ينظم قصيدته ((العينية)) ويودعها فلسفته في النفس، يقول في مطلعها:		
هبطـــت إليـــك مـــن المحـــل الأرفـــع		ورقـــــاء ذات تعـــــزز وتمنـــــع
محجوبـــة عـــن كـــل مقلـــة عـــارف		وهـــي التـــي ســـفرت ولـــم تتبرقـــع
وصـــلت علـــى كـــره إليـــك وربمـــا		كرهت فراقـــك وهـــي ذات تفجـــع [34]
فيعارض ((شوقي)) في قصيدته ((النفس)) [35] ويقول في مطلعها:		
ضـــمي قناعـــك ياســـعاد أو ارفعـــي		هـــذي المحاســـن مـــا خلقـــن لبرقـــع
الضـــــاحيات الضـــــاحكات ودونهـــــا		ســـتر الجـــلال وبعـــد شـــأو المطلـــع
يـــــا دميـــــة لا يســـــتزاد جمالهـــــا		زيديـــه حســـن المحســـن المتبـــرع
ويعارضها ((عادل الغضبان)) [36] بقصيدة طويلة يقول في مطلعها:		
ورقـــاء يـــا صـــنو الملائـــك رجعـــي		نغم الهـــوى وبحمـــد ربـــك فاســـجعي
وتخـــــايلي بـــــالأجملين عقيـــــرة		تســـبى وثـــوب بالجمـــال مرصـــع
قـــال الـــرئيس وقـــال عنـــك ســـليفة		مخلوقـــة أثمـــت ولـــم تتـــورع

ويعارضه ((إيليا أبو ماضي)) بقصيدة بعنوان –رمزي– ((العنقاء)) يقول مطلعها[37]:

أنـــا لســـت بالحســـناء أول مولـــع		هي مطمع الـــدنيا كمـــا هـــي مطمعـــي
وقد أعلن الشاعر ((الدكتور محمد رجب البيومي)) [38] معارضته لابن سنا بقصيدته ((النفس)) قال في مطلعها:		

[34]) مجلة الكتاب – السنة السابعة – أبريل 1952 م، ص 424.
[35]) الشوقيات جـ 2 ص 60.
[36]) مجلة الكتاب – السنة السابعة مايو 1952 م، ص 532.
[37]) ديوان الجداول: تحقيق زهير ميرزا – بيروت ص 492.

<table>
<tr><td>طف بالسماء محلقًا وتسمع</td><td></td><td>فالروح تهتف بالمحل الأرفع</td></tr>
<tr><td>ورقاء تبعث لحنها فتخالها</td><td></td><td>سلبت شعورك بالرخيم المبدع</td></tr>
<tr><td>دعها تخض لجج الأثير فدوحها</td><td></td><td>بسط الظلال على الجهات الأربع</td></tr>
<tr><td colspan="3">والمعاصرون يعارض بعضهم بعضًا، ((فشوقي)) يتحدث عن سقوط باريس في قصيدة عنوانها ((باريس))[39] يقول في مطلعها:</td></tr>
<tr><td>جهد الصبابة ما أكابد فيك</td><td></td><td>لو كان ما قد ذقته يكفيك</td></tr>
<tr><td>حتام هجراني وفيم تجنبي</td><td></td><td>وإلام بي ذل الهوى يغريك</td></tr>
<tr><td>قدمت من ظمأ فلو سامحتني</td><td></td><td>أن أشتهي ماء الحياة بفيك</td></tr>
<tr><td colspan="3">فيعارضه ((على الجارم)) بقصيدة مطلعها يقول [40]:</td></tr>
<tr><td>عرس أقيم على الدم المسفوك</td><td></td><td>أؤردد الألحان أم أبكيك</td></tr>
<tr><td colspan="3">و((العقاد)) و((شكري)) يعارض كل منهما الآخر، ولم يتوصل الدكتور ((إبراهيم عوضين)) إلى أيهما الأسبق – يقول ((العقاد)) في قصيدة ((كأس على ذكرى)):</td></tr>
</table>

صفه لي صفه وما كان بمجهول الصفات

أترى أليق منه	باصطياد المهجات؟
أترى أصبح من	خديه بين الوجنات؟
صفه غضبان وصفه	لاعبًا بين اللدات
ضاحكًا كالصبح يمحو	بالضياء الظلمات
صفه في كل مساء	صفه في كل الجهات

ويقول (شكري):

سألوا في أي حال	هو أعلى في الصفات

---

(38) ديوان صدى الأيام د/ محمد رجب البيومي – الطبعة الأولى مطبعة السعادة 1982 ص 150.

(39) الشوقيات جـ2 ص 81.

(40) ديوان على الجارم جـ4.

قلـــــت أحلـــــى مـــــا تـــــراه فـــــي حـــــديث اللحظـــــات
فـــــإذا أرخـــــى لحاظـاً كـــــان أحلـــــى فـــــي الســـــبات
وهـــــو أحلـــــى منـــــه إن فـــــاه وأحلـــــى فـــــي الصـــــمات
وإذا صـــــد فمـــــا أحـــــلاه جهـــــم النظـــــرات
وإذا لاح فمـــــا أحـــــلاه طلـــــق اللمحـــــات

وأكتفي بهذا القدر من الحديث عن معارضات العصر الحديث ولكن قبل أن يبعد الحديث بنا عن المعارضة، أشير إلى أن هناك لوناً من الشعر يشابهها حتى عده بعض النقاد معارضة، ولكني أراه -مع من رأى- مطارحة، إذ العنصر الأساسي الذي يميز هذا الشعر هو المحاورة والمبادلة؛ لأن الإشتقاق اللغوي يساعدنا على ذلك الاختيار، فهم يقولون: طارحه الحديث ونحوه: بمعنى حاوره وبادله، وتطارحا الحديث ونحوه: تحاورا وتناظرا [41]، ومثل هذه المحاورات وقعت قديمًا وحديثًا، فمما وقع قديمًا ما حدث به ((حمزة [42] الأصفهاني)) قال: اجتمع ((أبو نواس)) مع ((العباس بن الأحنف)) في مجلس، فقام عباس لحاجته، فسئل أبو نواس عن رأيه فيه وفي شعره، فقال: هو أرق من الوهم، وأنفذ من الفهم، وأمضى من السهم، ثم عاد ((عباس)) وقام ((أبو نواس)) كذلك فسئل عنه ((عباس)) وعن رأيه فيه وفي شعره، فقال: إنه لأقر للعين من وصلٍ بعد هجر، ووفاء بعد غدر، وإنجاز وعد بعد يأس. فلما صارا إلى النبيذ أعلم كل واحد منهما قول الآخر فيه، فقال ((أبو نواس)):

إذا ارتـــــدت فتـــــى الكـــــاس		فـــــلا تعـــــدل بعبـــــاس
فقال العباس:		
إذا نازعـــــت صـــــفو الكـــــأس يومـــــا		أخـــــا ثقـــــة فمثـــــل أبـــــي نـــــواس
فتـــــى يشـــــتد حبـــــل الـــــود منـــــه		إذا مـــــا خلـــــة رثـــــت لنـــــاس
فتناول ((أبو نواس)) قدحًا، وقال:		
أبـــــا الفضـــــل اشـــــربن ذا الكـــــأس إنـــــي شـــــارب كاســـــي		
فقال ((العباس)):		
نعـــــم يـــــا أوحـــــد النـــــاس علـــــى العينـــــين والـــــراس		

(41) المعجم الوسيط جـ 2 ص 553.
(42) الموازنة بين الشعراء ص 275.

فقال ((أبو نواس))
فقـــــــــد حـــــــــف لنـــــــــا المجلـــــــــس بالنســـــــــرين والآس
فقال ((العباس)):
وإخـــــــــوان بهـــــــــا ليـــــــــل ســـــــــراة ســـــــــادة النـــــــــاس
فقال ((أبو نواس)):
وخـــــــــود لـــــــــذة المســـــــــموع مثـــــــــل الغصـــــــــن الكاســـــــــي
فقال ((العباس)):
وقـــــــــد ألبســـــــــها الـــــــــرحمن مـــــــــن أحســـــــــن إلبـــــــــاس
فقال ((أبو نواس)):
فقـــــــــد زينـــــــــت بإكليـــــــــل يواقيـــــــــت علـــــــــى الـــــــــراس

فقال ((العباس)):

فـــــــلا تحـــــبس أخـــــي كأسًـــــا		فـــــــإني غيـــــــر حبـــــــاس

ويبدو أن المحاورة طالت وامتدت حتى قال عنها الأصفهاني: ((فكان ما نسى من عارضتهما أكثر مما حفظ)).

ومن مطارحات العصر الحديث ما وقع بين الشاعرين: ((إسماعيل صبري))، و((خليل مطران))، فقد مشى يومًا صبري باشا بأحد شوارع القاهرة، فرأى مطران يشرب الصهباء على قارعة الطريق فقال صبري باشا: يامطران، لا يليق بمثلك أن يشرب تحت أبصار الناس، فابتدره ((مطران)) وقال:

وهـــــل يضـــــير المجـــــد أن أشـــــربا		وأجعـــــل الحانـــــة لـــــي ملعبـــــا

فطرب ((صبري)) باشا وقال:

وأن يرانـــــي كـــــل مـــــن مـــــر بـــــي		وســـــط الـــــدياجي حـــــاملاً كوكبـــــا

ويؤكد الدكتور ((زكي مبارك)) وقوع تلك الحادثة فقال: ((كذلك حدثنا الأستاذ إبراهيم الدباغ، فلما لقيت الشاعر مطران سألته عن القصة، فقال: كان يقع لنا من ذلك شيء كثير، أما أنتم يا شعراء العصر فقد بددت الشواغل أحلامكم، ولم يبق لكم من روعة المطارحة نصيب، ([43]).

هذه المحاورات –المطارحات– نلاحظ أنها تعتمد –في الغالب– على البحر الواحد والقافية الواحدة مع المحافظة على حركة حرف الروي، كما نلاحظ فيها وحدة الموضوع؛ لأنها تقوم على إكمال المعنى أو التوسع فيه، ولأنها تقع بين اثنين يتحاوران فلنا أن نتصور توفر وحدة الزمن فيها.

الفصل الثالث

بين المعارضة والمناقضة

عرفنا فيما سبق الأسس التي تقوم عليها المعارضة، بعد أن تعرفنا عليها لغويًا وأدبيًا، أما المناقضة وإن تشابهت مع المعارضة في مثل عنصر التحدي والوزن والقافية وحركة حرف الروي، إلا أنهما لا يتفقان أبدًا في عنصر مثل عنصر الإعجاب، بل نراه يتحول في النقيضة إلى الحقد والكراهية، والعزم الأكيد على هدم ما بناه الأول؛ لأن النقيضة تقوم على نقض وهدم ما قال الشاعر الأول، فإذا مدح الأول رأينا الثاني يهجوه، ويكذبه فيما مدح، وإذا فخر رد عليه فخره. ويبرر لمفاخر نفسه وقومه، وإذا كان الأول يهجو نقضه الثاني بما يزيل عن نفسه وقومه كل ما يجلب المذلة والهوان، فيثبت من الواقع ما يسجل على الأول خزيًا وعارًا يلحق به وبقومه، وقد يخترع الشاعران من الخيال ما يعنيهما على المدح والهجاء.

وإذا تذكرنا ما كان يقع بين شعراء الجاهلية من مفاخرات بالأحساب والأنساب، والعادات والأخلاق، وما وقع بينهم كذلك من مهاجاة، لأدركنا أن النقائض تضرب بجذورها في العصر الجاهلي –على نحو ما كان بين الأوس والخزرج، وغيرهم– ونرى للمناقضة وجودًا في عصر صدر الإسلام أيضًا، ولكنها تتلون بلون آخر، وتتشح ثياب الصدق؛ حيث تذود عن الدين الجديد بما يمليه عليه الذود من مدح وهجاء، من خلال الصدق الواقعي، على عكس ما

([43]) المرجع السابق ص 377.

كان عليه شعراء الجاهلية؛ حيث لم يكن هناك ضابط يمنعهم من الكــذب والتخيــل وانتحــال مواقف وصفات تلبس المادح ثوبًا قشيبًا، وتعري المهجو من كل خصال الخير.

وينقلب الحال في العصر الأموي، ويحل العصر الجاهلي فيه، ويشتد الصراع بين الأحــزاب التي بدأت تتشكل في هذا العصر من الهاشميين والأمويين والعباسين والعلــوين والخــوارج، وكلها تصدر عن منزع ديني في المقام الأول، كما كانت تصدر في العصر الجاهلي عن منزع قبلي متعصب.

وفي هذا المقام أشير إلى ما وقع بين ((امرئ القيس)) ((وعلقمة)) الفحل بشأن التســابق فــي وصف الفرس، وتفضيل ((أم جندب)) على زوجها ((علقمه))، أشير إلى أن ذلك مــن بــاب المعارضات، وليس من باب المناقضات كما ذهب إليه الدكتور: ((محمد بن سعد بن حســين)) ومن تابعهم من أصحاب هذا الرأي[44].

ذلك أنه لم ينقض أحد الشاعرين الآخر، بل إن ((أم جندب)) حددت الموضوع، وحاول كل من الشاعرين أن يمري قريحته، ويخرج منها أروع ما يقال في وصف الفــرس، فليس هناك مدح، ولا هجاء، ولا فخر، مما يكون عصبًا للمناقضة، يؤديه الشاعر فــي قالــب شعري واحد، لم يخرج عنه إلا الفرزدق وجرير مرةً واحدةً [45] اختلفت فيهما حركة حــرف الروي فقط، يقول مطلع قصيدة الفرزدق:

إن الـــذي ســمك الســماء بنـــى لنـــا		بيتًـــا دعائمـــه أعـــز وأطـــول

ويقول مطلع جرير:

لمـــن الـــديار كأنهـــا لـــم تحلـــل		بــين الكنــاس وبــين طلــح الأعــزل

وغالبًا ما تتحقق المعاصرة، ووحدة المكان بين الشاعرين في المناقضة. وأيضًا غالبًا ما يكون الحقد هو المحرك الرئيسي، ولكن في الإمكان تقبل مناقضتين دون أن يكون بينهما معاصرة، أو وحدة مكانية، ودون أن يكون الحقد هو المحرك للشاعرين، ولكن المحرك هــو اخــتلاف الرأي، ويبدو ذلك عندما نظم ((ابن الرومي)) أبياتًا يفضل بها النرجس على الــورد ناقضــه ((ابن جهور)) مفضلاً الورد على النرجس، وانضم إليه ((أحمد بن يونس الكاتب))، وأورد كل من الشعراء الثلاثة مبررات التفضيل لما يحب ويهوى، قال ((ابــن الرومــي فــي تفضــيل النرجس))[46]:

([44]) المعارضات في الشعر العربي ص 43.

([45]) المعارضات في الشعر العربي ص 33.

([46]) المرجع السابق ص 94 وما بعدها.

للنرجس الفضل المبين لأنه		زهر ونور وهو نبت واحد
ينهى النديم عن القبيح بلحظه		وعلى المدامة والسماع مساعد
خجلت خدود الورد من تفضيله		خجلاً توردها عليه شاهد
هذي النجوم هي التي ربتهما		بحيا السحاب كما يربي الوالد
فتأمل الاثنين من أدناهما		شبهًا بوالده فذاك الماجد
أين الخدود من العيون نفاسة		ورياسة لولا القياس الفاسد
وقال ((ابن جهور)) في تفضيل الورد:		
الورد أحسن ما رأت عيني وأذكى ما سقى ماء السحاب الجائد		
خضعت نواوير الرياض لحسنه		فتذللت تنقاد وهي شوارد
وإذا تبدى الغصن في أعطافه		يزهو فذا ميت وهذا حاسد
وإذا أتى وفد الربيع مبشرًا		بطلوع وفدته فنعم الوافد
ليس المبشر كالمبشر باسمه		خبر عليه من النبوة شاهد
وإذا تعرى الورد من أوراقه		بقيت عوارفه فهن خوالد
ويؤيد ((أحمد بن يونس الكاتب)) ما ذهب إليه ((ابن جهور)) ولكنه كان حاد الخطاب مع ((ابن الرمي)) يقول[47]:		
يا من يشبه نرجسًا بنواظرٍ		دع ذا تنبه إن فهمك راقد
إن القياس لمن يصح قياسه		بين العيون وبينه متباعد
والورد أشبه بالخدود حكاية		فعلام تجحد فضله ياجاهد
ملك قصير عمره مستأهل		لخلوده لو أن حيا خالد

وخليفة إن غاب ناب بنفحه		وبنفعه عنه مقيم راكد
فانظر إلى المختار لونًا منهما		وافطن فما ينحاز إلا الحاسد

(47) يمكن اعتبار هذا النص معارضة، لابن جهور.

ومما يعد مناقضة مع تباعد الزمن والمكان، مناقضة ((تميم بن المعـز))، و((صـفي الـدين الحلي)) ((لابن المعتز))، فقد نظم ((ابن المعتز)) قصيدة فضل فيها العباسين علـى العلـويين وأحقيتهم في الخلافة دون العلويين يقول مطلعها[48]:

ألا مـن لعـين وتسـكابها		شـكى القـذى وبكاهـا بهـا
وفها يقول:		
نصـحت بنـى رحمـي لـو وعـوا		بصـحة بـرٍ بأنسـابها
قتلنـا أميـة فـي دارهـا		ونحـن أحـق بأسـلابها
وكـم عصـبة قـد سـقت مـنكم الخلافـة صـابا بأكوابهـا		
ولمـا أبـى الله أن تملكـوا		نهضـنا إليهـا وقمنـا بهـا
ونحـن ورثنـا ثيـاب النبـي		فلـم تجـذبون بأهـدابها
لكـم رحمـة يـا بنـي بنتـه		ولكـن بنـو العـم أولـى بهـا
فمـهلاً بنـي عمـنا إنـها		عطيـة رب حبانا بها
وكانـت تزلـزل فـي العـالمين		فشـدت إلينـا بأطنابهـا
وأقسـم أنكـم تعلمـون		بأنـا لهـا خيـر أربابهـا
فناقضه ((تميم بن المعز)) بقصيدتة مطلعها:		
إذا أفـرغ الشـوق حـب القلـوب		كواهـا بشـدة تلهابهـا
وفيها يقول:		
ألا قـل لمـن ظـل مـن هاشـم		ورام اللحـوق بأربابهـا
ألوسـاطها مثـل أطرافهـا		ألرؤسـها مثـل أذنابهـا
أعباسـها كـأبي حربهـا		علـي وقاتـل أنصـابها

وأولهـا مؤمنـاً بالإلـه		وأول هـادم أنصـابها

[48] ديوان ابن المعتز ص 30 –دار صادر– بيروت.

أعباسكم شرح المشكلات		وفتح مغلق أبوابها
لكم حرمة يا بني بنته		ولكن بنو العم أولى بها
وكيف يحوز سهام البنين		بنو العم أف لغصابها
ومنها أيضًا		
ونحن لبسنا ثياب النبي		وأنتم جذبتم بأهدابها
ومن لكم يا بني عمه		بمثل البتول وأنجابها
كما يناقضه ((صفي الدين الحلي)) ([49]) نزولاً على طلب نقيب الأشراف بأن يرد على قصيدة ((ابن المعتز)) فينظم قصيدة يقول مطلعها:		
ألا قل لشر عبيد الإله		وطاغي قريش وكذابها
أعنكم نفي الرجس أم عنهم		لطهر النفوس وألبابها
وقولك أنتم بنو بنته		ولكن بنو العم أولى بها
بنو البنت أيضًا بنو عمه		وذلك أدنى لأنسابها
فدع في الخلافة فصل الخطاب		فليست ذلولاً لركابها
وما ساورتك سوى ساعة		فما كنت أهلاً لأسبابها
وكيف يخصوك يومًا بها		ولم تتأدب بآدابها
عليك بلهوك بالغانيات		وخل المعالي لأصحابها
ووصف العذار وذات الخمار		ونعت العقار بألقابها

وتمتد المناقضة عبر العصور، فتشتد حينًا، وتخبوا نارها حينًا آخر، فلا يبرأ سنها العصر الحديث.

((فشوقي)) ينظم قصيدة طويلة، يتحدث فيها عن الانقلاب العثماني، وسقوط السلطان ((عبد الحميد)) فينقضه ((ولي الدين يكن))، وكان مما قال ((شوقي)) ([50]):

([49]) تعتبر قصيدة: ((صفي الدين الحلي)) معارضة لقصيدة: ((تميم ابن المعز)).

سل يلدزا ذات القصور		هل جاءها نبأ البدور
لو تستطيع إجابة		لبكتك بالدمع الغزير
أخنى عليها ما أناخ على الخورنق والسدير		
فلك يدور سعوده		ونحوسه بيد المدير
أنا إن عجزت فإن في		بردي أشعر من جرير
خطب الإمام على النظيم يعز شرحًا والنثير		
شيخ الملوك وإن تضعضع في الفؤاد وفي الضمير		
يستغفر المولى له		والله يعفو عن كثير

ويقول ((ولي الدين يكن)) في قصيدته هاجيًا ((شوقي)):

هاجتك خالية القصور		وشجتك آفلة البدور
وذكرت سكان الحمى		ونسيت سكان القبور
وبكيت بالدمع الغزير		لباعث الدمع الغزير
ولواهب المال الكثير		لناهب المال الكثير
والجند عارية مناكبها		مقصمة الظهور
خمص البطون من الطوى		دقت فعادت كالسيور
إن الزمان يغرهم		أيذيق عاقبة الغرور

ومن النقائض المعاصرة في المملكة العربية السعودية، ما وقع بين ((سليمان بن سحمان)) و((حسين بن حسن بن حسين بن الإمام محمد بن عبد الوهاب))، فقد هجا ((حسين))، ((سليمان بن سحمان)) بقصيدة قال فيها:

دهتك الدواهي يا ابن سحمان كلها		جزاء مقال السوء إذ أنت فاعله
وما أنت إلا شاعر ذو قصائد		فدع عنك في الأحكام ما أنت جاهله
ولازم لا أدري ولا تتركنها		ولا تتبع ظنًا تصبك غوائله

(50) الشوقيات جـ 1 ص119.

وهـــذا قليـــل فـــي الجـــواب عجالـــة		وسوف تـــرى مـــا لا تطيـــق تحاولـــه
ترشـــحت للعلـــم الشـــريف مفـــاخرًا		ولســـت بـــذي علـــم عليـــك دلائلـــه
فرد عليه ((ابن سحمان)) بقصيدتين طويلتين، قال في إحداهما:		
فمـــا كنـــت بـــالعلم الشـــريف مفـــاخرًا		وإن كنت قـــد أدري بـــه مـــن أناضـــله
ومـــا قلـــت يومًـــا إننـــي أنـــا عـــالم		ولـــم أترشـــح للـــذي أنـــا قائلـــه
وإن كنـــت بـــالعلم الشـــريف مناضـــلاً		فمن من مـــن فاضـــت علـــي فواضـــله
فـــلا ذهبًـــا أو مـــذهبًا كنـــت طالبًـــا		ولا منصـــبًا بـــالعلم ترجـــى وســـائله
أفـــاخر بـــالعلم الشـــريف لنيلـــه		وهل أنـــا إلا غـــامض الـــذكر خاملـــة
فـــلا رتبـــة أرجـــو ولســـت مزاحمًـــا		لأربابها يومًـــا كمـــا كنـــت فاعلـــه (51)

ومما هو قريب من ذلك أن ينقض الشاعر نفسه بما يسمى ((مماحصة))، بمعنـــى أن يصـــور الشاعر بعض المواقف، أو يشير إلى جانب من حياته في بعض القصائد وبعد حين يبدوا لـــه أنه كان في سلوكه وشعره على غير ما يمليه عليه واقعه، فينشئ شعرًا يكون علـــى النقـــيض مما سبق له قوله، وذلك مثلما حدث ((لسويد بن كاهل)) فقدساير طبيعة الجاهلية في قصيدتة:

بســـطت رابعـــة الحبـــل لنـــا		فوصـــلنا الحبـــل منهـــا مـــا اتســـع

فلما أسلم ساير طبيعته الجديدة وأنشأ قصيدة في ذات البحر وعلى نفس القافية مطلعها:

أرق العـــين خيـــال لـــم يـــدع		مـــن ســـليمى ففـــؤادي منتـــزع

وقد خلط الرواة بين القصيدتين فجمعوهما في المفضليات في قصيدة واحدة، ويقدم الـــدكتور ((إبراهيم عوضين))(52) الدليل على خلط الرواة أنه –سويد–
يسير في الثانية سيرة جديدة، تختلف عن سيرته في القصيدة الجاهلية، كما أنـــه فـــي الأولـــى ينسب ((برابعة)) وفي الثانية ((بسليمى)).
أيضًا من ذلك ما كان من ((ابن عبد ربه)) فقد كان ميالاً إلى اللهو والغزل في شبابه، وقد قال في ذلك شعرًا ماجنًا وكثيرًا، وعندما تقدمت به السن ندم على ما قال وتاب وأخذ ينقض نفسه

---

(51) المعارضات في الشعر العربي ص38.

(52) المعارضة في الأدب العربي ص 51.

في كل قصيدة قالها في اللهو والغزل بقصيدة تحمل طابع الوعظ والزهد، ومن ذلك قوله عندما أراد السفر مع ما أرد محبوبته فحال المطردون ذلك:

هـــلا ابتكـــرت لبـــين أنـــت مبتكـــر		هيهـــات يـــأبى عليـــك الله والقـــدر
فقد محص هذه القصيدة بقصيدة أخرى مطلعها:		
يـــا قـــادر لـــيس يعفـــو حـــين يقتـــدر		ماذا الذي بعـد شـيب الـرأس تنتظـر
أنـــت المقـــول لـــه مـــا قلـــت مبتـــدئًا		هلا ابتكـرت لبـين أنـت مبتكـر [53]

ونستطيع أن نلمح مثل هذا الاتجاه عند أبي العتاهية وأمثاله ممن تزهدوا أو تابوا في أخريات حياتهم.

[53]) تاريخ المعارضات في الشعر العربي ص 24.

الفصل الرابع

بين المعارضة والسرقة والتضمين

كثر الحديث والجدل عن علاقة المعارضة بالسرقة، فحق علينا أن نقف أولاً على آراء النقاد في المعاني والألفاظ المشتركة؛ إذ من النقاد من عد اشتراك المعاني خارج نطاق السرقة، وتلطف في ذلك واعتبرها ((أخذًا))، بل واعتبر هذا الأخذ أمرًا ضروريًا للشاعر، وأنه على الآخذ بعد ذلك أن يكسو ما أخذ ألفاظًا من عنده، ويبرزها في معرض من تأليفه، بحيث تخرج في حلية غير حليتها الأولى، ويزيد في حسن تأليفها، وجودة تركيبها[54] وهذا المذهب منطقي في اتجاهه؛ لأنه اعتبر المعاني مطروحة في الطريق، يقع الناس عليها: عامتهم، وخاصتهم وينضم ((الآمدي)) إلى ((أبي هلال العسكري)) في رأيه السالف، ويكون أكثر صراحة في رأيه، عندما ذهب إلى أن الآخذ قد يكون أشعر من المأخوذ عنه، وضرب لذلك مثلاً بأبي ((تمام)) و((البحتري))، فقد أخذ الأخير من الأول، وليس ذلك بمانع من أن يكون البحتري أشعر منه، وقد اعترف له ((أبو تمام)) بذلك عندما التقيا عند ((أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري)) وأنشده قصيدته:

ألفاق صب من هوى فأفيقا		أم خان عهدًا أم أطاع شفيقا

فأشار ((أبو تمام)) إلى الأبيات التي تتفق مع أبياته، فبهت ((البحتري)) وظهر الإنكار على وجه ((أبي سعيد))، حينئذٍ قال ((أبو تمام)) أيها الأمير، والله ما الشعر إلا له، وإنه أحسن فيه الإحسان كله، ولم يقنع –أبو تمام– من ((محمد بن يوسف)) حتى أضعف للبحتري الجائزة[55].

وواضح أن البحتري لو كان قد سرق من ((أبي تمام)) شيئًا لما تجرأ على إنشادها أمام المسروق منه –أبي تمام– ثم طرف صاحب ((البحتري)) على ذلك مثلاً يقوي به رأيه فيقول[56]: ((ليس ذلك بمانع من أن يكون البحتري أشعر منه، فهذا كثير قد أخذ منه جميل، وتلمذ له، واستقى من معانيه فما رأينا أحدًا أطلق على كثير أن جميلاً أشعر منه، بل هو – عند أهل

---

[54] كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري – طبعة عيسى البابي الحلبي ص 196.

[55] الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي – تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ص 12.

[56] المرجع السابق ص 14.

العلم بالشعر والرواية أشعر من جميل، وهذا ابن سلام الجمحي ذكره في كتاب الطبقات في الطبقة الثانية من شعراء الإسلام.... وجعل جميلاً في الطبقة السادسة)).
وذا كان ((البحتري)) قد اعتبر معارضة ((أبي أحمد عبيد الله بن عبد الله ابن طاهر)) سرقة وهو يمدح الموفق بقصيدته:

أجـد هـذا المقـال أم لعبـه		أم صدق ما قيل فيه أم كذبه ([57])
لشـد مـا بـين الزمـان لنـا		يـا صـاح مـا قصـده ومـا أربـه
حيث عارض ((البحتري)) عند ما مدح ((أبا العباس بن بسطام بقصيدته		
مـن قائـل للزمـان مـا أربـه		فـي خلـق منـه قـد بـدا عجبـه
يعطـى امـرؤ حظـه بـلا سـبب		ويحـرم الحـظ محصـد سـببه ([58])
فاتهم ((البحتري)) ((أبا أحمد)) بالسرقة صراحة ضمن قصيدة طويلة يقول فيها ([59]):		
أجلـى لصـوص الـبلاد يطلـبهم		وبـات لـص القـريض ينتهبـه
قاتلتنـا بالعديـد نملكـه		معزيـا بالعديـد تنتخبـه
اردد علينـا الـذي اسـتعرت وقـل		قولـك يعـرف لغالـب غلبـه

وبالمنطق نفسه نقول ((للبحتري)): إن المعاني ليست وقفًا على بعض الشعراء دون البعض الآخر، فهناك توارد الخواطر، وهناك المعاني المختزنة التي تترسب في أعماق الذاكرة الحافظة، وتثيرها المواقف المناسبة وتجعلها تطفو على السطح، يمتاح منها الشاعر. وكأنها من بنات أفكاره، هذا الرأي على نحو قريب من دفاع ((الآمدي)) عن ((البحتري)) حين قال: ((لا ينكر أن يكون قد استعار بعض معاني أبي تمام لقرب البلدين، وكثرة ما كان يطرق سمع البحتري من شعر أبي تمام، فيعلق شيئًا من معانيه، معتمد للأخذ أو غير معتمد)) ([60]).

([57]) ديوان البحتري جـ1 ص 34.

([58]) المرجع السابق ص 32.

([59]) المرجع السابق ص 37.

([60]) الموازنة بين أبي تمام والبحتري ص 13.

هذا ونلاحظ اتفاق ((الآمدي)) مع ((أبي هلال العسكري)) في اعتبار الاستعارة أخذًا، على أن الاتهام قد يكون مبعثه غيرة ((البحتري)) على معانيه وأفكاره، فـأراد أن يحصـنها مـن أن ينتهبها الآخرون، أو يكون ((البحتري)) قد خشى المزاحمة والمناوأة في ميدان هو أحد فرسانه المبرزين، وهو لا يريد فارسًا جديدًا في الحلبة. وقد يكون هناك سبب آخر لم تكشـف عنـه الأيام.

وقد يقوى اتجاه القول بالسرقة عندما تكون هناك ثارات وضغائن، فيكـون الاتهـام بالسـرقة واحدًا من المثالب التي يلجأ إليها الشاعر متخذًا منها معولاً يهدم به مـن يعاديـه ويهاجيـه. وأوضح ما يكون ذلك بين ((جرير)) و ((الفرزدق)) حيث اتهم كل منهما الآخر بالإغارة على شعره، فها هو ذا ((جرير)) يقول في ((الفرزدق)) الذي كان دائم الفخر بآبائه:

سـيعلم مـن يكـون أبـوه فينـا		ومـن عرفـت قصـائدة اجتلابًـا
ويرد عليه ((الفرزدق)) بقوله		
إن اسـتراقك يـا جريـر قصـائدي		مثـل ادعـاك سـوى أبيـك تنقـل

هذا الاتهام كان الباعث عليه تسجيل مثالب من أحد الشاعرين على الآخر، وإلا فإني أسـتبعد تعمد السرقة وكلا الشاعرين يتربص بالآخر الدوائر، وأنهما ليسا من الغفلة بمكان لدرجة أنهما لا يفطنان لذلك، كما أن قوة الشاعرية لديهما تجعلنا نستبعد السرقة التي ينفـر منهـا البحـث الأدبي ويعدها مثلبة: على صاحبها.

ولقد كان ((لحسان بن ثابت)) رأي ثاقب في تلك القضية يحمله بيته القائل:

لا أسـرق الشـعراء مـا نطقـوا		بـل لا يوافـق شـعرهم شـعري

وهو الذي ناقض شعراء قريش وذادهم عن الدين بشعره الذي كان يرد به على الأعداء.

فلو نظرنا إلى منطوق البيت لرأيناه يفسر رأي ((أبي هلال العسكري)) وهو أنه لا يقر سرقة الألفاظ، أما المعاني فمدلول البيت يجيز استخدامها بمعنى أن ((حسانًا)) كان يتلقى بعض معاني المدح من الشعراء الأعداء فيطورها لصالح المسلمين أو يردها وينقضها على أصحابها، حينئذٍ لا يوافق شعره شعرهم، وهذا الرأي من الواقع الملموس في شعر حسان.

وليس معنى ذلك أني أنفي عن الشعر مفهوم السرقة بعامة، ولكني أنفـي الاتهـام عـن أفذاذ الشعراء الذين امتلأت واحتشدت ذاكرة كلٍ منهم بأفكار ومعاني لا حصر لهـا، أمـا هـؤلاء الشعراء الذين ينزلون في المرتبة عن الشعراء الفحول والمجيدين، فإن السرقه لـديهم كانـت أمرًا طبيعيًا؛ حيث يطمحون إلى الارتقاء الفني، وذيوع الصيت فيشجعهم ضعفهم على استراق المعاني وسرقتها، إذ هم في مسيس الحاجة إلى ما يضفي على شعرهم بريقًا ولمعانًا يرضـي طموحهم ويشبع نهمهم إلى الشهرة.

وهذا ما يمكن أن نطبقه على شعر المعارضات؛ لأن دوافع الإعجاب والتحدي والاستجابة لا تدفع بالمعارض أن يسرق؛ لأن المعجب يتأثر فيحاكي، والمتحدي يرى في السرقة ما يسقطه في ميدان التحدي، والمستجيب لدوافع النفس أو الغير، غالبًا ما يفرض عليه الموقف الترفع عن السرقة، أما الذي ينتهز فرصة عدم شيوع النص واشتهاره، أو الذي يعارض للتسلية، وتزجيه وقت الفراغ فالاتهام بهما ألصق. وإذا لم يسلم لنا هذا الرأي فقد حجرنا على عبقريات فذة في عالم الشعر، واعتبرنا أغلب الشعر العربي مسروقًا؛ لأنه يتشابه في الأفكار والمعاني، وتتحد آلاف القصائد في البحور والقوافي، وعندئذٍ يتحول الشعر إلى ميدان تعبث فيه قرائح يعز علينا أن نصفها بالعبث، أو أن نراها تعبث ويضيع خيالها عبثًا، وتكون سبحاتها العلوية الخالدة حلمًا أزعج النفس البشرية وقذف بها في دياجير الحيرة والقلق، بعد أن تعلقت بالشعر ورأت فيه شفاءها مما يعتمل بين الجوانح ويمور في أعماق الشعور.

أما استخدام ألفاظ الغير –كلمة، أو عبارة، او شطرة أو بيتًا– فهل هو سرقة أم تضمين؟

لبيان الرد على ذلك يجب أن نفرق بين استخدام هذه الأشياء منقولة عن مشهورين أو مغمورين، فإن كان أصحابها مشهورين بين الناس، فقد انتفى الإتهام بالسرقة وعد هذا العمل تضمينًا، فعندما يعارض ((الأخطل)) بردة ((كعب)) ويقول:

بانت سعاد في العينين ملمول		من حبها وصحيح الجسم مخبول ([61])

نقول عنه إنه عارض بالتضمين؛ لأنه عارض بعنوان القصيدة المشهور، والسرقة تكون في شيء يمكن أن يكون خافيًا، وما ((بانت سعاد)) بخافيةٍ على أحدٍ.

وهناك تضمين بتناثر الكلمات والعبارات صدر عن الشيخ ((قاسم)) ([62]) وهو يعارض بردة ((البوصيري)) الشهيرة حين يقول:

أمن تذكر أوطان على علم		أم من تفقد جيران بذي سلم
مزجت دمعًا جرى كالقطر منهمرًا		يجري على وجنة من مقلة بدم

وإذا ما ضمن شاعر بشطره –على نحو ما سنرى– فهو تضمين وتشطير أيضًا وقد يكون التضمين ببيت كامل – على نحو ما سنرى كذلك–.

فإذا ما كان التضمين لشاعر مغمور، وأفصح الشاعر عن التضمين بأن يشير إلى الشاعر الأول، أو يضع ما أخذ بين شرطتين أو قوسين، فقد انتفت السرقة أيضًا – أما إذا لم يتحقق شيء من ذلك فنية السرقة توفرت لدى الشاعر، فحق أن يتهم بالسرقة.

([61]) ديوان الأخطل – دار الشروق – بيروت ص 12.

([62]) تاريخ المعارضات في الشعر العربي ص 167.

فضلاً عن أن التضمين قد يكون الإعجاب أحد أسبابه، فيفاخر المضمن بأن شعره شرف بتراكيب غيره من الشعراء المرموقين فيزداد شرفًا ورفعةً.

وقد يكون الباعث على التضمين هو الرغبة في إظهار القدرة على السبك بين معنى الشاعر الأول ومعنى الشاعر المضمن وذلك على نحو ما فعل ((ابن نباتة)) ([63]) في مدحه الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال:

يا سيد الخلق الذي مدحته من		آي الكتاب فواصل لم تقطع
ماذا عسى المدح الطهور يزيد من		كأس الثنا بعد الكتاب المترع
بعد الحواميم التي بثنائها		(هبطت إليك من المحل الأرفع)

فالذي هبط في الأبيات هو الحواميم، بينما الشطرة في قصيدة النفس لابن سينا تتحدث عن هبوط النفس البشرية.

على أن التضمين قد يشكل نزعة جامحة في نفس صاحبه تجعله يتعلق به ولا ينفك عنه، وقد صرح بذلك أحد كبار شعراء العصر المملوكي وهو:

((مجير الدين بن تميم)) يصرح بشدة ولعه بالتضمين في قوله: ([64])

أطالع كل ديوان أراه		ولم أزجر عن التضمين طيري
أضمن كل بيت فيه معنى		فشعري نصفه من شعر غيري

فهل يعقل أن يتعلق شاعر بالتضمين إلى هذا الحد ونعد عمله سرقة؟!

لقد كان بعضهم يتفنن في التضمين على غرار لزوم ما لا يلزم الذي ابتدعه ((المعري)) بمعنى أن الشاعر كان يلزم نفسه بالتضمين لشعر شاعر معين مع اختلاف المواقف، فقد وقع التضمين عل سبيل التباري بين ((صلاح الدين الصفدي)) ((وابن نباته)) حين كتب ((الصفدي)) يعاتب ((ابن نباته)) قائلاً ([65]):

أفي كل يوم منك عتب يسوءني		(كجلمود صخر حطه السيل من عل)

فأجابه ((ابن نبته)) بقصيدة منها:

([63]) ديوان ابن نباته ص 292.

([64]) المعارضة في الأدب العربي ص 24.

([65]) المرجع السابق ص 28.

(أفـــاطم مهـــلاً بعـــض هـــذا التـــدلل)		فطمـــت ولائـــي ثـــم أقبلـــت عاتبًـــا
(تعـــرض أثنـــاء الوشـــاح المفصـــل)		بروحـــي ألفـــاظ تعـــرض عتبهـــا
(بســقط اللــوى بــين الــدخول فحومــل)		فـــأحيين ودًا كـــان كالرســـم عافيـــا

فقد التزم الشاعر تضمين أعجاز معلقة ((امرئ القيس)) (قفا نبك).

على أن التضمين قد يكون بقصد، وقد يكون بغير بقصد، فالتضمين المقصود، يقف الشاعر حياله قبل إنشاء النص جاهدًا في أن يوفق في السبك الدقيق بين فكره والفكر الذي يحمل القول المضمن به، ويتوفر هذا اللون من التضمين في المعارضات التي قامت على الإعجاب، والاستجابة، والاستعانة، فالتضمين له وجود في خيال ونية المضمن، أما معارضات التحدي فلا مجال فيها للتضمين، والمعارضات التي قامت على التسلي، غالبًا ما يكون التضمين فيها سرقة، ذلك أن الشاعر الذي يتسلى ليس لديه من الوقت والقدرة ما يغنيه عن الاستعانة بفكر غيره، فيضمن، أو قل: فيسرق، حينئذٍ يكون التضمين غير مقصود لذاته، ولنا بعد ذلك –وأمام ضعف الشاعر– أن نتصور وقوع التضمين بكثرة مفرطة، تجعل قول الدكتور ((محمد رزق سليم)) ينطبق عليه حين يقول: ((غير أن المضمن إذا أغرق، انتقل إلى السرقة الشعرية))([66]). على أن التضمين قد نشعر فيه بالاتساق التام مع المعنى السابق حتى لكأن المضمن به وضع أصلاً في هذا المكان الذي وضع فيه على نحو ما وقع بين ((الصفدي)) و((ابن نباته))، وقد نشعر فيه باجتلاب على نحو ما وقع من ((ابن نباته)) وهو يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم. وهذه أمثلة لبعض قصائد المعارضات وقع فيها تضمين –وذلك على سبيل التمثيل– فقد عارض البارودي ((عنترة بن شداد)) في معلقته:

أم هـــل عرفـــت الـــدار بعـــد تـــوهم؟		هـــل غـــادر الشـــعراء مـــن متـــردم
عارضها البارودي مضمناً فقال في مطلع القصيدة ([67])		
ولـــرب تـــالٍ بـــذ شـــأو الأول		كـــم غـــادر الشـــعراء مـــن متـــردم
ومثل ذلك فعل ((شوقي)) وهو يعارض ((أبا العلاء المعري)) وهو يقول:		
وكـــذاك المؤنثـــات إمـــاء		للمليـــك المـــذكرات عبيـــد

([66]) عصر سلاطين المماليك جـ 3 ص 388.

([67]) ديوان البارودي جـ 3 ص 485 دار المعارف – مصر 1972 م تحقيق محمد شفيق معروف.

فقد ضمن شوقي قصيدته: ((كبار الحوادث في وادي النيل)) [68] معظم كلمات بيت ((أبي العلاء)) وذلك على النحو التالي:

همت الفلك واحتواها الماء		وحداها بمن تقل الرجاء
لعلاك المذكرات عبيد		خضع والمؤنثات إماء

كذلك الحال في قصيدة ((شوقي)) مضناك [69] جفاه)) التي عارض بها قصيدة ((الحصري)): ((ياليل(70) الصب)) التي قال فيه:

يا من جحدت عيناه دمي		وعلى خديه تورده

فقال شوقي:

جحدت عيناك زكي دمي أكذلك خدك يجحده

هذا وقد سمع ((أبو بكر محمد بن الوليد الفهري الطرشوشي)) منشدًا ينشد قول ((الوأواء)) الدمشقي:

قمر أتى من غير وعدٍ		في ليلة طرقت بسعد

قال: أويظن هذا الدمشقي أنه لا يحسن نظم الكذب غيره؟ ونحن لو شئنا لكذبنا مثل هذا، ثم أنشد لنفسه معارضًا له:

قمر أتى من غير وعد		حفت شمائله بسعد(71)

ومن التضمين بالبيت –إلا كلمة– قول ((تميم بن المعز)).

لكم حرمة يا بني بنته		ولكن بنو العم أولى بها

قاله وهو يعارض ((ابن المعتز))، وبخاصة في بيته:

لكم رحمة يا بني بنته		ولكن بنو العم أولى بها

---

(68) الشوقيات جـ1 ص 17.

(69) المرجع السابق جـ2 ص 122.

(70) الموازنة بين الشعراء ص 116.

(71) المعارضات في الشعر العربي ص 100.

الفصل الخامس

من أطرف وأطول المعارضات

أولاً: الأطراف:

نالت بردة (البوصيري) من الحب والتقدير، والإعجاب والشهرة، والذيوع والانتشار، ما لم تبلغه قصيدة عربية من قبل ومن بعد، وقد أقبل المعارضون لها على عملهم بدافع التأثر والإعجاب الذي ملك عليهم أقطار أنفسهم، ولم يحدث أن فكر أحد منهم في معارضتها من قبيل التحدي، وبخاصة أنهم مقتنعون بأن في البردة شيئًا ذاتيًا لم يتوفر لواحدٍ منهم، قد يكون مصدره رؤيا الشيخ للرسول صلى الله عليه وسلم في المنام، وشفاءه من علته عقب إنشاء البردة، وربما كان في (البوصيري) صفاء روحي جعله ينطق بتوفيق الله، وينظم بتأييده حيث جعله نقاء القلب ربانيًا ينظر بنور الله.

وقد بلغ الأدب ببعض المعارضين أن أنقص عدد أبيات قصيدته بيتًا وهو شاعر أهل البيت ((محمود جبر)) فقد نظم قصيدته في تسعة وخمسين ومائة بيت [72] ولما سأله الدكتور ((سعد الدين محمد الجيزاوي)) عن سبب جعله قصيدته بهذا العدد من الأبيات قال: ((إني أنقصتها بيتًا عن قصيدة البوصيري من باب التأدب في حقه باعتباره أستاذي، ولا ينبغي لي أن أساويه، أو أن أزيد عليه، ومطلع قصيدته هذه هو:

ورقاء مكة بين البان والعلم		ناحت فأذكت بقلبي لاعج الضرم

هذا الإعجاب الشديد دفع بعض المعارضين أن يصوغوا معارضتهم في قوالب بديعية، بمعنى أن البيت الواحد يشتمل على لون بديعي واحد على الأقل، وكلما كان الشاعر أكثر تمكنًا في فن البديع، ويمتلك زمام الصياغة فيه، نراه يورد في البيت الواحد أكثر من لون بديعي، وقد شاع هذا الاتجاه وذاع في عصري الضعف الأدبي –المملوكي والعثماني– وقد كثر هذا الاتجاه في قصائد المديح على وجه الخصوص، إذ كما سمي العصر المملوكي بعصر المدائح النبوية، سمي كذلك بعصر البديعيات[73]؛ ومن رواد هذا اللون من البديعيات الشسخ ((عبد العزيز الحلي)) الملقب ((بالصفي)) وقصيدته مطلعها:

إن جئت سلعًا فسل عن جيرة العلم		وأقر السلام على عرب بذي سلم
والشيخ ((عز الدين الموصلي)) الذي يقول في مطلع قصيدته:		

---

[72]) المعارضات في الشعر العربي ص 211.

[73]) من المدائح النبوية: تقديم الدكتور سعد ظلام جـ 2 ص 11-12.

براعة تستهل الدمع في العلم		عبارة عن نداء المفرد العلم
و((تقي الدين بن حجة الحموي)) الذي يقول في مطلع قصيدته:		
لي في ابتدا مدحكم يا عرب ذي سلم		براعة تستهل الدمع في العلم
ولعائشة الباعونية قصيدة أفضل وأجمل وأرق –من قصيدتي الشيخين الموصلي والحموي– ومطلعها:		
في حسن مطلع أقمار بذي سلم		أصبحت في زمرة العشاق كالعلم
وللشيخ ((عبد الغني النابلسي)) قصيدتان، إحداهما مطلعها قوله:		
يامنزل الركب بين البان والعلم		من سفح كاظمة حييت بالديم
والثانية مطلعها قوله:		
يا حسن مطلع من أهوى بذي سلم		براعة الشوق في استهلالها ألمي
وممن عمدوا إلى البديع في معارضات ((البوصيري)) الشيخ ((محمد بن الشيخ خليل المقري الحلبي)) وأول بديعيته ([74]):		
عجبي عراقي فعج بي نحو ذي سلم		واجنح لسكانها بالسلم والسلم
ومنهم ((جلال الدين السيوطي)) وقد استهل بديعيته بقوله:		
من العقيق ومن تذكار ذي سلم		براعة العين في استهلالها بدم
ومنهم ((السيد علي خان)) ومطلع قصيدته ([75]):		
حسن ابتدائي بذكرى جيرة الحرم		له براعة شوق يستهل دمي
ومنهم الشيخ ((عبد القادر محمد مكي الشافعي)) ومطلعها:		
حسن ابتداء مديحي حي ذي سلم		أبدى براعة الاستهلال في العلم
ومنهم الشيخ ((أحمد بن محمد المقري التلمساني)) ومطلع قصيدته:		
شارفت ذرعًا فذر عيني وما وجدت		من الشجون على حي بذي سلم
والشيخ ((محمد بن عبد القادر حكيم زاده)) بديعتان: مطلع الأولى ([76]):		

([74]) المعارضات في الشعر العربي ص203.

([75]) المرجع السابق ص205.

([76]) المرجع السابق ص 206.

جـــلا المطلـــع أقمـــار بـــذي ســـلم		حســـن ابتـــدائي بـــذكر البـــان والعلـــم
ومطلع الثانية:		
يا قلـــب ســـرًا وجهـــرًا جـــوهر الكلـــم		إن رمت صنعًا فصن عن مـــدح غيـــرهم
وأيضًا من هؤلاء الشيخ ((أبو الوفا الحلبي))، وأول معارضته:		
قـــد اســـتهلت لـــدمع فـــاض كـــالعلم		براعـــة فـــي ابتـــداء نـــوحي بـــذي ســـلم
كما سلك هذا النهج الشيخ ((قاسم بن محمد البكرة الحلبي الحنفي)) [77] ومطلع معارضته:		
براعتـــي مســـتهل دمعهـــا بـــدمي		من حســـن مطلـــع أهـــل البـــان والعلـــم
ومنهم ((السيد حسن بن مير رشيد الرضوي الهندي، وقد استهل معارضته بقوله.		
وملعـــب الحـــي بـــين البـــان والعلـــم		حـــي الحيـــا عهـــد أحبـــاب بـــذي ســـلم

ومنهج الشيخ ((أحمد بن محمد الحملاوي)) ومطلع معارضته:

وقابـــل التـــوب مـــن جـــانٍ ومجتـــرم		يا غافر الـــذنب مـــن جـــود ومـــن كـــرم

والمعارضون البديعيون ((للبردة)) كثيرون، أكتفي بهذا القدر الذي استشهدت به، كما أكتفـــي بهؤلاء عن المعارضين البديعين للقصائد الأخرى.

ثانيًا: الأطول:

من أطول المعارضات للبردة وغيرها معارضة ((يوسف بن إسماعيل النبهـــاني)) –صـــاحب المجموعة النبهانية– لبردة ((كعب بن زهير))، حيث عارضها بقصيدة في ألـــف وأربعمائـــة وأربعين بيتًا مطلعها [78]:

ومنيتـــي عينهـــا الزرقـــاء لا النيـــل		هـــواي طيبـــة لا بيضـــاء عطبـــول

ومن أطول معارضاتها معرضة الشيخ: ((أحمد بن محمد الحملاوي)) وعدد أبيات معارضـــته مائتان وثلاثة وثمانون بيتًا، ومطلعها [79]:

---

[77] المرجع السابق ص 207.

[78] تاريخ المعارضات في الشعر العربي ص159، وفي كتاب المعارضات في الشعر العربي ص 171 أنها أربعة وأربعين ومائة.

[79] المعارضات في الشعر العربي ص 167.

القلـــب بالحـــب مشـــغوفٌ ومشـــغولٌ		والجســم بالوجــد منهــوكٌ ومهــزول

كذلك من أطول معارضاتها ((البوصيري)) بقصيدته:

((ذخر المعاد في معارضة بانت سعاد)) وتبلغ أبياتها مائتان وخمسة أبيات، ومطلعها [80]:

إلـــى متـــى أنـــت باللـــذات مشـــغولٌ		وأنت عــن كــل مــا قــدمت مســئول

كذلك من أطول المعارضات ((المقصورة الحازمية)) التي تعارض مقصورة

((ابن دريد))، وقد نظمها ((حازم الأندلسي)) في ألف وبيتين من الشعر،

وقد مدح بها ((المستنصر أبا عبد الله)) وأخاه ((أبا يحيى))، ومنها قوله [81]

لله ما قد هجت يا يوم النوى		على فؤادي من تباريح الجوى
لقد جمعت الظلم والإظلام إذ		واريت شمس الحسن في وقت الضحى
ومن أطول المعارضات أيضًا معارضة ((البارودي)) لبردة ((البوصيري)) في أربعمائة وسبعة وأربعين بيتًا يقول مطلعها [82]:		
يا رائد البرق يمم دارة العلم		واحد الغمام إلى حي بذي سلم
ومن أطولها –أيضًا– مقصورة (محمد رشيد رضا) وتقع في أكثر من أربعمائة بيت، ومطلعها [83]:		
تبارك البارئ مبدع الورى		بالحق والحكمة عن ظهر غنى
أنشأ من السديم كل صورة		فسمك السماء والأرض دحا
ومن أطول المعارضات –أيضًا– مقصورة (الرواحي العماني العبسي)، إذ بلغت أبياتها ثلاثمائة وثلاثة وتسعين بيتًا، منها [84]:		
تلك سفوح الحمى من سفح النقا		تلوح كالأطلال من جد البلى

([80]) المرجع السابق ص 166.

([81]) تاريخ المعارضات في الشعر العربي ص 172.

([82]) من المدائح النبوية جـ2 ص 21.

([83]) تاريخ المعارضات في الشعر العربي ص 174.

([84]) تاريخ المعارضات ص 173.

أليس عارًا أن تعيش أمة		مثل اللقى أو غرضًا لمن رمى
و(ابن جابر) الأندلسي بلغت مقصورته ما يقرب من ثلاثمائة بيت، ومطلعها قوله:		
بادر قلبي للهوى وما ارتأى		لما رأى من حسنها ما قدر رأى
ومن أطولها بردة (محفوض) التي عارض بها (البوصيري) في مائتين واثني عشر بيتًا، يقول مطلعها[85]:		

قلب تقسم بين البث والألم		بادي الصبابة من شوقٍ ومن ضرم
كذلك من أطول المعارضات معارضة (شوقي) (للبوصيري) بقصيدة (نهج البردة)[86] ومطلعها:		
ريم على القاع بين البان والعلم		أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

فقد بلغت مائة وتسعين بيتًا.

والمعارضات الطويلة كثيرة، أكتفي منها بما أشرت إليه آنفًا، وإن كنت قد لاحظت أن الطول المسرف كان في المقصورات عمومًا.

---

[85]) بردة محفوظ تصدير الدكتور محمد حسين هيكل ص 1.(

[86]) الشوقيات جـ1 ص190.(

الفصل السادس

المعارضة في الرسائل الشعرية، وفي النثر والكتب

قامت الرسائل الشعرية على الجانب الترفيهي في أغلبها الأعم، وكان البعض قادرًا على الرد على الرسائل بالشعر فعلاً، فكانت الصياغة مقبولة إلى حد ما، والآخر كان يجاهد في محاكاة من أرسل إليه، حينئذٍ يظهر التكلف والضعف في ثنايا الأبيات، المهم في ذلك أن الرسائل الشعرية صارت فنًا أدبيًا شائعًا، حتى أصبحت تميز بعض العصور الأدبية عن بعض، بمعنى أنها أصبحت سمة من سمات العصر المملوكي، إذ فيه شاعت وذاعت الرسائل الإخوانية على هذا النحو الشعري.

وإذا جازلنا أن نتحدث عن هذا الفن ونحن بصدد الحديث عن المعارضات فلأن المرسل إليه كان يرد على المرسل في بحر الرسالة وعلى رويها وفي نفس موضوعها، والأمثلة على ذلك كثيرة، فقد روي أن محمد بن عبد الملك استحيا من عتاب أبي تمام، واحتج عليه بأنه مدح غيره، وأنه لو اقتصر عليه أغناه، وأن كثرة مدحه للناس زهدته فيه، وكتب إليه:

رأيتك سمح البيع سهلاً وإنما		يغالي إذا ما ضن بالشيء بائعه
فأما الذي هانت بضائع بيعه		فيوشك أن تبقى عليه بضائعه
هو الماء إن أجمعته طاب ورده		ويفسد منه ما تباح شرائعه
فكتب إليه أبو تمام:		
أبا جعفر إن كنت أصبحت شاعرًا		أساهل في بيعي له من أبايعه
فقد كنت قبلي شاعرًا ذا روية		تساهل من هانت عليه بضائعه
وصرت وزيرًا والوزارة مشرب		يغص به بعد اللذاذة كارعه
وكم من وزيرٍ قد رأينا مسلطًا		رأيناه قد سدت عليه مطالعه
ولله قوسٌ لا تطيش سهامها		ولله سيف لا تفل مقاطعه

وكتب ((أبو تمام)) إلى صديقه: الحسن بن وهب حين تشاغل عنه فترة:

قـــالوا جفـــاك فـــلا عهـــد ولا خبـــر		مـــاذا تـــراه دهـــاه؟ قلـــت أيلـــول
شـــهر كـــأن حبـــال الهجـــر منـــه فـــلا		عفـــو مـــن الوصـــل إلا وهـــو محلـــول
فأجابه الحسن بن وهب:		
مـــا عـــاقني عنـــك أيلـــول بلذتـــه		وطيبـــه ولـــنعم الشـــهر أيلـــول
لكـــن توقـــع وشـــك البـــين عـــن بلـــد		تحلـــه فوكـــاه الـــدمع محلـــول[87]
ومن هذا اللون أيضًا، ما قام به صفي الدين الحلى عندما أرسل قصيدة لابن نباته طابعها الود والصداقة، ومنها قوله:		
مـــن لصـــب أدنـــى البعـــاد رفاتـــه		إذ عـــداه وصـــل الحبيـــب وفاتـــه
كـــان ثبتًـــا قبـــل التفـــرق لكـــن		زعزعـــت روعـــة الفـــراق ثباتـــه
فرد عليه ابن نباته بأبيات منها:		
مـــا لظبـــي الحمـــى إليـــه التفاتـــه		بعـــد مـــا كـــدر الشـــيب حياتـــه [88]
وكانت الفكاهة تغلب على بعض تلك الرسائل كالذي حدث بين الصاحب تاج الدين بن الصاحب فخر الدين، وبين الشاعر سراج الدين الوراق، فحدث أن سقط حمار سراج الـدين فـي بئـرٍ ومات، فأرسل إليه الصاحب بقصيدة هزلية منها قوله:		
يفـــديك جحشـــك إذ مضـــى مترديًـــا		وبتالـــد يفـــدي الأديـــب وطـــارف
عـــدم الشـــعير فلـــم يجـــده ولا رأى		تبنًـــا وراح مـــن الظمـــأ كالتـــالف
فأجابه سراج الدين بأبيات منها قوله:		
أدنـــت ثمـــار قطوفهـــا للقـــاطف		وثنـــت بأنفـــاس النســـيم معـــاطفي
يمشي علـــى عســـري ويســـري صـــابرًا		بمعـــارفٍ تلهيـــة دون معـــالف ([89])

((وكتب الشهاب الخفاجي يتغزل ويتطرق إلى مدح ((محمد بن القاسم الحلبي)):

[87]) المعارضة في الأدب العربي ص 53، 54. (

[88]) تاريخ المعارضات في الشعر العربي ص 69. (

[89]) المرجع السابق ص 70. (

حتام يغزوني صدوده		والصبر قد كثرت جنوده
لم أدر فاتر جفنه		والخصر أسقم أم عهوده
نشوان يعبث بي كما		عبثت بآمالي وعوده
*************		
زمن يجيد اللهو قد		نظمت على نسق عقوده
إذ دوح أنسى يانع		بكئوسنا انفتحت وروده
والكأس نجم لاح في		فلك المسرة لي سعوده
يصفو فيحلى ذكر من		قد زين الدنيا وجوده
ذاك ابن قاسم الذي		مازال في تعب حسوده
*************		
فيجيبه ((محمد بن القاسم)):		
للظبي لفتته وجيده		والورد ما أبدت خدوده
والدر يزهو بالذي		في ثغرة منه نضيده
وبوجهه شرك العقول		فأي عقل لا يصيده
*************		
يبدي الصدور وكلما		صانعته عنه يعيده
أتراه يجحد ما لقيت به		وهل يغني جحوده
وهو النهار إذا بدا		من نفسه قامت شهوده
كضياء مولانا ((شهاب)) الفضل إذ طلعت سعوده		
مازال يسمو في سماء المجد زينها وجوده [90]		

ومن الرسائل الإخوانية الشعرية ما أرسله ((علاء الدين بن غانم)) من دمشق إلى ((صلاح الدين الصفدي)) يظهر فيه تشوقه إليه وهو بمصر، ويطلعه على لوعة الفراق وبعد المشقة، من ذلك قوله [91]:

---

[90] المعارضة في الأدب العربي ص 54.

[91] تاريخ المعارضات في الشعر العربي ص 71.

وهــــوى يهيجـــه جـــوى وغــــرام		لي فــي الضــمير مــن الفــراق ضــرام
ونبـــا بهـــم بعـــد المقـــام مقـــام		منـــذ غـــاب عنـــي مـــن ألفـــت دنـــوهم
دارًا، وأيــــن ديـــــارهم والشـــــام؟		واســتوطنوا مصــر التــي طابــت لهــم

كـــان الزمـــان بهـــم ربيعًـــا وجهـــه ... مـــــــتهللاً بـــــــدنوهم بســـــــام

ونـــأوا فقطـــب بـــالفراق فوجهـــه ... جهـــم وســـحب المبهجـــات جهـــام

فأجابه ((الصفدي)) معارضًا:

وافـــى كتابـــك فســـتتار ظـــلام ... وغـــدت بـــدور الأفـــق وهـــي تمـــام

ياســـاكنين دمشـــق لـــي فـــيكم وإن ... طـــال البعـــاد صـــبابة وغـــرام

بينـــــــي وبيـــــــنكم إذا حققـــــــتم ... عهـــد بـــه شـــهد الصـــفا وزمـــام

وهذه رسالة شعرية كتبها ((ابن نباتة)) إلى تلميذه ((صلاح الدين الصفدي)) الذي كان مريضًا بالحمى يواسيه في مرضه فيقول[92]:

نتقـــل إذ نبغـــي بلفظـــك طبنـــا ... مـــن الهـــم والجســـم الشـــريف نحيـــل

فهـــا أنـــت فينـــا كالنســـيم بلطفـــه ... طبيـــب يـــداوي النـــاس وهـــو عليـــل

وحشاك من شكوى اعتلال سينقضي ... قريبًا كما نختاره ويزول

فأجابه ((الصفدي)):

لحمـــاي نـــار جاءهـــا منـــك جنـــة ... غصـــونٌ رباهـــا بالبـــديع تميـــل

تهـــدلت الأفنـــان منهـــا فخـــاطري ... لـــه بـــين هاتيـــك الظـــلال مقيـــل

وأنـــت حبيـــب الشـــعر أصـــبحت ســـيدًا ... كمـــا أننـــي مـــولى والاســـم خليـــل

وهذه رسالة إخوانية شعرية أخرى من ((مصر)) أرسلها ((شهاب الدين الحلبي)) إلى صديقه: ((تقي الدين الصالحي)) وهو بالشام، فيها شوق ومودة، وعتاب رقيق منها[93]:

علـــم بـــأن نـــواهم أصـــل آلامـــي		هل عنـــد مـــن عنـــدهم بـــري وإقســـامي
فلســـت أطمـــع فـــي طيـــفٍ بإلمـــام		بـــانوا فبـــان رقـــادي يـــوم بيـــنهم

---

[92]) المعارضة في الأدب العربي ص 124.(

[93]) تاريخ المارضات في الشعر العربي ص72.(

<table>
<tr><td>كانـــت ليـــالي بيضًـــا فـــي دنـــوهم</td><td></td><td>فلا تسـل بعـدهم عـن حـال أيـامي</td></tr>
<tr><td colspan="3">فرد عليه ((الصالحي)) بأبيات منها:</td></tr>
<tr><td>يا ســاكني مصــر فـيكم سـاكن الشـام</td><td></td><td>يكابـد الشـوق مـن عـام إلــى عـام</td></tr>
<tr><td>يـــا نـــازحين متـــى تـدنو النـوى بكـم</td><td></td><td>حالـــت لبعـــدكم حـــالي وأيـــامي</td></tr>
<tr><td>فـــي ذمـــة الله قومًـــا مـــا ذكـــرتهم</td><td></td><td>إلا وغـــم بوجـــدي مـــدمعي الـــدامي</td></tr>
<tr><td>قـــوم أذاب فـــؤادي فـــرط حـــبهم</td><td></td><td>وقـــد ألـــم بقلبـــي أي إلمـــام</td></tr>
<tr><td colspan="3">والوزير ((أبو بكر بن الطيب)) يشكو لواعجه و أشواقه وعتبه وإعتابه إلى ((ابــن زيــدون)) يقول[94]:</td></tr>
<tr><td>أبـــا الوليـــد ومـــا شـــطت بنـــا الـــدار</td><td></td><td>وقـــل منـــا ومنـــك اليـــوم زوار</td></tr>
<tr><td>وبيننـــا كـــل مـــا تدريـــه مـــن ذمـــمٍ</td><td></td><td>وللصـــبا ورق خضـــر ونـــوار</td></tr>
<tr><td>وكـــل عتـــب وإعتـــاب جـــرى فلـــه</td><td></td><td>مواقـــع حلـــوة عنـــدي وآثـــار</td></tr>
<tr><td>فـــاذكر أخـــاك بخيـــر كلمـــا لعبـــت</td><td></td><td>بـــه الليـــالي فـــإن الـــدهر دوار</td></tr>
<tr><td colspan="3">وأجابه ((ابن زيدون)) بقوله:</td></tr>
<tr><td>لـــو أننـــي لـــك فـــي الأهـــواء مختـــار</td><td></td><td>لمـــا جـــرت بالـــذي تشـــكوه أقـــدار</td></tr>
<tr><td>لكنهـــا فـــتن فـــي مثـــل غيهبهـــا</td><td></td><td>تعمي البصـــائر إن لـــم تعـــم أبصـــار</td></tr>
<tr><td>فأحســـن الظـــن لا ترتـــب بعهـــد فتـــي</td><td></td><td>تفنـــى العهـــود وتبقـــى منـــه آثـــار</td></tr>
<tr><td>لو كان يعطي المنـــى فـــي الأمـــر يمكنـــه</td><td></td><td>لمـــا أغبـــك يومًـــا منـــه زوار</td></tr>
<tr><td>فـــلا يريبنـــك فـــي ذكـــر الصـــديق بـــه</td><td></td><td>مـــن لـــيس يجهـــل أن الـــدهر دوار</td></tr>
</table>

ومن الرسائل الشعرية الإخوانية ما بعث به الوزير ((أبو محمد عبدون)) إلى الوزير ((أبي الحكم عمرو بن مذحج))، يكشف عن وده وشوقه فيقول مجاملاً[95]:

<table>
<tr><td>ســـلام كمـــا هبـــت مـــن الحـــزن نفحـــة</td><td></td><td>تتنفس قبل الفجـــر فـــي وجههـــا الزهـــر</td></tr>
<tr><td>مـــن الـــوارف الفينـــان وشـــت بـــروده</td><td></td><td>ذراعٌ مـــن الغيـــث الثريـــا لـــه شـــبر</td></tr>
<tr><td colspan="3">فيرد عليه ((أبو الحكم)) معارضًا:</td></tr>
</table>

---

(94) المعارضة في الأدب العربي ص116.

(95) تاريخ المعارضات في الشعر العربي ص96.

أتى النظم كالنظم الذي تزدهي به		عروس من الجوزاء إكليلها البدر
تحلت لنا منه بخطك رقعة		هي الروضة الغناء كللها الزهر
ويرسل ((أبو الحكم)) هذا إلى ابن عمه ((أبي الوليد)) رسالة منها:		
إني لأعجب أن يدنو بنا وطن		ولا يقضي من اللقيا لنا وطرًا
لا غرو أن بعدت دار مصاقبة		بنا وجد بنا في الحضرة السفر
فيرد ((أبو الوليد)):		
لبيك لبيك أنت السمع والبصر		وإن أتت دونك الأحداث والغير
إيه أبا حكم فالود مقترب		وإن تباعدت الأشخاص والصور
وينعكس الأمر ويرسل ((أبو الوليد)) إلى ((أبي الحكم)) يقول[96]:		
أعمرو كم أطامنها حياء		فتطغيها معاتبة الأماني
وإن وقف الغرام بها قليلاً		فذر أخيك في جفني فلان
أتتني قولة هجمت فكادت		تغل يدي وتعقل من لساني
فيرد ((أبو الحكم)) قائلاً:		
أما وعقيلة لك غازلتني		بغنج السحر من عيني فلان
لقد أهديت لي منها عروسًا		معرسها سويداء الجنان
جرت من رقة التعريض صحفًا		أرق من الحسام الهندواني
بنفسي أنت قول الناس ريح		يوافق منك ركنًا من أبان
أنا لك حيث كنت أخ أمين		إذا ما خان إخوان العيان
وفي مجال المجاملات يرسل ((أبو حفص بن برد)) إلى ((أبي العلاء صاعد بن الحسن)) الأندلسي اللغوي مادحًا إياه، مثنيًا على علمه وفهمه فيقول[97]:		
أبا العلاء استمع تعريض ذي مقة		أهدي لك الود محضًا غير مقطوب
نساء بغربته والفهم نسبته		وكم دنى قصي في المناسيب

[96]) المرجع السابق ص99.

[97]) المرجع السابق ص99.

أمـــا اللغـــات فـــلا يعقـــوب يبلـــغ مـــا		وعيـــت منهـــا ولا أشـــياخ يعقـــوب
وأنـــت رب القـــوافي الشـــاردات بـــه		تحـــدي وســـيقتها فـــي كـــل أســـلوب
فيرد ((أبو العلاء)) صاعد معارضًا:		
لبيـــك إلفًـــا أبـــا حفـــص إجابـــة مـــن		يـــدلي إليـــك بـــود غيـــر مأشـــوب
أبعـــد خمـــسٍ وســـبعين التحفـــت بهـــا		حتـــى قرعـــت لهـــذا الـــدهر طنبـــوبي
رميتنـــــي بســـــهام غيـــــر طائشـــــةٍ		حـــور رزيـــن علـــى صـــم الأنابيـــب
نـــــاديتني لخيـــــالٍ عـــــز طائفـــــه		إلا ليـــومٍ عصـــيب إذ تنـــادى بـــي

هذه النماذج من الرسائل كثيرة ومتنوعة الغرض والمشرب، ولكنها تكاد تجتمع على الصياغة الشعرية العادية، وقد كانت باهتة الظلال، حائلة الأصباغ في كثير منها، لذلك فهي تفقـد روح الشعر الحارة، وخياله المحلق الرفاف، وقيمتها الشـعرية ضـئيلة أذا مـا قيسـت بقصـائد المعارضات الراقية، إذ لم تتوفر للرسائل فرص التحبير والتنميق؛ لأنها كانت تقوم على الندية والرغبة في المحاكاة أو التسلية وتزجيته وقت الفراغ، ولم يكن هدف المعارضـة واردًا فـي الأذهان إلا على تلك الصورة التي يجامل فيها الصديق صديقه، أو يبثه أشواقه ومودته، ويعلن له صافي صداقته، وصدق محبته، فلا تجربة تعين على الصياغة الشعرية الحالمـة، ولـيس الموقف بمشجعٍ على ارتياد أفق الشعر حتى تنعكس في مجاله الألوان زاهيةً، والصور بديعـة مشرقة، ولكن الرسائل، كان يجمع كل رسالتين منها البحر الواحد، والقافية الموحدة وحركـة الروي الواحدة أيضًا، واتحاد الموضوع كذلك، وهذا ما جعلنا نسلكها في باب المعارضات.

المعارضة في النثر والكتب:

انتقلت المحاكاة والمعارضة من الرسائل الشعرية إلى مجال النثر، تحت تأثير الإعجـاب، أو الرغبة في إظهار القدرة على التأليف، أو التحدي أو غير ذلك من الأسباب التي قد تنفـرد أو تجتمع.

ففي هذا المجال[98] عرض ((ابن شرف الأندلسي)) ((بديع الزمان الهمذاني)) في مقاماته، حيث أنشأ مقامة تحدث فيها عن الشعر والشعراء – كما فعل البديع في مقامته القريضية وغيرها.

كما أنشأ مقامة أخرى في مسائل عامة، ومثل ذلك فعل الوزير ((أبو الوليد محمد بن عبد العزيز المعلم)) إذ أنشأ مقامات أندلسية يعارض بها مقامات الحريري والهمذاني في المشرق، وللأديب الكاتب ((أبي عبد الله محمد بن أبي الخصال)) مقامات أظهرها المقامة ((القرطبية))

([98]) المعارضات في الشعر العربي ص 22.

ومثل ذلك حدث من ((أبي حفص بن برد عندما قلد ابن العميد في عمل الرسائل الديوانية، وحاكى ((أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم، بديع الزمان الهمذاني في مقاماته.

والحقيقة أن معارضات المقامات امتدت لتشمل القرن التاسع عشر الميلادي على يد الشيخ ناصف اليازجي، وذلك في كتابة المعروف مجمع البحرين[99]، وقد جرى في مقاماته مجرى الحريري، وحذا حذوه في الأسلوب، والميل إلى السجع، وجمع الغريب والشارد[100] وقد كتب ستين مقامةً حيث زاد عن الحريري عشرًا، ولقد كان مجال المعارضة والمحاكاة في المقامات متسعًا، ويشير الدكتور (شوقي ضيف)[101] إلى أن الحريري ليس أول من حاول تقليد بديع الزمان في صنع المقامة، فقد وقعت محاولتان من (أبي النصر بن عبد العزيز بن عمر السعدي) وأبي القاسم عبد الله بن محمد بن ناقيا الذي طبعت له تسع مقامات.

وكان أول المحاولين لتقليد الحريري هو أبو الطاهر محمد بن يوسف السرقسطي الذي أنشأ خمسين مقامة معارضة لمقامات الحريري الخمسين، كذلك ألف الزمخشري مقامات وعظية ولكنه أخلاها من البطل والراوية.

وممن ألف في هذا الفن (الحسن بن صافي المصري)، و(أبوالعباس يحيى بن سعيد بن ماري النصراني الطبيب)، الذي اشتهرت مقاماته بالمقامات المسيحية، ومن بعده يؤلف (ابن الجوزي) خمسين مقامة، نحا فيها نحو (الزمخشري) في مقاماته، وقد عاصره (أبو بكر الرازي) الذي ألف ثلاثين مقامة.

وينداح ميدان المقامات فينتقل من مجالاً الأدب شعرًا ونثرًا، ومن مجال الوعظ والإرشاد إلى مجال علوم الحديث والفقه والنحو كما في مقامات (ابن الصيقل الجزري) وعددها خمسون أيضًا، وقد اتسع الموضوع –موضوع المقامات– فشمل وصف الحيوانا في مقامات (ابن الوردي).

وتأتي مقامات (السيوطي) فيتسع فيها المجال اتساعًا عظيمًا، وإن كانت قد خلت من البطل والراوية على غرار مقامات الزمخشري، وقد خرجت طبيعة الموضوعات عن الواقع إلى الخيال وهي تتحدث في موضوعات جدلية أو روحية صوفية، وقد يعود إلى طبيعة المقامات وأظهر ما كانت تدور حوله وهو معالجة الموضوعات الاجتماعية.

---

(99) يقصد بمجمع البحرين النظم والنثر، أخذًا من الآية الكريمة: {وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين}.

(100) المرجع السابق ص23.

(101) المقامة – الطبعة الرابعة – دار المعارف – مصر ص76.

ومن أشهر من قلد الحريري في العصر الحديث ((في القرن الماضي الشيخ حسن العطار في مصر، والآلوسي في العراق، وفارس الشدياق وناصيف اليازجي في الشام... وما ليالي سطيح لحافظ إبراهيم، وحديث عيسى بن هشام لمحمد المويلحي إلا ثمرة من ثمار تقليد الحريري، والضرب على نموذجه في الأسلوب والصياغة))[102].

وفي مجال الكتب نرى ((ابن عبد ربه)) ألف كتابه ((العقد الفريد)) ليشابه به كتاب ((عيون الأخبار لابن قتيبة)) وقد علق ((الصاحب بن عباد)) عندما اطلع عليه فقال: ((هذه بضاعتنا ردت إلينا))[103].

الفصل السابع

المعارضة بين الإيجابية والسلبية

الدارس للمعارضات، وما كان وراءها من دوافع متعددة، يرى أنها أثرت الأدب العربي بلون طريف من الدراسة؛ إذ يقف الدارس أمام النموذج والنص الذي يعارضه، فيرى نفسه وقد اجتمع له عصران أو عصور مختلفة في وقت واحد، فحقق بذلك جغرافية العالم العربي وكأنه وطن واحد لم تفصل بينه حدود أو سدود، وقد تراءى له ما كان يعج به ذلك العصر من عادات وتقاليد ونظم اجتماعية، فيرى من خلال ذلك النظم الاجتماعية المتقاربة أو المتباعدة، ويقف على أحوال السياسة والاقتصاد لهذه المجتمعات، فضلاً عن توقفه أمام البيئات الثقافية والتيارات الأدبية التي كانت تموج بها بحار العلم والأدب في تلك المجتمعات، وقد انطوى له الزمن ليقف على تراث الأمة العريق في الثقافة والفنون والآداب.

وقد تعددت مناحي الإفادة والإثراء؛ لأن المعارضات –في جانب كبير منها– كانت تهدف إلى التجويد والإجادة ومحاولة التفوق والتبرير، سواء في اللفظ –البنية الأولى للعبارة– أو في العبارة وبنائها الموحي الأخَّاذ من ناحية، وجزالتها وفصاحتها من ناحية أخرى، وبذلك يحدث للألفاظ والتراكيب ما يشبه البعث والإحياء، فقد تكون هناك ألفاظ هجرت، أو تراكيب أهمل استعمالها، فالمعارضة تحيي ما اندثر، وتعيد الحياة والحركة إلى تلك الألفاظ والتراكيب، بعد أن صارت وديعة في بطون المعاجم أيضًا، فقد وضع كثير من المعارضين نصب أعينهم أن يسمو خيالهم ويسمق، وقد طرقوا آفاق الخيال المبدع الخلاق، وافتنوا في صب هذا الإبداع في قوالب محبوكة، يحمل إشارات التجسيد للمشاعر والأحاسيس والأخيلة الرفافة الشفيفة، وهم في

---

(102) المرجع السابق ص 78.

(103) تاريخ المعارضات في الشعر العربي ص 21.

تحليقهم هذا يرفرفون بأجنحتهم المشعة بين عالم الأحلام والأماني، وبين عالم الواقع المليء بالجراح والآلام، محاولين أسو الجراح، وهدهدة المتألمين حتى تخف آلامهم وتجف دموعهم.
لقد كانت المعارضة ميدانًا فسيحًا تبارى فيه المعارضون، وبحرًا خضمًا سبح فيه من سبح، ومن أحسن العوم فيه فقد خرج منه باللؤلؤ والمرجان، وقد توفر هذا اللون من التفوق لدى بعض الشعراء الذين نضجت قرائحهم، واشتد ساعدهم، وثبتت أقدامهم، وطالت هاماتهم، وها هو ذا ((شوقي)) يعارض ((البحتري)) في سينيته –والكل يعرف من هو البحتري– ومع ذلك فقد تفوق شوقي على نموذجه وهو يتحدث عن القدر الغلاب وما يأتي به من مصائب يحار عقل اللبيب فيها، ويضطرب معها لب الرزين الوقور.
يقول ((شوقي)):

عقلت لجة الأمور عقولاً		كانت الحوت طول سبح وغس
غرقت حيث لا يصاح بطاف		أو غريق ولا يصاخ لحس
فلك يكسف الشموس نهارًا		ويسوم البدور ليلة وكس

هذه الأبيات عبرت عن فكرة الشاعر تعبيرًا دقيقًا أعجب به الدكتور ((زكي مبارك)) فعلق عليها بما أثبته في دوافع المعارضة.
وقد فضل الدكتور ((زكي مبارك)) مطلع ((شوقي)) في سينيته[104]:

اختلاف النهار والليل ينسي		اذكرا لي الصبا وأيام أنسي

ورأى مطلع ((البحتري)):

صنت نفسي عما يدنس نفسي		وترفعت عن جدا كل جبس

رأى فيه ضعفاً وانحلالاً، وأنه ليس بقاطع الدلالة على الإباء.
ومن الصور التي تفوق فيها ((شوقي)) وهو يعارض ((ابن زيدون)) في نونيته صورة الهول وقد نزل بجبروته حيث لا مفر ولو إلى الجحيم، يقول (شوقي):

لو استطعنا لخضنا الجو صاعقة		والبر نار وغي والبحر غسلينا

وعلى ذلك فإن المعارضة سبيل من سبل إخصاب الفكر، وإمداده بالماده التي يقع عليها خيال فيصوغ منها أجمل ما استطاع من ألحان امتدت إليها خيالاته الرفافة المجنحة.
فضلاً عن تلاقح الأفكار، وبذلك تمد المعارضة رياض الشعر بقطوفٍ دانية من المعاني الطريفة المستملحة، والمعارضة على هذا النحو تبعث في الحركة الأدبية نشاطًا وحركة،

---
[104]) الموازنة بين الشعراء ص160.

وتهيء لها إزدهارًا ما كان ليتهيأ لولا ذلك السبب وأشباهه؛ إذ الإعجاب لا يتوقف عند حد التقليد أو المعارضة للقصيدة في بحرها وقافيتها ورويها وغرضها فحسب، بل يدفع الإعجاب أيضًا إلى ألوان أدبية أخرى كان الإعجاب من بواعثها الهامة، مثل التضمين، والتشطير، والتخميس، والتسبيع، والتعشير، وفوق ذلك توفر للمثال الأول مجموعة أوقفوا بعض جهدهم ونشاطهم على شرحه وإبراز ما فيه من مكنون الدر، بعد أن أخرجه الخيال من أصدافه، كما قام بعض المعارضين بشرح قصائدهم، مما بعث النشاط بدرجة أكبر وأوفر، وبذلك يتضاعف النتاج الشعري والأدبي، وقد ساعدت المعارضة على ظهور كم كبير من الدواوين، وبخاصة عند هؤلاء الشعراء الذين أكثروا من المعارضة، إذ الإقبال على المعارضة هيأ لهم عددًا كبيرًا من القصائد شكل لحمة ديوان وسداه لكل واحدٍ منهم.

هذا في مجال الشعر أما في مجال النثر فقد رأينا كيف حرك (بديع الزمان الهمذاني) بمقاماته قريحة (الحريري)، فاندفع يعارضه ويحذو حذوه، فأبدعت ملكته اللغوية والأدبية ما أثار إعجاب علماء اللغة والنحو، لما أورد في مقاماته من رصين العبارة، وتفنن في التعبير، وشجع هذا الإعجاب أيضًا على وضع شروح مفصلة لهذه المقامات فتكونت أجيال متعاقبة من علماء اللغة والأدب.

هذه الشروح والموازنات لكل ما عورض من شأنه أن ينشط الحركة النقدية، ويمدها بالزيت الذي يشعل قنديلها، فتضيء للشعراء بعض المسارب المظلمة، فيرتادونها في ضوءٍ من الفكر الجيد، والتوجيه الرشيد.

وإني لأعتبر المعارضة من أقوى البواعث على تنشيط الحركة النقدية؛ لأن وجود أكثر عن نص شعري (ونثري) تشابه في البحر والقافية والروي والموضوع، هذا من شأنه أن يحرك النقاد، ويلهب فيهم القرائح، وتغلبهم الرغبة في الموازنة بين النصوص، وإظهار أقواها تعبيرًا وأعمقها معنى، وأكثرها شفافية، وأسماها خيالاً، وأقدرها شاعرية.

ومن حسنات النقد في مجال المعارضة أن المنهج النقدي يكون أقرب إلى الصواب والصحة؛ لأن الموازنة بين شيئين وقع بينهما تشابه متعدد الجوانب، تقود الناقد إلى الطريق الأقوم؛ إذ أصح المناهج أن يكون تمييز الغث من السمين فيما تشابهت فيه بعض الأمور فتتجلى جوانب التوفيق سافرة عند هذا وجوانب الإخفاق عند ذاك، أما الموازنة بين شاعرين فيما ليس فيه تشابه فهي عرضة للتجني والحكم غير الدقيق.

هذا المنهج اختاره الآمدي قديمًا حين وازن بين ((أبي تمام)) و((البحتري)) فقال: ((ولكني أوزان بين قصيدتين من شعرهما إذا اتفقتا في الوزن والقافية وإعراب القافية، وبين معنى

ومعنى فأقول: أيهما أشعر في تلك القصيدة، وفي ذلك المعنى))[105] وفي العصر الحديث فضل الدكتور (زكي مبارك) ذلك المنهج أيضًا، وذلك حينما شرع في الموازنة بين الحصري وشوقي [106]، واعتبر الموازنة بين القصائد المشهورة التي جرت مجرى المعارضة والمماثلة، اعتبر الموازنة سبقًا منه لم يسلكه أحدٌ من قبل، وذهب إلى أن هذا المنهج له أهمية كبيرة ((لأنه سيمكننا من دراسة عرائس الشعر دراسة منظمة دقيقة، وسيرينا كيف تتصاول العقول، وكيف تتسابق القرائح، إذا كانت معارضة الشاعر للشاعر نوعًا من السباق في عالم البيان)).
والإعجاب بالمعارضة لم يتوقف على العرب الأقحاح، بل وجدنا بعض شعراء الفرس يعارضون الشعراء العرب، ومن هؤلاء الشعراء: أنور الفارسي الذي تأثر كثيرًا بشعر الأخطل التغلبي، وبشعر جرير، والأعشى، وحسان بن ثابت، والبحتري، وأبي نواس، كما عارض العماد الأصبهاني أبا تمام، وذلك في قصيدته في ((شيركوه)) حين غلب على الوزراء في مصر، وأول هذه القصيدة قوله:

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب		كم راحة جنيت من دوحة التعب

أما قصيدة أبي تمام فكانت في مدح الخليفة المعتصم، وأولها قوله:

السيف أصدق أنباء من الكتب		في حده الحد بين الجد واللعب[107]

فإذا كانت نباهة الشعراء المعارضين قد طار صيتها في بلاد العرب، وتعداها إلى بلادٍ غير عربية، فإن للشاعر المعارض من ذلك نصيب قد يكون موفورًا، وقد يكون محددًا، المهم له من بعد الصيت نصيب، ودخول مثل هؤلاء الشعراء ميدان المعارضة يمكن له من تكوين ملكة تستطيع بعد التدريب والاحتكاك أن تبدع، فيصير نتاجها نموذجًا أول، بعد أن كان هذا الشاعر يقف أمام نموذج غيره بكل خشوع وتقدير.
هذا عن الجانب الإيجابي في المعارضات، أما عن الجانب السلبي منها فيبدو في التقوقع داخل فكر الشاعر الأول وخياله والسطو على معانيه وإعادة صياغتها دون أن يكون له جهد في إعادة الصياغة برؤية جديدة وعرض جديد، وقد تمتد لمحاكاة استخدام بعض ألفاظ الشاعر الأول، حينئذٍ نرى الشاعر قد تعطلت فيه لغة الكلام والفكر والإبداع.
هذه النماذج الهابطة نلمسها لدى الشعراء الذين حرموا الموهبة الفذة الخلاقة، وتوفرت لديهم شهوة الذيوع والانتشار مهما كان ذلك على حساب سمعته وكرامته الأدبية، كما نلمح تلك

---

[105] الموازنة بين أبي تمام والبحتري ص11.
[106] الموازنة بين الشعراء ص114.
[107] تاريخ المعارضات في الشعر العربي ص25.

النماذج الهابطة في فترات الضعف الأدبي وبخاصة في العصرين المملوكي والعثماني؛ لأن محاذاة الحافر للحافر في المعارضات يئد الروح الشعرية المتوهجة، وتجعل المقلد يدور في فلك من قلده، ولذلك فإن الشعراء الذين مدحوا ((صلاح الدين الأيوبي)) أو ((نور الدين محمود)) أو ((الظاهر بيبرس)) ((لم يخلدوا ممدوحيهم كتخليد المتنبي لسيف الدولة الحمداني أو كتخليد أبي تمام للمعتصم، أو علي بن الجهم للمتوكل أو غيرهم)) [108].

ومن الآثار السلبية أيضًا ما قد يصاب به الشاعر الأول من غرور حينما يرى إقبال الشعراء على الاحتذاء به ومحاكاته في أعماله الشعرية، هذا الغرور قد يقتل فيه الأصالة الفنية، ومواصلة الإبداع والابتكار، وتجعله يقف عند حدود ما وصل إليه من نجاح وتفوق، ولئن ندر وجود هذا النوع من الشعراء إلا أن وجوده قائم الاحتمال؛ إذ المتوقع من مثل هذا الشاعر أن يدفعه الإعجاب به إلى إضافة الجديد في مجال الفكر والخيال معًا.

الفصل الثامن

أشهر قصائد النموذج الأول

أعني بالنموذج الأول هو القصيدة التي أعجب بها الشعراء فعارضوها، وأشهر هذه القصائد بردة ((كعب بن زهير)):

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول		متيم أثرها لم يفد مكبول
وبردة ((البوصيري)):		
أمن تذكر جيران بذي سلم		مزجت دمعًا جرى من مقلة بدم
ومقصورة ((ابن دريد)) التي يقال إن مطلعها:		
يا ظبية أشبه شيء بالمها		ترعى الخزامى بين أشجار النقا
وقصيدة (يا ليل الصب) ((لأبي الحسن الحصري)) ومطلعها:		
ياليل الصب متى غده		أقيام الساعة موعده

ولأني سأتجنب تناول هذه القصائد بالعرض والتحليل -لأنها قتلت شرحًا- فلا أقل من أن ألقي بعض الضوء عليها، أزيد به من مساحة الهالة التي تكلل تلك القصائد الخالدة.

أولاً: بردة كعب:

أنشأ ((كعب بن زهير)) قصيدته: ((بانت سعاد)) ليمدح الرسول صلى الله عليه وسلم بها، ويعتذر فيها عما بدر منه ضد الإسلام والمسلمين، مما حدا بالرسول صلى الله عليه وسلم أن

---

(108) تاريخ المعارضات في الشعر العربي ص 33.

يهدر دمه، فجاءه تائبًا معتذرًا، وقد ظهر ((كعب)) في بردته مخلصًا في توبته، وقد أقدرته شاعريته على صياغة ممتازة حركت أريحية الرسول فخلع عليه بردته الشريفة، فسميت القصيدة ((بالبردة)) من أجل ذلك، علمًا بأن ((كعبًا)) لم يكن بأقل عداوة للإسلام والمسلمين من ((النضر ابن الحارث)) ولكنها حرارة الإيمان الصادق.

ولكن هل هذه البردة هي أول القصائد في مدح الرسول عليه السلام؟

الحقيقة تقول: إن ((كعبًا)) سبق بقصيدة الأعشى التي مدح فيها الرسول وأراد أن ينشدها بين يديه وهو يعلن إسلامه، إلا أن قريشًا اعترضت طريقة وأغرته بمائة ناقة إن هو رجع عن نيته وقفل إلى ((منفوحة)) مسقط رأسه، وإذا لم يرجع عن نيته فله أن يؤجل إسلامه ولو عامًا، خوفًا من أن يكون لشعره تأثير قوي في النفوس فيزداد به أتباع الرسول عليه السلام؛ لأن لقوة تأثير شعره سابقة أخافتهم من أن يتركوه لشأنه فيقع ما يكرهون، تلك السابقة تحكيها قصة ((المحلق)) الذي بارت بناته الثمان، فلما مدحه الأعشى لم يبق منهن واحدة إلا وهي في عصمة ابن سيدٍ من سادات العرب، وقصيدة الأعشى التي نظمها مدحًا للرسول صلى الله عليه وسلم يقول مطلعها:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا		وعادك ما عاد السليم المسهدا
وفيها يقول:		
نبي يرى ما لا ترون وإنه		أغار لعمري في البلاد وأنجدا

ولقد مُدح الرسول أيضًا من ((حسان بن ثابت)) والكميت وغيرهما، إلا أن قصائد المدح هذه لم تحظ بالتخليد مثلما حظيت لامية ((كعب)):

((بانت سعاد)) لما فيها من بلاغة عربية أصيلة، ولذلك التشريف الذي خلعته بردة الرسول عليه، مما حدا ((بمعاوية)) أن يشتريها منه بأربعين ألف درهم، ويتداولها الخلفاء الواحد بعد الأخر تبركًا وحبًا، ويقبل المسلمون عليها بالحفظ والرواية والشرح والتشطير والتخميس والمعارضة حتى قال عنها ((بروكلمان)): ((إنها ألبست كعبًا حلة مجد لا يبلى)) [109].

ولم تحظ قصيدة لمخضرم مثلما حظيت تلك القصدة: ((حتى النصارى عنوا بها وبمعارضتها، وليس ببعيدٍ عنا ما أوردناه من معارضة الأخطل لها وهو شلعر نصراني، لا يفصله عن عصر كعب إلا سنواتٍ معدودةٍ))[110].

الأخطل هذا لم يكفه أن يعارض كعبًا مرةً واحدةً، بل عارضه بقصيدةٍ أخرى اختلف حرف الروي فيها، منها قوله:

---

[109] ، 2) المعارضات في الشعر العربي ص160.

بانـــت ســـعاد ففـــي العينـــين تســـهيد		واســـتحقبت لبـــه فالقلـــب معمـــود
وعارضها مرة أخرى في اللفظ والأسلوب والوزن والقافية فقال:		
بانـــت ســـعاد ففـــي العينـــين ملمـــول		من حبها وصحيح الجسـم مخبـول[111]

هذه الشهرة لبردة (كعب)، ومعرضتها في عصر قريب منها، وقصة بردة الرسول التـي لـم يشكك فيها مؤرخ، كل ذلك يؤكد صدورها عن صاحبها فعلاً، وأنها ليست منحولة موضـوعة كما ادعى بعض المستشرقين، وروج لذلك (سعدى أبو حبيب في مجلة الإديب البيروتية عـدد أبريل 1971م).

تلك الشهرة لبردة كعب لم تقف عند حدود الوطن العربي والإسلامي، بل تجاوزت ذلـك إلـى آفـاق العالمية، (فقد ترجمها إلى الفرنسية المسيو (رنيه باسيه) كما اهتم بها الدكتور (ر. و) حيث أولى عناية خاصة بترجمة حاشية الباجوري إلى الفرنسية) [112].

ثانيًا: بردة البوصيري:

تعتبر بردة البوصيري النواة الأولى لفن المدائح النبوية؛ لأن المدح الذي صدر قبلها علـى لسـان الأعشى، وحسان، والكميت جرى على سنن المدح الذي كان سائغًا في تلك الفتـرة؛ إذ ((المـدائح النبوية امتزجت منذ مطلعها بالمنافرات على طريقة الجاهليين، كتلك التي نشـهدها فـي قصـيدة الأعشى التي عملها في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم كقصائد شعراء الرسول الذين كانوا يردون بها على شعراء الكفار في أول الدعوة الإسلامية، والتي يمكن عد ذلك النوع مـن الشـعر ضمن سلسلة شعر النقائض))[113].

(أما المدائح النبوية فتمتاز بعد شمائل النبي وسرد ما في الرسالة من المحاسن الباقية، ودفع ما وصم به الرسول من النقائص والعيوب، وهي فوق هذا كله تقال وتُنشد تقربًا إلى الله، وهـي عند الصوفية من جملة الأوراد)[114].

ولأنها تقوم بسرد محاسن الرسول وشمائله وأعماله الخالدة فقد طالت حتى بلغت مائة وسـتين بيتًا، في حين بلغت بردة (كعب) ستين بيتًا فقط.

ولقد كانت للبوصيري قصائد مديح قبل البردة، وكان بعضها قد نظمه استجابة لرغبة الصاحب (زين الدين يعقوب بن الوزير)، أما البردة فقد اندفع إلى نظمها استجابة لفكرة طارئة أوحـى

---

[111]) المرجع السابق ص62.(

[112]) تاريخ المعارضات في الشعر العربي ص161.(

[113]) المرجع السابق ص162.(

[114]) الموازنة بين الشعراء ص185.(

بها مرضه بالفالج حتى أبطل نصف جسمه، والإنسان في حال الضيق يهرع إلى ربه ويتقرب إليه بما يستشفع به، أملاً في تقبل دعواه، وهكذا كان البوصيري، فقد نظم القصيدة وتقرب بها إلى الله عله يعافيه من مرضه، وكرر الإنشاد والدعاء والتوسل، ثم رأى الرسول في منامه يمسح على وجهه بيده المباركة وألقى عليه بردته، فلما انتبه وجد في نفسه نهضة، جعلته يستطيع المشي ومغادرة المنزل –ولم يكن أعلم أحدًا بذلك– فلقيه في الطريق أحد الفقراء وطلب إليه أن يعطيه القصيدة التي مدح بها الرسول، ولما كانت قصائده في المدح كثيرة سأله عن أيها يريد؟ فقال الفقير التي أنشأتها في مرضك –وذكر له مطلعها– وأقسم له أنه سمعها البارحة وهي تنشد بين يدي الرسول ما بين إعجاب وتمايل، وألقى على من أنشدها بردة، فما كان من البوصيري إلا أن أعطاه القصيدة.

قلت: إن البوصيري كانت له مدائح نبوية سوى البردة؛ لأنه كان مولعًا بهذا اللون من الشعر فكان هذا المجال سجالاً بينه وبين غيره من الشعراء، دفعه إليه شغفه في أن يكون السابق دائمًا، أو الحائز الوحيد لحب الرسول وآل بيته: (ولقد أفصح البوصيري رضي الله عنه في همزيته عن غرامه بمساجلة شعراء المدائح النبوية، وبغيرته منهم أن يسبقوه إلى نور الحضرة النبوية، أو يزاحموه في أضوائها وتجلياتها، يقول لرسول الله:

حق لي فيك أن أساجل قومًا		سلمت منهم لدلوي الدلاء
إن لي غيرةً وقد زاحمتني		في معاني مديحك الشعراء
ولقلبي فيك الغلو وإني		للساني في مدحك الغلواء [115]

هذه القصة –قصة إنشاء البردة– شاعت، وعرفها العامة والخاصة، ولكن الذين يحتكمون إلى العقل وحده يرفضونها معتقدين أن المرض العضوي لا يفيد في شفائه إلا العقاقير الطبية، وكان الدكتور ((زكي مبارك)) من هؤلاء المتشككين، ونسي هو وغيره قول الله تعالى: **{وإذا مرضت فهو يشفين}**، فلم يحدد وسيلة الشفاء؛ لأنه على كل شيءٍ قدير.

ولعل عذر الدكتور (زكي مبارك) في ذلك أن (البوصيري) وإن كان تقيًا نقيًا، إلا أن بسطاء الصوفية يدخلون على الدين ما ليس منه، ويستغلون الرؤى الصادقة وينسجون على منوالها بعد التزيد والمبالغة، مما يسيء إلى الدين وهو من ذلك براء.

وأبلغ رد على هذا التشكيك تراجع الدكتور (زكي مبارك) عما صدر عنه من إنكار: حيث قال: (كذلك قلنا في كتاب الموازنة بين الشعراء –يقصد التشكيك في صحة القصة– ونرى الآن أن البوصيري صادق في رؤياه؛ لأن قوة الإيمان تؤثر أبلغ التأثير على الجسم، ولا سيما

---

(115) من المدائح النبوية جـ2 ص5.

إذا تذكرنا أنه لم يزد على أن قال: إنه وجد في جسمه نهضة، وذلك أقل مـــا ينتظـــر لرجـــل مؤمن يرى الرسول صلى الله عليه وسلم في المنام، ويسمع منه كلمات التشجيع)[116].

هذه البردة بلغت مبلغًا عظيمًا في النفوس لدرجة أن (كانت جزءًا من الهدية التي قـــدمها ابـــن خلدون إلى تيمورلنك، ولهذه الهدية قيمتها في تقدير الحياة العقلية عند المتقدمين)[117]، وكانت المجالس الدينية تحف بالبردة إنشادًا وقراءةً، كما كان لها حظ وافر من التوقير فـــي مجـــالس الصوفية، وفي الاحتفالات بالمولد النبوي الشريف.

ولما كان البحر البسيط الذي نظم فيه البوصيري بردته يتميز بنغمة موسيقية حالمـــة مـــؤثرة: (كان في إيثاره النظم عليه ذكيًا لماحًا، فسار الفن وصار، وشاع وذاع) [118]، ولأن الله تعـــالى أودع سرًا خفيًا في هذه البردة، فإن قصيدة من القصائد لم تلق هذا الاهتمام والتقدير، إذ أكـــب عليها عددٌ كبيرٌ من الشعراء يعارضون ويشرحون ويضمنون ويشطرون ويخمسون ويسبعون ويعشرون، حتى أصبح الحصر لهم عسيرًا يقول الدكتور (محمد بن سعد بـــن حســـين) فـــي محاولة الحصر للمعارضين فقط: (أحصيت في بحث لي مخطوط ما ينيف على مائة معارضة للبردة، وما أحسبني حصرت إلا القليل)[119]:

أما التخميس فيقول عنه الدكتور ((زكي مبارك)): (إن فهرس مخمسات البردة يشغل خمـــس صفحات من فهرس الأدب بدار الكتب المصرية) [120].

ويحصر منه خمسها بستة وتسعين.

ثالثًا: يا ليل الصب للحصري:

الحصري: هو (أبو الحسن علي بن عبد الغني الفهري المقرئ الضـــرير القيروانـــي، ولقـــب بالحصري –بسكون الصاد– إما نسبة إلى الحصر التي تفرش أو إلى قرية قديمة بالقرب مـــن القيروان، وهو ابن خالة أبي إسحق الحصري صاحب كتاب زهر الآداب، انتقل إلى ألأنـــدلس بعد خراب وطنه من القيروان وكان للأدب آنذاك فـــي تلـــك الأصـــقاع ســـن ونـــاب ورواد ومتذوقون:

(فتهاداه ملوك الطوائف تهادي الرياض بالنسيم، وتنافسوا فيه تنافس الديار بالأنس المقيم)[121].

---

[116]) المعارضات في الشعر العربي ص181.(

[117]) الموازنة بين الشعراء ص 188.(

[118]) من المدائح النبوية جـــ2 ص6.(

[119]) المعارضات في الشعر العربي ص 182 (هامش).(

[120]) المعارضات في الشعر العربي ص 193.(

ولكن الإقامة لم تطب له هناك فانتقل إلى مدينة طنجة بعد خلع ملوك الطوائف الذين احتمل من أجلهم على مضض فترة من الزمان.

تفنن (الحصري) في داليته، فأتى فيها بالعجب العجاب، والسحر الرائق، فعبيره ما بين سهل ممتع، وسلاسة رقيقة، وعذوبة لطيفة، وجمال آسر، وإشراق أخاذ، تتراقص عباراتها على الشفاه، وترن موسيقاها في كل الآذان، من هنا جرت على كل لسان، وتلقفها المغنون، ووعتها الصدور، ورقصت على نغماتها القلوب، واحتفى بها الشعراء يعارضون أيضًا ويضمنون، ويشطرون، ويخمسون، ويسبعون، ويعشرون، وهي في بابها لم تحظ قصيدة مثلها بالعناية والاهتمام والإعجاب.

الدالية هذه مدحية (لأبي عبد الرحمن محمد)، ولكن الحصري بدأها بالنسيب وأطال، فأبدع وأمتع.

ولرشاقة البحر وسلاسة القافية وجلال الموضوع فقد عارضها عدد كبير من الشعراء (فلقد نيفت معارضات يا ليل الصب على أربعين)[122] أجملها على الإطلاق معارضة (أحمد شوقي) لها.

وهذه نماذج من معارضتها في العصر الحديث بخاصة[123].

يقول ((شوقي)):

مضناك جفاه مرقده		وبكاه ورحم عوده
حيران القلب معذبه		مقروح الجفن مسهده
ويقول ((أبو القاسم الشابي)):		
غناه الأمس وأطرابه		وشجاه اليوم فما غده
قد كان له قلب كالطفل		يد الأحلام تهدهده
ويقول ((محمود بيرم التونسي)) وهو يمدح الرسول عليه السلام في قصيدة بعنوان ((مولد محمد)):		
اليوم الأسعد مولده		مصباح الدهر وسيده
البدر الباهر مطلعه		والبحر السائغ مورده

---

(121) الموازنة بين الشعراء ص 115.

(122) المعارضات في الشعر العربي ص240.

(123) هذه النماذج عن كتاب المعارضات في الشعر العربي ما بين صفحة 244 إلى صفحة 251.

<table dir="rtl">
<tr><td>شـــــهد الإنجيـــــل بمبعثــــــه</td><td></td><td>وعـــــن التـــــوراة يـــــردده</td></tr>
<tr><td colspan="3">ويقول ((إسماعيل صبري)):</td></tr>
<tr><td>أقريـــب مـــن دنـــف غـــده</td><td></td><td>فالليـــل تمـــرد أســـوده</td></tr>
<tr><td>والتفـــت تحـــت عباءتـــه</td><td></td><td>بـــيض فـــي الحـــي تأيـــده</td></tr>
<tr><td colspan="3">وتقول ((أمينة عباس)):</td></tr>
<tr><td>يـــا فـــرد الحســـن وأوحـــده</td><td></td><td>هـــل أنـــت لقلبـــي مســـعده</td></tr>
<tr><td>هـــل طـــال الشـــوق ولـــم ينفـــد</td><td></td><td>فـــي قلبـــي معنـــى أنشـــده</td></tr>
<tr><td colspan="3">ويقول ((بشارة الخوري)):</td></tr>
<tr><td>الـــنجم بثغـــرك أرصـــده</td><td></td><td>والليـــل بشـــعرك أعبـــده</td></tr>
<tr><td>والظبـــي لجيـــدك أعلقـــه</td><td></td><td>ولعينـــك لا أتصـــيده</td></tr>
<tr><td>يـــا أخـــت البـــدر وذا شـــرفٍ</td><td></td><td>لأخيـــك فمـــن لا يحســـده</td></tr>
<tr><td colspan="3">ويقول الأمير ((شكيب أرسلان)):</td></tr>
<tr><td>مضـــناك عصـــاه تجلـــده</td><td></td><td>هـــل أنـــت بعطفـــك منجـــده؟</td></tr>
<tr><td>منهـــوك الجســـم بـــه كمـــد</td><td></td><td>أنحـــاء الأضـــلع مرقـــده</td></tr>
<tr><td colspan="3">ويقول ((قيصر المعلوف)):</td></tr>
<tr><td>هـــل كوكـــب حســـن نرصـــده</td><td></td><td>والليـــل جفـــاه نـــوى غـــده</td></tr>
<tr><td>يـــا بـــدر عشـــقتك مـــن زمـــن</td><td></td><td>والعشـــق الألفـــة توجـــده</td></tr>
<tr><td colspan="3">ويقول ((فوزي المعلوف)):</td></tr>
<tr><td>هـــل ســـيل يهـــدر جارفـــه</td><td></td><td>أو بحـــر يزخـــر مزبـــده</td></tr>
<tr><td>أم وحـــل يغطـــس عـــابره</td><td></td><td>للـــراس ومـــا مـــن ينجـــده</td></tr>
<tr><td colspan="3">ويقول: ((جميل صدقي الزهاوي)):</td></tr>
<tr><td>لـــي عنـــدك حـــق أنشـــده</td><td></td><td>أتقـــر بـــه أم تجحـــده</td></tr>
</table>

رابعًا – مقصورة ((ابن دريد))[124]:

ولد الإمام أبو بكر محمد بن الحسين بن دريد الأزدي بالبصرة، وتوفي في بغداد، أعجب بـه ((عبد الله الميكالي))، فأسند إليه تأديب ابنه ((أبي إسحق –أو أبي العباس– إسماعيل، وقلده ديوان فارس، فهو إذن ربيب نعمته، وقد دفعه الوفاء ((لعبد الله)) وابنه أن كتب لهما كتاب ((الجمهرة)) ومدحهما بالقصيدة المشهورة ((بالمقصورة)) في مائتين وثلاثة وخمسين بيتًا ولتمكنه من اللغة والأدب، وعلم الأنساب والفقه وكثير من العلوم والفنون، فقد اشتهر بين قومه بشاعر العلماء، وعالم الشعراء، فلا عجب أن يأتي بالمعجب الرائق في هذه المقصورة ((لما حوته من بديع الصنعة، وبليغ القول، وبالغ الحكمة، والموعظة، وطريف الاستعارة، ودقيق التشبيه، وما تضمنته من إشارات تاريخية، وعبر وتجارب كانت خلاصة حياة ابن دريد المديدة، التي خبر فيها الحياة والناس،..... فلا عجب أن كثر طلابها، وتكاثر خطابها، وتباري الشعراء في الاحتفاء بها، والاحتذاء لها، وحتى جاوزت شروحها خمسة وثلاثين شرحًا))[125].

واشتهار القصيدة هذا يبادر للأذهان بأن ((ابن دريد)) هو المبتكر الأول للمقصورات الشعرية، ولكن الدكتور ((مهدي علام)) يرد الابتكار الأول إلى ((أبي المقاتل نصر بن نصير الحلواني)) الذي أنشأ قصيدةً مقصورة الروي في مدح محمد بن زيد الداعي الحسني بطبرستان والتي منها قوله:

قفا خليلي على تلك الربى		سائلاها أين هاتيك الدمى
أين اللواتي ريعت ربوعها		عليك باستخبارها تشفي الجوى[126]

وقد اشتهرت مقصورة ((ابن دريد)) بالمطلع الآتي:

يا ظبية أشبه شيء بالمها		ترعى الخزامى بين أشجار النوى

ولكن الدكتور ((محمد محمود قاسم نوفل)) [127] يرى أن هذا المطلع ضمن قصيدة ((ابن الأنباري)) التي يقول في بعضها:

---

[124]) سميت بالمقصورة لأن حرف الروي فيها ألف مقصورة.

[125]) المعارضات في الشعر العربي ص 216.

[126]) تاريخ المعارضات في الشعر العربي ص 169.

[127]) المرجع السابق ص 170.

شرد عن عينـــي الكـــرى طيــف ســـرى		عن أم عمـــرو فـــي غياهيــب الـــدجى

في حين يرى الدكتور (محمد بن سعد بن حسين) [128] أن هذا المطلع وعشرة أبيـــات أخـــرى (تكلفها الكمال بن الأنباري)، ورأى أن التكلف ظاهر فيها، والتمحل والانتحال فيها أوضح من أن يحتاج إلى دليل.

ويبدو أن الحق مع الدكتور (محمد بن سعد) فلو قرأنا الأبيات التي يراها منحولة لو جدنا فيها هذا البيت:

ياظبيـــــة أشـــــبه شـــــيء بالمهـــــا		رائعـــــة بـــــين الهشـــــيم والحشـــــا

ولعل الدكتور (محمد نوفل) نظر إلى الشطرة الأولى، ثم أكمل البيت من الذاكرة ولكـــن مـــاذا نقول للدكتور محمد بن سعد وهو يرى انتحال مجموعة من الأبيات على ابن دريد منها هـــذا البيت:

أمـــا تـــرى رأســـي حـــاكي لونـــه		طـــرة صـــبح تحـــت أذيـــال الـــدجى

ثم نراه يذكره منسوبًا إلى (ابن دريد) وهو يستعرض نماذج من المقصورة[129] ثم يورده مرة أخرى على أنه مطلع مزعوم لم يشر إلى صاحبه. كان لاشتهار مقصورة، (ابن دريد) أثر في أن أنسى الناس مقصورات أخرى على جانب كبير من الجمال، ولكن جمال مقصـــورة (ابـــن دريد) طغى على جميع المقصورات الأخرى بدليل تزاحم الشعراء والأدباء على معارضـــتها وشرحها، والكتابة حولها على نحو ما ذكرت آنفًا.

من هذه المقصورات التي تخلفت عن ركب الشهرة (مقصورات شعرية للشـــاعر الســـموأل، وورقة بن نوفل، وحنظلة بن أبي عفراء، كما ينسب شعر ينتهي بالألف المقصورة إلى ليلـــى العفيفة، حيث أرسلت قصيدتها ذات الروي المقصور إلى قومها وهي أسيرة، وأولها قولها:

ليـــــت للبـــــراق عينـًــــا فتـــــرى		مـــا ألاقـــي مـــن بـــلاء وعنـــا[130]

(وهناك مقصورة لابن ورقاء مطلعها:

ما شـــئت قـــل هـــي المهـــا هـــي القنـــا		جـــواهر بكـــين أعطـــاف الـــدمى)[131]

هذا وإن الإعجاب بالمقصورة دفع ببعض المعارضين إلى أن ينظم معارضته في أكثـــر مـــن ألف بيتٍ كما حدث من ((ابن حازم الأندلسي)) على نحو ما سبق ذكره في أطول المعارضات

---

[128] المعارضات في الشعر العربي ص 217.

[129] المرجع السابق ص 218، ص219.

[130] تاريخ المعارضات في الشعر العربي ص 169.

[131] المرجع السابق 170.

وهو طول لم يحدث لما هو أشهر منها وأعظم، ولعل هذا الإعجاب دفع إلى ترجمتها إلى بعض اللغات الأجنبية[132].

---

[132] المعارضات في الشعر العربي ص 235.

الباب الثاني
المعارضة والفن

الفصل الأول
في ظلال البردة

بين ((أحمد محفوظ)) و ((ميشيل الله ويردي))

في ظلال البردة

تيمنًا: سأبدأ هذا الباب وفصله والأول بعرض وتحليل قصيدتين من قصائد الشـــعر الحـــديث عرضتا بردة ((البوصيري)) وأقول تيمنًا؛ لأن ترتبهما الزمني الذي سأسلكه مع بقية القصـــائد

–إن شاء الله– يجعلها في نهايات الباب، خاصة وأن النموذج الأول –وهو بردة البوصيري– لن أتعرض له بالشرح والتحليل، نظرًا لأن كثيرين غيري قاموا بتلك المهمة، فلا داعي للتكرار.

ومبلغ علمي أن قصيدتي المعارضة في هذا الباب لم يتناولها أحد بالشرح والتحليل والموازنة على نحو ما سأقوم به –بعون الله– والله نسأله العون والتأييد.

أولاً: بردة محفوظ

يقول الشاعر ((أحمد محفوظ)) في تقديمه لبردته: إن الذي أشار عليه بعمل هذه البردة هو صديقه الحبيب الدكتور ((فهيم جرجس عبد الشهيد))، وقد أشفق على نفسه من اقتحام هذا العمل والتصدي له، خصوصًا وأن ثلاثة من فحول الشعراء رادوا هذا الطريق، وهم: ((البوصيري)) –النموذج الأول– ثم ((البارودي)) و((شوقي)) ومع ذلك فقد امتلأ حماسة وتحفزًا؛ لأنه رأى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم لا يخلق الحديث فيه على كثرته، ومرور أزمان سحيقة عليه، فأقدم على استحياء، وفي تواضعٍ، وقدم هذا العمل راجيًا به شفاعة الرسول له، طالبًا إلى أهله أن يجعلوا منظومته هذه معه في قبره.

وقد شاركت الشاعر في هذا الثواب الجزيل –إن شاء الله– السيدة الكاتبة ((فائقة حسين راغب)) حرم ((رفيق فتحي)) بأن طبعت القصيدة على نفقتها، صدقة على روح ابنها لما علمت أن الشاعر أراد أن تكون أولى طبعاتها وقفًا على أوجه الخير والبر والمثوبة.

أما القصيدة –وقد بلغت مائتين واثني عشر بيتًا– فقد بدأها الشاعر بالنسيب، فأرانا كيف تشعب قلبه وفطره الحزن الشديد والألم المبرح، وقد أفصح شوقه، وضرام النار في قلبه عن صبابته بمحبوبته الحسناء التي غدرت به حتى تمكن المرض من جسمه، وهي التي تبتسم الدنيا لابتسامها، وتظلم إذا عبست، هذه الفتاة لشدة جمالها وجد نفسه قد وقع في شراك حبها يوم أن رآها قد مرت عليه بشط النيل، فقدم نفسه قربانًا لحبها غير نادم على ما فعل، وسلمها مقاليد قلبه دون أن تسأله ذلك، لكنها صدت عنه، فأخذ يلوم نفسه على ما فعل لومًا فيه لوعة وأسى، لحرمانه من الاستمتاع بمحبوبته:

قلب تقسم بين البث والألم		بادي الصبابة من شوق ومن ضرم
ما زال يخفق في حسناء غادرة		حتى استجاب إلى الأدواء والسقم

تبـــدو الحيـــاة ضـــياء كلمـــا ابتســـمت		وقـــل ذاك فمـــا حظـــي ســـوى الظلـــم
علقتهـــا يـــوم شـــط النيـــل ســـانحة		فبعتهـــا الـــنفس لا ألـــوي علـــى نـــدم
أســـلمتها القلـــب لـــم تســـأل قيادتـــه		أنـــا الملـــوم ولا الصـــد لـــم ألـــم

ولأن المحبوبة شكت في غرام الشاعر، فقد شهرت سلاحها –وسلاح النساء جميعًـا البتـار– وأخذت تكيد له لتستخرج بقايا ما في قلبه من حب مكتوم، وسلكت إلى ذلك سبيل التعلق بالغير وإهمال محبوبها، وكان التعلق والإهمال بالنظر، فتساءل مستنكرًا؛ لأن شوقه عظيم لا يخفـى على أحد. ولكن فتاته شغفت بالكيد –شأنها شأن جميع النساء– حتى صار الكيد مـن صـميم سلوك المرأة وأخلاقها، ولا أدل على ذلك مما فعلنه قديمًا مع ((يوسف)) عليه السلام، وقصـه القرآن الكريم. ولأن ذكرى الرسول قد عرضت ترى الشاعر يلوم نفسه لانشغاله بهواه، وقـد حرم الخير كله فترة هذا اللهو، حيث كان بعيدًا عن دائرة القدس الطهور:

راحـــت تكايـــدني مـــن بعـــدما علمـــت		وهـــم المحـــب ودفـــع الشـــك والـــتهم
ترنـــو لغيـــري وترمينـــي بمقلتهـــا		لتســـتبين بـــوحي حـــب مكتـــتم
وهـــل يعـــوز غرامـــي مكـــرٍ مـــا كـــرة		لكـــي يبـــين وهـــذا الشـــوق كـــالعلم؟
تجـــري النســـاء علـــى كيـــد شـــغفن بـــه		حتى غدا مـــن صـــميم الخلـــق والشـــيم
جـــذبن مـــن يوســـف الصـــديق مئـــزره		ورحن ينسجن قـــول الـــزور فـــي كلـــم
مالي شغلت بمن أهوى وقد عرضت		ذكرى الرســـول وخيـــر النـــاس كلهـــم

ولأن الشاعر قد أعاد نفسه إلى حظيرة الدين، فقد راح يقدم الموعظة الحسنة، ويحذر من الدنيا التي أجهدته بفتنتها، ولذلك فقد اتخذ من ذكرى الرسول عليه السلام وكرمه راحة تنفس عنـه كرب النفس وتخفف حر الفؤاد، ويمد الناس بخبرته بالدنيا، وأنها تسلب عقول الناس وتغريهم بمفاتنها، ولغباء كثرتهم فقد خدعوا في هذا البريق، ولم يتبينوا أن المفاتن شرك تصيدهم بـه؛ لأن وصلها وصفاءها وإخلاصها، كل ذلك بعيد بعد النجوم. والطيور التي لا تبني أعشاشها إلا في قمم الجبال. ولأن الدنيا من طبعها الغدر والخيانة، فإنها لا تبقي على أحـد، مهمـا كـان مخلصًا لها في حبه، ولا تكتفي بتركه لحاله، وإنما تلفظه لفظ الطعام الـذي ترفضـه معـدة المريض، وكأن الإخلاص لها جريمة، فهي تعاقبه على إخلاصـه وتفانيـة بإذلالـه وإنـزال الأمراض به.

إنـــي تعبـــت مـــن الـــدنيا وفتنتهـــا		فجئت أســتروح الراحـــات فـــي الكـــرم
مالـــت علـــى النـــاس تسـبيهم وتفتـــنهم		بحســـنها وبريـــق الحلـــي والعصـــم
هام الغبي بها وانساق منطلقًا		ووصـــلها معقـــل العيـــوق والـــرخم
تلـــوك كـــل محـــبٍ ثـــم تلفظـــه		كأنـــه مضـــغة الممعـــود والبشـــم
تســـومه الـــذل والآفـــات قائلـــةً		لولا الهيـام ولـولا الحـب لـم تسـم

ويمضي الشاعر في تقديم الأدلة الدامغة على غدر الدنيا وقوتها الخارقة التي تقضي بها علـى أصلب الأشياء وأقواها تماسكًا، ويضرب مثلاً على ذلك بصرح ((بلقيس)) مما يؤكد قضـاءها مستقبلاً على ما يماثله في الشموخ والعظمة، مثل المعبـد اليونـاني المعـروف (آكربـول) والأهرام.

هذه الدنيا تتمثل في صور شتى حتى تستطيع النفاذ إلى أهدافها القائلة، والشاعر هنـا يجعلهـا تتخذ من شكلها شركًا، فهي تعتمد على لونها الزهري –من أبيضٍ وأسودٍ– فـي الاصـطياد، وتفرغ سمها في الملدوغ بأسنان سليمة.

كما تتمثل في صورة رحى تقضي على الناس وتجعلهم أثرًا بعد عـينٍ كمـا تفعـل الرحـى بالحبوب وهي تفرقها بابتسامها. ولكنها تسوى بين ضحاياها، فالكل في نظرها سواء، بـل ولا تعرف التمييز بين الأشياء، وتخلط الورد وهو مظنة المنفعة بالشوك وهو المضرة، كما تخلط مصدر الجمال –وهو الماس– بمصدر الاكتئاب –وهو الفحم– لما في لونه الأسود من نفـور، وهي لا تثبت على حال كما لا يثبت شعاع المرآة وهي في كف إنسـان يـداعب غيـره، ولا تتمسك بأحد، فالكل راحلٌ عنها، ولن يخلد فيها، فدقات ساعاتها تؤذن بالرحيل المحترم:

ألقت على الصرح مـن (بلقـيس) كلكلهـا		وسـوف يمضـي (بـأكربول) والهـرم
رقشـاء بـالزهر قـد غطـت قودحهـا		تبغـي السـليم بثغـر غيـر ذي ثـرم
رحـى تـدور علـى طحـن تفرقـه		حتـى يصـير هبـاء غيـرر ملتـئم
تبـدي النوجـذ حتـى عنـد بسـمتها		وتلحق الـذئب فـي الأحـداث بـالغنم
والورد فـي روضـها بالشـوك مشـتمل		والمـاس مخـتلط فيهـا مـع الفحـم
كـف تـداعب بـالمرآة أعيننـا		لا تسـتقر علـى وجـهٍ ولا أدم
وفنـدقٍ لا يحـل الزائـرون بـه		إلا إلـى أجـلٍ للبـث منصـرم

دقـــات ســـــاعتها تنبيـــك فـــي عجـــلٍ		أن المطي علـــى الأبـــواب فـــي اللجـــم

ولأن الشاعر خبر الدنيا –حلوها ومرها– فقد صارت مغرياتها لا تفتنه؛ لأنه اتخذ من غيـره دروسًا مستفادة، عندما كان يرى الدنيا تعانق واحدًا من الناس أوقعته في حبائلها، فكان يطلب لهذا الصب المتيم رحمة الله وهدايته، قبل أن تغدر به الدنيا أو تقاطعه، حينئذٍ ستكون عاقبتـه وخيمة:

تزينـــــت لعلـــــيم النـــــاس تفتنـــــه		بالمغريـــات فمـــا جـــازت علـــى فهـــم
فطالمـــــا كنـــــت ألقاهـــــا معانقـــــة		غيـــري فأســـمع منهـــا رنـــة الخـــدم
فمـــا رحمـــت ســـوى صـــب يهـــيم بهـــا		خوفًا من الغدر أو خوفًـــا مـــن الصـــرم

أما موقف الرسول عليه السلام من الدنيا ومغرياتها فهو موقف الحازم القوي المتعالي المتأبي المرفع، فكافحها بكل سلاح، بالرأي الثاقب، والسيف الصارم، وكشـف مغبـة الوقـوع فـي حبائلها، وقد سجلت الأقلام ألوان ذلك الكفاح وهو بهذا العمل الرائع أنقـذ صـحابته –وأنقـذ المنتصحين بالدين– من براثن الدنيا، بعد أن أغرتهم بأطايب الطعام، وبخاصة عندما كان يعز على المسلمين طلبه والحصول عليه.

وعلى النقيض نرى قريشاً تركع تحت قدميها، وتطلب ودها، فتعميهم عن الحق بما ران علـى قلوبهم من ضلال، وغشي عيونهم عن النور، وحجب عقولهم عن التفكير السديد، وقد خدعت قريش بمغريات الدنيا، فعضت عليها بالنواجذ والأنياب ظناً منها أنها تدوم:

قـــد طالمـــا جاهـــد الهـــادي فكافحهـــا		بـــالرأي والســـيف والتبيـــان والقلـــم
واســـتنقذ الخيـــرة الأطهـــار مـــن فمهـــا		وقـــد تحلـــب لـــلأزواد والطعـــم
ســـقت قريشًـــا بحلـــو الريـــق صـــافية		خمرًا فعضت علـــى الكاســـات بـــالأزم

لقد حققت الدنيا أقصى أمانيها، عندما ألقت بقريش في الدرك الأسفل من الفهم والتبصر فسلبت منها العقل والفهم الرشيد، وأسلمتها للتخبط والحيرة، والضلال المبين، فجعلتها تتصور العبادة الصحيحة في التقرب إلى حجر لا يضر ولا ينفع، وتعتقد فـي قدرتـه علـى الشـفاء مـن الأمراض، وأنها ستخلد في الدنيا ولن يلحقها فناء، وبذلك جعلت أقدامها ترسخ في قعر الكفر، مما أبعدهم بعد سحيقًا عن الإيمان الحق، كما نفثت فيهم روح الكراهيـة والبغضـاء والكبـر والتعالي حتى صار ذلك دستور تعاملهم، وقاموس حياتهم:

ضـــلت قـــريش علـــى عميـــاء مظلمـــة		في حومة الشرك تمشـــي مشـــي مـــرتطم

مالـــت إلـــى هبـــل ترجـــو عوارفـــه		وما رجاحـــة مـــن يرجـــو مـــن الصـــنم؟
يستخلصـــون صـــلاح الجســـم مـــن حجـــرٍ		
		ويبتغـــون خـــلاص الـــروح مـــن عـــدم
ستر من الجهـل دون الحـق يحجـبهم		عـــن اليقـــين وكفـــر ثابـــت القـــدم
لا يعرفـــون ســـوى البغضـــاء بيـــنهم		ونعـــرة تمـــلأ الآنـــاف بـــالورم

وإذا كانت الدنيا قد خلا لها الجو حتى انفردت بالناس ففعلت ما فعلت، فقد أذن الله للكـون أن يستنير بضياء الحق المبين، فكان أن حملت ((آمنة بنت هب)) بنور الأرض وخيرهـا، وقـد تخير الله لنبيه أمًا طاهرة الشرف، لم ترتكب جرمًا، ولم تستحل إثمًا، وقـد رضـعت المجـد وعراقة النسب عن أبيها الذي نشأها على كريم الفعال، وقد أنجبت شمسًا استضاءت بها جنبات الأرض، وولدت يتيمًا ولكن صنعه الله على عينه:

لاح الجـــلال مضـــيئًا فـــي لفائفـــه		مستجمع الخيـــر فـــي الأحشـــاء والـــرحم
جـــاءت بـــه لكـــريم القـــوم طـــاهرة		كنجمـــة الصـــبح تعلـــو ســـامق القمـــم
فـــي ميعـــة المجـــد غـــذتها أبوتهـــا		بالصـــالحات فلـــم تنـــزل علـــى جـــرم
قامت عـن الواحـد المـأمول تحسـبه		شمسًـــا تـــراءت علـــى الآطـــام والأكـــم
ســـلت يتيمًـــا تـــوارى عنـــه والـــده		يوم المخـــاض ومـــا بالطفـــل مـــن يـــتم

ولأن الله تعالى صنع نبيه على عينه، وأمده بقوة من عنده فلم يلحق به يتم أو ضـعف، فقـد استشعرت الأصنام هول ما ستلاقي من ذلك اليتيم القوي بعون الله وتأييده، فأخذت ((الـلات)) تبكي لمجرد مولده، استشفافًا لما سيصيبها في مستقبلها من ذل وهوان وتحطيم، وطلبت عون ((هبل)) في محنتها، فكانت هي الأخرى أشد جزعًا وألمًا وقد امتلأ الشرك حقدًا عند معاينتـه لإشراق نور المولد النبوي الشريف، وهكذا كل من امتلأ قلبه بالحقد والضغينة، فإنه لا يـرى نور الحق، ولا يبصر طريق اليقين، فيضل ويشقى:

بكـــت مـــن (الـــلات) عيناهـــا لمقدمـــه		واستشـــعرت بـــدوات الـــذل والـــنقم
واستصرخت (هُبلاً) فـــي هـــول محنتهـــا		وهل يجيـــب هضـــيمًا عـــزم مهتضـــم
وعـــاين الشـــرك منـــه النـــور منبثقًـــا		فما أدار ســـوى حقـــد وطـــرف عمـــي
وقـــد يضـــل عـــن الأضـــاء محتقـــدٍ		نـــاءٍ عـــن الحقـــد داج القلـــب مـــتهم

ويتحول الشاعر من أثر جلب المضرة على الأصنام –وما أحراها بذلك– إلى أثر جلب المسرة والخير الوفير على مرضعته وقومها.

ذلك أن حليمة السعدية كانت تتحمل المشاق في ألمٍ وحزعٍ وهي تطوي الأرض من بادية بنـــي سعد على مقربة من الطائف، إلى مكة، تلتمس من عِلية القوم رضيعًا ترتزق بإرضاعه، فكان السعد حليفها وهي تعود برسول الله، ولم تكن تدري أن ثديها لا يدر لبنًا فحسب، بل كان يدر الخير لكافة الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم، ولم يدر بخلدها أنها ترضـــع أمـــل العـــالم ومنقذه من الضلال، وهادية من الحيرة والقلق والاضطراب:

جازت (حليمة) تطــوي البيــد جازعـــة		من أرض ســعد لأرض البيــت والحـــرم
تبغـــي علاقـــة رزق مـــن رضـــاعتها		والرزق في شــرف الغايــات لــم يصـم
آبـــت (بأحمـــد) تغـــذوه وتلقمـــه		ثـــديًا يـــدر لخيـــر العـــرب والعجـــم
تحنو عليه ومـــا تـــدري ومـــا علمـت		أن الوليـــد هـــو المرجـــو فـــي الأمـــم

ثم أخذت معجزات الرسول وبركاته تترى، إذ سمنت الإبل والغنم، وامتلأت ضروعها باللبن بعد جفاف مما أثار دهشة الناس جميعًا، كما حلت البركة بالمرضعة وآل بيتها، واستشفت من الرضيع إنسانًا له شأن بين قومه في مستقبل أيامه:

قـــد بـــارك الله منـــه كـــل راغيـــة		وكـــل ثاغيـــة مـــن خيـــره العمـــم
جـــادت علـــى الظئـــر أنـــداء مباركـــة		فأصـــبحت بـــين مطلـــول مـــن الـــنعم
راحت تشف الهدى مـــن تحـــت طرتـــه		وتستشـــف العـــلا مـــن ثغـــر مبتســـم

ولما شب الرسول وترعرع لم ينحرف عن الجادة، بل ظل نقي الســريرة، طـــاهر الطويـــة، واستمر فيه ذلك الخلق الحميد لم يتحول ولم يتبدل، كما نشأ على السماحة المرئية والمحكيـــة فسماحة الوجه حدثت بكرم صاحبه، وسماحة النفس كانت في رقة النسيم، وكان وهو في كنف جده يتمتع بمنعة من العز تحفظه من الهوان، كما تمتع بالحب والرعاية والحماية، وقد منحـــه جده العطف كله، فصار لا يشعر بحاجة إلى عطف فوق هذا العطف؛ لأنه خلف لابن من أعز الأبناء إلى الجد ((عبد المطلب)) إذ في إحسان التربية والحدب على ابن الابن إحياء لـــذكرى الوالد الفقيد:

شـــب الصـــبي تقيًـــا فـــي طهارتـــه		كزهرة الروض فـــي رشـــفٍ مـــن الـــديم
يحلـــو ســـماحة وجـــهٍ كلـــه كـــرم		ورقـــة فـــي ســـماح الـــنفس كالنســـم

يمشي إلـــى جـــده فـــي العـــز ممتنعًـــا		مـــن الهـــون وفـــي حـــبٍ وفـــي ذمـــم
عطـــف مـــن الشـــيخ أنســـاه أبوتـــه		مـــا زال يلحظـــه فـــي البعـــد والأمـــم
يرعـــى بقيـــة (عبـــد الله) فـــي حـــدبٍ		ذكرى لمن بات فـــي الأجـــداث والـــرجم

ويمضي الشعر في تعديد صفات الرسول، فهو في عنفوان شبابه لا يعرف الخور أو الضعف والتردد، بل هو السيف مضاء وحسمًا، وصواب رأي وقوة عزيمة، وهو في ميعة الصبا يتأبى على احتساء الخمر، ومعاقرة الكئوس، ومضاجعة النساء، على عكس أقرانه وأخدانـــه ممـــن يتمتعون بالحسب والنسب الذين يحميانهم من المساءلة، كما يستنكر على المخلعين مضيهم في اللهو يسدرون فيه ولا يرعون، وقد عف قلبه عن الحقد، وكفه عن الظلم، وفرجه عـــن الإثـــم كما ترفعت نفسه عن السجود للأصنام، ونأى بنفسه عن أن يتصف بالخداع والمكر والكـــذب، كما صان نفسه مما لم يتورع عنه قرناؤه من سفك دماء الأبرياء، وكانـــت أمانـــة الرســـول مضرب الأمثال، فلا عجب أن يدعوه قومه بالأمين، ولأجل هذه الصفات النبيله التي لم تتوفر في شخصية واحدة مثله –وأظهرها الأمانة– والتي من أجلها التقت قلوب قريش على تـــوقيره وتبجيله، من أجل ذلك، قبلته حكمًا فيما بينها يوم أن احتدم النزاع حول وضع الحجر الأســـود في مكانه عندما أعيد بنء الكعبة، وبذلك حقن دماء العرب الذين أوشكوا علـــى الاحتـــراب، فقضى برأيه السديد على ما كان بينهم من خلاف، وانصرف القوم وقد حلت الراحة النفســـية محل الخوف والفزع، تحسبًا لاندلاع حرب قد تأكل الأخضر واليابس:

يبـــدو (محمـــد) فـــي إبـــان قوتـــه		كأنـــه الســـيف فـــي المصـــقولة الخـــذم
حلـــو الشـــباب كـــأن الحســـن طلعتـــه		لم يعرف الإثـــم فـــي كـــأس ولا حـــرم
يضـــيق بـــاللهو إن هـــام الخليـــع بـــه		عـــف الفـــؤاد وعـــف الكـــف والحـــزم
قد أكـــرم الوجـــه أن يعنـــو إلـــى صـــنم		وأكـــرم الـــنفس عـــن مـــين وســـفك دم
يُدعى الأمين وما فـــي ذلـــك مـــن عجـــب		من ذا يســـاجل هـــذا النبـــل فـــي همـــم
إن الشـــــباب ملـــــح فـــــي غوايتـــــه		لكن (أحمد) عنه الدهر في صمم
فاءت إليه قريش في خصومتها		فكان أعدل مـــن ترضـــى مـــن الحكـــم
مـــاجوا علـــى (الأســـود الميمـــون) واختلفـــوا		
		فســـــل أهـــــواءهم بـــــالرأي والحكـــــم

ولأن الرسول كان يتمتع بطهارة الخلق، حتى اكتسب ثقة الجميع، ولأنه كان أمينًا، جعلته أمانته عفًا زاهدًا مترفعًا عن خلق الطمع والجشع والخيانة، من أجل ذلك ارتضته (خديجة) رضي الله عنها أمينًا على تجارتها، وألقت بمالها جميعه بين يديه. دون أن يخامرها شك في الخيانة أو الخديعة، وقد كانت صادقة الحس في اختيارها، موفقة الرأي والتفكير حيث كان الرسول عند حسن ظنها. إذ بالأمانة والإخلاص وما أحل الله فيه من بركات، راح هذا المال ينمو، والتجارة تروج، وهو لا يدخر وسعًا، ولا يضن بجهد، ولا يضيق بتعب الرحلة الشاقة إلى بلاد الشام، على إبل سريعة نشيطة:

رأت خديجة فيه طاهرًا ثقةً		عفا تبرأ من أطماع مغتنم
فأسلمته زمام المال راجيةً		منه النماء وموفورًا من القسم
فراح بالمال ينميه وينعشه		بيمنه وبعزم منه معتزم
يطوي الفلاة لأرض الشام مرتزقًا		والمرء إن يطلب الأرزاق لم يقم
جهد من العيش يعلبه ويخفضه		فوق الصحاري على الوخادة الرسم

ولقد كان الرسول القدوة الحسنة، والمثل الأعلى للشباب في الكفاح والصبر، والمجالدة، واكتساب الرزق من مورده الحلال، وكانت ثقته في الله كبيرة، وإيمانه به قويًا، فلم ييأس والرزق يعز مطلبه، فيصبر ويكد ويسعى حتى يحقق الله الرزق والخير العميم:

قل للشباب رسول الله قبلكم		قد جالد الدهر لم يسكن ولم ينم
وبات يستنزل الأرزاق عاصية		لم يترك السعي من كبر ومن ألم

وكما أسلمته خديجة مالها أسلمته كذلك نفسها، وتمنت عليه أن يقبل الزواج بها لعفته وسماحته، وقد رأت فيه واحة الراحة والأمان، وأبصرت منه كهفًا تعتصم برجولته، وتستمد منه العزم والعزيمة، وهي التي خطب ودها سادات قريش، وشبانها الفتيان، وهكذا المرأة العاقلة تدقق الاختيار؛ لأنها تُلقي بحياتها بين يدي شريكها، وقد وفقت خديجة التوفيق كله وهي تختار، فكان نعم الاختيار:

سعت خديجة تبغيه وتطلبه		لعفة وسماح غير منصرم
بعلاً تفيء إلى أفياء سرحته		وتستريح لحب غير منفصم
وتستكن بكهف من رجولته		وتستعين بعزم منه ملتزم

إن النســـــاء عيـــــال فـــــي مســـــالكها		على الرجـــال وإن أســـرفن فـــي الـــتهم

ثم يأخذ الشاعر في الدعاء (لخديجة) رضي الله عنها، طالبًا لها أن يظلــل قبرهــا بالأزهــار الناضرة، والورود، وأشجار العنم ذات الثمار الحمراء، ذلك أنها أمطــرت الرســول بصــيب حنانها ورحمتها، وأخذت تسري عنه بابتسامة وضيئة في الوقت الذي أظلمت الدنيا فيــه مــن حوله، فكانت نعم العون والسند، لم تتحول عنه في أحلك الظلمات وأحرج المواقف، فقد تفرق عنه الناس يوم أنبأهم بخبر النبوة، وانصرف عنه أقاربه وهم الذين كان يتظنى فيهم الحمايــة والرعاية والمبادرة بالتصديق، لكنهم كانوا على رأس المناوئين، ومن أشد الغلاة عداء للإسلام ونبيه، أما ((خديجة)) فقد أعانت الرسول بمالها وبرأيها الحازم الســديد المســتنير، فتماســك الرسول أمام ذلك الإعصار المدمر:

حيت (خديجــة) فــي (المعــلاة) ناضــرة		مــن الأزاهــر بــين الــورد والعــنم
كانـــت ســـحائب تحنـــان ومرحمـــة		وبســـمة لرســـول الله فـــي الغمـــم
كـــم عاونتـــه وكـــم كانـــت لـــه ســـندًا		دون الحــوادث لــم تبــرح ولــم تــرم
تفـــرق النـــاس عنـــه يـــوم مبعثـــه		حتـــى القريـــب وحتـــى كـــل محتشـــم
لكنهـــا ثبتـــت بالمـــال تنصـــره		فـــي أمـــره وبـــرأي الحـــازم الفهـــم

هذا، وقد أخذت علامات النبوة تتضح وتتكاثر، فبعد أن رفض السجود لصنم، رأت نفســه أن تستكمل الفضائل، فأقبلت على عبادة الواحد الأحد، وقد فضل الرسول –بتوفيق الله وهديه– أن يفر من ضجيج الوثنية إلى الهدوء الذي يبعث على الخشوع وحسن العبادة فآوى إلــى جبــل حراء، يواصل فيه العبادة من تسبيح لله وتأمل في ملكوته، والروح تنطلق في العالم العلــوي تهيم بمن هداها، وتشتد قربًا ممن تهواه، فيحقق الغاية التي يهفو إليها، وهو على هذا الحال من النقاء والصفاء، إذ بحبريل يهبط بالوحي على رسول الله ومحبوبه، فارتـــاع الرســـول لمقــدم الرسول لمقدم جبريل؛ حيث لم يكن رآه من قبل، وجاءه بما لم يكن في الحسبان أو يجول في الخاطر، وضمه جبريل في محبة وصفاء؛ ليودع نفس الرسول سرًا خالدًا أبدًا:

آوى إلـــى جبـــلٍ فـــي الله يصـــعده		عـــالٍ أشـــم منيـــع الظهـــر والقمـــم
يطـــوي النهـــار ويطـــوي الليـــل مبـــتهلاً		قربـــى لبـــارئ هـــذا الكـــون والنســـم
فـــي هـــدأة مـــن ســـكون لا يخالطهـــا		إلا تســـابيح قلـــب طـــاهر وفـــم

يقلـــب الطـــرف فـــي الآفـــاق واســـعة		والروح منطلــق كـــالبرق فـــي السـدم
يهفـــو لغايـــة محبـــوبٍ يحـــس بهـــا		كأنهـــا مـــر أطيـــافٍ مـــن الحلـــم
مـــا زال يتبعهـــا نفسًـــا موفقـــة		حتى أطـل بهـا (جبريـل) فـي كلـم
راحـــت يـــروع نبـــي الله مقـــدمها		بوطـــأة تتنـــاهى فـــي مـــدى العظـــم
وضـــمة ضـــمها (جبريـــل) فـــي مقـــة		ليـــودع الـــنفس ســـرًا غيـــر منعـــدم

وهكذا أصبح الرسول مكلفًا بتبليغ الرسالة، وكان عليه أن يحتمل عبأها الثقيل، وهـي التـي كادت تهلك موسى عليه السلام وهو يناجي ربه من فوق طور سيناء، عندما طلب إلى ربه أن ينظر إليه مشيرًا إلى قوله تعالى: حكاية عن ((موسى)) عليه السلام: **{رب أرني أنظـر إليـك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربـه للجبـل جعله دكًا وخر موسى صعقًا}** كما سبب الرسالة في عداوة قوم عيسى له، ودفعت بقوم إبراهيم إلى أن يحرقوه بالنار ولم يكن الرسول بدعًا من هؤلاء الرسل، فقد تعـرض لعنـت ((عبـد عزى)) –((أبي لهب))– و((أبي سفيان بن حرب))، و ((الحكم)) –((أبي جهل))–، ولميتوقـف اضطهاد الناس لرسول الله على حدود مكة، بل تعداها إلى قبيلة ثقيف بالطائف، فـأغرت بـه سفهاءها، كما لقي صنوف الأذى والإهانة من قبائل بني ((سـعد)) و((جشـم))، كـل ذلـك والرسول ماضٍ في وجهته لا يريم ولا يحور، ولم تضعف عزيمته أمام الأحداث الجسام، ولم يتوان عن تبليغ الرسالة، والأذى بكل صنوفه ينزل به وبأقاربه الأدنين، وقد ابتغى بذلك وجـه الله، ولم يكن يفت في عضده كيد غريب، ولا سخرية قريب، وإن كان ذلك كما يقول الشاعر:

وظلـــم ذوي القربـــى أشـــد مضاضـــة		على النفس مـن وقـع الحسـام المهنـد

استمر الرسول في طريقه لا يلوي على شيء، يحدوه رجاء لا يخامره شك فـي نصـر الله وتأييده، ومن أجل ذلك كان يتخطى الصعاب، ويتجاوز العقبات مهما كلفه ذلك من مشقة:

إن الرســـالات تثقـــل فـــي تســـلمها		كـــادت علـــى الطـــور أن تـــودي بســـتلم
ســـاقت (لعيســـى) عـــداوات ومظلمـــة		وطوحـــت بخليـــل الله فـــي الحطـــم
وكـــم تحمـــل فيهـــا (أحمـــد) عنتًـــا		من (عبد عزى) ومـن (سـفيان) و(الحكـم)
ومن (ثقيـف) وقـد ضـنت بنصـرته		وشـــيعته بحقـــدٍ جـــد مضـــطرم
ومـــن قبائـــل تؤذيـــه وتخذلـــه		ما بين (سعد) إلـى (بكـر) إلـى (جشـم)

فلـم تنـل عزمـه الأحـداث جامحـةً		ولـم يصـخ لأذاة الجاهـل العـرم
وظـل ينشـر أمـر الله محتسـبًا		لوجهـه كـل مـا يلقـى مـن الهضـم
لا يسـتقر ولا يثنـي شـجاعته		كيـد الغريـب ولا مهـزاة ذي رحـم
يمضي إلى الحق لا يلوي علـى جـزعٍ		مؤيـدًا برجـاء غيـر منجـذم
مـا زال يصـعد فيـه كـل عاليـة		مـن العقـاب ويلقـى كـل مصـطدم

وقد بدأت بشائر التأييد في الظهور، حيث شرح الله قلوب بعض الأنصار ممـن وفـدوا مـن المدينة على مكة يحجون ويعتمرون، فعرض الرسول عليهم الإسلام بأسلوب حلـوٍ جـذاب، ومنطقٍ مقنعٍ واضح، كما كشف لهم عما في الإسلام من جمال، وما تضمن من خيـر، ومـا حوى من أروع النظم، فاقتنعوا ولم يترددوا، ودخلوا في الدين الجديد، وأخذوا علـى أنفسـهم العهد والميثاق بنصرة الرسول ودينه، وحمايته من كل ما يحمون من أهليهم وذراريهم، فكان ذلك إيذانًا بانتشار الدعوة وانطلاقها من معقلها إلى آفاق الأرض الفسيحة:

حتـى اسـتقاد لـه مـن (يثـرب) فئـة		جـاءوا حجيجًـا لبيـت الله والحـرم
فـراح يسـمعهم مـن حلـو منطقـه		ومن جمـالٍ ومـن خيـرٍ ومـن نظـم
فتـابعوه ومـا خاسـوا ولا نكثـوا		عهـدًا تأكـد فـي الأعنـاق والـذمم
وناصـروه وقـد كـانوا لـه جننًـا		في كـل مضـطرب أو كـل مـزدحم

وتغيب خديجة عن الوجود، ويتبعها عمه في نفس العام حتى أُطلق على عام الوفاة هـذا عـام الحزن، فاشتد عداء قريش للرسول، حيث رحل عنه أقوى الأنصار الحماة، فتحينـت قـريشٌ الفرصة، وظنت أن وفاة الزوجة والعم، بجانب ضغطها عليه، قد يضطره إلى التخلي عن دينه الجديد، فناصبته العداء، وكاشفته بالبغضاء، وتفننت في إيذائه، من تعفير ثوبه بالتراب، إلـى إلقاء القاذورات في طريقه، وعليه وهو ساجد:

غابـت خديجـة عنـه فـي حفيرتهـا		وغـاب عـمٌ لـه مـن أقـرب اللحـم
فاستضـعفته قـريشٌ بعـد موتهمـا		وناصـبته عـداءً جـد محتـدم
وكاشـفته بمـا تطويـه مـن إحـنٍ		وطالعتـه بـبعضٍ غيـر ملتـثم
قـد عفـرت ثوبـه بـالترب سـاخرة		ولـم تعـف عـن الأشـواك والـوذم

وقد شمل هذا الإيذاء وتلك العداوة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم ترحم منهم طفلاً، أو ضعيفًا، أو شيخًا فانيًا، ثم ضرب الشاعر مثلاً ((ببلال بن رباح)) الذي كان يعذبه سيده ((أمية بن خلف)) ويذيقه العذاب ألوانًا، من إلقائه على الأرض يتلظى بحرارتها، ووضع الصخر الثقيل فوق صدره، وشده بالحبال وجره بها من عنقه، ثم يدفع إلى الصبيان والخدم يتلهون به وهو على هذا الحال الذي يفتت الأكباد، وزاده ألمًا ظمؤه الذي كاد يقضي عليه، ولكنه الصبر الجميل والعقيدة الراسخة، والحب الصادق الذي تشربه قلبه، فلم يعد يأبه بعذاب أو تنكيل، بل جعله في غيبةٍ عن الإحساس إلا الإحساس بالواحد الأحد الذي ظل يردد اسمه، يبرد به حر العذاب، ويرفع الروح درجات في مقام الصبر والاحتساب والصمود:

وكم أضرت على البؤسي صحابته		لم ترحم الضعف في طفلٍ ولا هرم
ألقت (بلالاً) على الرمضاء تثقله		براجح الصخر والعاني الأسير ظمي
وقلدته جريرًا في مقلده		وأسلمته إلى الصبيان والخدم
تثني المؤذن عن دينٍ ومعتقدٍ		هيهات من يزحم الأطواد ينهرم
لا ينفع العذل في حب تشربه		قلب يروح عن العذال في صمم

ويذوب الرسول ألمًا لما يلقى صحابته من أذى وعنت، ويهتم لهم، فيشجعهم على الهجرة تحت جنح الظلام إلى ذلك البلد الآمن –يثرب– فهناك سيجدون من الأنصار أنصارًا وأعوانًا، يحمونهم من الأذى، ويطعمونهم من جوعٍ، ويؤمنونهم من خوفٍ، وفعلاً كانوا كذلك. وما بخلوا على المهاجرين بشيء، وقد أحاطوهم بالحب والكرم وهذه شمائل أهل المدينة، وهذا هو الوعد الحق الصادق الذي قطعوه على أنفسهم عندما بايعوا الرسول عليه السلام في بيعتي العقبة –الصغرى والكبرى–:

ضاق النبي بما تلقاه شيعته		فاستنفر الصحب تحت الليل والنجم
لكي يحلوا على الأنصار في بلدٍ		يرجع الذكر من قدسية النغم
إن (المدينة) عون النازلين بها		ومنزل الرحل في أمن وفي عصم
آوت جماعتهم في ظلها حقبًا		تحت النخيل ومانتهم من الهنم
فاض العقيق لهم حبًا وتكرمة		وراح يسقيهم من مائة الشبم
دارٌ على الرفق قد هبت نسائمها		شاعت سماحتها في السهل والعلم

ويتحرق الشاعر شوقًا إلى المدينة، حيث قبر الرسول عليه السلام، ثم يسترجع شريط الذكريات، فيرى الرسول وقد رحل عن مكة والليل قد أرخى سدوله عليها وقلبه مشدود إليها، وأبو بكر يصاحبه في رحلته، وقد خرجا مستترين عن الأعين، بينما الحقد يحتدم في القلوب، ويغلي بها غليان القدور فوق مراجلها، خرجا إلى الغار –غار ثور– لتضليل قريش التي تحالفت بطونها على الفتك بالرسول عليه السلام، وقد أصابتهم غفلة بعد أن أعدوا عدتهم للقضاء على الرسول، ولكن الله نجاه من كيدهم، وبعد الغار أقلتهم راحلة قطعت بهم الصحراء التي يضل فيها الساري، فأفلتا من شرك الأعداء:

يا أرض يثرب لا زالت تنازعني		نفسي إليك بشوقٍ ثائر الحدم
سار الرسول على يمنٍ يجاذبه		حبٌ لأهليك عند الليل والغسم
في صحبة الصاحب (الصديق) مستترًا		عن العيون وحقدٍ جد محتدم
مالا إلى الغار والأحلاف غافلة		كل يعد له أسباب منتقم
فأفلتتهم على اليهماء راحلةٌ		تسري بأكرم من يمشي على قدم

شاطت قريش غضبًا لإفلات الرسول منهم، بعد أن توصلوا إلى قرار القتل الجماعي الذي ظنوه واضعًا نهاية لمتاعبهم ومشاغلهم، وجدوا في طلبه وبذلوا المكافآت السخية لعيونهم وقائفي الآثار منهم، وقد أصيبوا بجنون ممزوج بخيبة وفشل، وقادهم مقتفوا الآثار إلى الغار، وكانوا من الرسول قاب قوسين أو أدنى، ولكن الله شاء السلامة لنبيه وصحبه، فلا معقب لحكمه، ولا راد لمشيئته، فأعمى بصيرتهم وبصرهم، بينما ((أبو بكر)) يرتعد جزعًا وهلعًا خوفًا على رسول الله من أن تصل إليه أيدي الأعداء، وكاد الفرق يقضي عليه، لولا تشجيع الرسول له، وبعث الثقة بنصر الله في قلبه، هذا الصديق الصديق كان يحتضن الرسول في الغار، خوفًا عليه من الأعداء، حتى لا يصل إليه سهم غرب، ونعم ما قام به من عملٍ دلل على صدق الحب، والوفاء للدين ونبيه، ولأن هذا الحب كان صادقًا في الله ولله، فقد نفث في روحي الرسول وأبي بكر عزة جعلتهما يشعران بالكثرة والقوة، حتى لكأنهما جيشان من شجعان القوم وصناديدهم:

فاستنفروا كل عينٍ من عيونهم		وأصبح القوم في حمى من اللمم
وقاربوا الغار حتى كاد قائفهم		أن يلمس اللائذ المستور في العتم
والله يدفع إن شاءت مشيئته		كل البلاء وما يدفعه ينحسم

أعمـــى بصـــيرتهم عـــن (أحمـــدٍ) قـــدرٌ		جرى به السـطر فــي الألــواح بــالقلم
خــوف أقــام (أبــا بكــر) علــى جــزعٍ		لــولا النبــي ولــولا الحــب لــم يقــم
وراح يلتــــزم الهــــادي ويمنعــــه		أنعـــم بملتـــزم أكـــرم بملتـــزم
خــدنان فــي الله قــد عــزا وقــد كثــرا		حتـــى كأنهمـــا جـــيشٌ مـــن الـــبهم
وهـــل يضـــام فتـــى الـــدنيا وصـــاحبه		ومـــن يـــؤم ســـبيل الله لـــم يضـــم

ولما هدأ الطلب، وانصرف الأعداء خائبين، يمم الرسول وصاحبه وجهيهما إلى يثرب حتى وصلا إليها، وقد أصبحا في مأمن من الأعداء، ذلك أن المدينة صارت للمسلمين حصناً منيعًا، وقد تهيبتها قريش، وخشيت من الإغارة عليها، وهي العذراء التي لم يغتصبها عدوٌ قبل الإسلام، وتابع الوحي مسيرته مع الرسول عليه السلام، فأخذ نور الحق يضيء جنباتها، بعد أن زها وانتشر في كل مكان، وكسا كل الأشجار:

ســـار إلـــى (يثـــرب) مـــن بعـــدما أمنًـــا		هذي العيـون وقـد ضـلت ولـم تـنم
حتـــى أناخـــا بـــأرض عـــز نازلهـــا		كأنـــه بـــين آســـادٍ علـــى أجـــم
عـــذراء قـــد هابـــت العـــداء ســـاحتها		فجانبتهـــا ولـــم تنـــزل علـــى أطـــم
صـــارت منـــازل وحـــي الله يغمرهـــا		نور مـن الحـق ينفـي داجـي الظلـم
مـــا زال يبعـــث فيهـــا كـــل زاهيـــةٍ		حتى تراءت على الصفصـاف والسـلم

ولما استقر مقام الرسول في المدينة، بنى مسجده –الحرم الثاني– وأرسى قواعده على التقوى من أول يومٍ، وسلك إلى نشر الدعوة سبيل الرسل إلى الأمصار، يعرضون الدين الجديد بكتابه الخالد العظيم، الذي هدى الناس إلى الطريق المستقيم، فاق في أسلوبه النثر والنظم معًا، وقد بز في جماله مزامير وأدعية داود التي كان يرددها بصوت شجي، ذلك أنه بيان معجز صدر عن العرش بمنطق خالد:

بنـــى بهـــا الحـــرم الثـــاني وشـــيده		بالباقيـــات وأرســـاها علـــى دعـــم
وأرســـل الرســـل للأمصـــار ينبئهـــا		بمـــا تـــدلى بـــه جبريـــل مـــن حكـــم
وطـــالع النـــاس بـــالوحي الكـــريم هـــدى		في ســحر منتثــر فــي حســن منــتظم
أيـــن المزاميـــر منـــه فـــي ترتلهـــا		جل المفصــل عــن قــولٍ وعــن نغــم
نعم البيـــان مـــن العـــرش العلـــي ســـرى		بمنطــق الخلــد فــي الآيــات والكلــم

هذا الكتاب العزيز مقدس من الملائكة أيضًا، فكانت تنحي له وجبريل يمر بهم نزولاً إلى الأرض، وقد ودت الأفلاك والأرض جميعًا أن تتحول إلى آذان لتنعم بهمس ذلك الكتاب الخالد الرائع؛ لأنه بلغ من الفصاحة قدرًا لا يسموا إليه أفصح الفصحاء ممن حاولوا محاكاته من الكفار والمتنبئين، وإن فهاهة وتفاهة سجع ((مسيلمة)) لدليل على فشل الكفار في معارضة ذلك الكتاب المجيد:

تحني الملائك إن مر الأمين به		منها الرءوس وتثني عالي اللمم
تود لو تصبح الأفلاك أجمعها		والأرض أذنًا لهمس منه منسجم
رد الفحول على الأعقاب خاسرة		عن المحاكاة لم يحفل بجمعهم
سائل مسيلمة الكذاب هل بلغت		هذي الأساجيع إلا مبلغ العدم

وإذا كان الرسول وصحابته قد ضحوا بأغلى ما يملكون فداءً لهذا الدين الجديد وكتابه الخالد، فإن الشاعر –وبلسان المسلمين جميعًا– يعرب عن بذل المهج والأرواح فداءً لهذا الدين الذي بهر الناس بنوره وجماله، وكسا بضيائه جميع العائذين به واللائذين إليه، ورطب القلوب بتلاوة كتابه العزيز، ولقد أضفى هذا الدين على المدينة مهابةً وقدسية بعد أن انتقل الرسول عليه السلام إليها، فشع منها نور الإيمان على جميع البلاد والأصقاع، وأمها الناس –وبخاصة بعد وفاة الرسول، واتخذوا منها مزارًا عند نية الحج والعمر أو الزيارة فقط حيث لا حج ولا عمرة– وقد هرعت الوفود إليها في حبٍ وشغفٍ ولهفة، كلٌ يقتبس من نورها، ويعودون بالخير والفلاح والهدى، ولكن قريشًا قد ضايقها ذلك وضاقت به ذرعًا، وتحول ضياء الحق الذي يرطب القلوب، ويجعل الأجساد ندية، تحول إلى لهبٍ يلذع الأكباد، ويحرق القلوب، وقد راودتهم أحلامهم القديمة في القضاء على الإسلام، وكيف ذلك والله من ورائهم محيط؟

نفسي فداء الذي جاء الرسول به		من باهر وجمال غير منحسم
يكسو الضياء جميع اللائذين به		إن يلمس القلب منه حسنه يهم
إن المدينة أمست من تبلجه		مثابة الناس في حل وفي حرم
تمشي الوفود إلى الهادي بعقوتها		مشي المحب إلى نجدٍ وذي سلم
كلٌ يعود بنورٍ من منارتها		إلى المنازل والساحات والخيم
ضاقت قريش بهذا النور وانبهرت		من الضياء وراحت منه في ضرم

فأجمعـــــت كيـــــدها لله وانبعثـــــت		فوق الجِمال وفوق الخيــل فـــي الشــكم

وكانت غزوة بدر الكبرى، وفتح الله فيها على المسلمين فتحًا ميمونًــا مباركًــا؛ إذ أعــز الله المسلمين بهذا النصر المبين، وقد انتهت المعركة والمشركون ما بين قتيلٍ وجريحٍ وأسيرٍ، وقد أيد الله المسلمين بجندٍ من عنده، يقدمها فرس جبريل (حيزوم) وقد شــد الأنصــار –ومعهــم المهاجرون– على الكفار من قريش ومن حالفهم، حتى تساقط بعضهم فــوق بعــض كالبنــاء المتهدم، وقد امتلأ بهم بئر ((القليب)) الذي ألقى الرسول فيه بجثث المشركين عقب المعركــة، وتراكموا فيه تراكم الحجارة والصخور، وقد أبلى المسلمون في هذه المعركة بلاءً حسنًا وفــي مقدمتهم ((أبو عمارة)) –حمزة– الذي فرق جموع الكفار فصــاروا أمامــه كقطيــع المــاعز الهارب، وكان الفرار جبنًا وفزعًا، وتجنبًا لوقع النبال، وطعن الرماح، وضرب السيوف:

يــا يــوم بــدر جــزاك الله صــالحة		قد كنــت للــدين حصــنًا غيــر منــثلم
تركــت عصــبة أهــل الشــرك حــائرة		مــا بــين منهــزمٍ أو بــين مصــطلم
شــهدت مــن خيــل جبريــل مســومة		حيـــزوم يقـــدمها للنصـــر بـــالعلم
وكــم شــهدت مــن الأنصــار طائفــة		مالت على الشــرك والأحــلاف كالهــدم
فاض القليب بهــم فــي يــوم مصــرعهم		وأصــبحوا بينــه كــاللبن والرضــم
أبــا عمــارة قــد فرقــت جمعهــم		حتــى كــأنهم جمــع مــن الهــزم
فــروا فــرار جبــان عــن حفيظــتهم		خوفًا مــن النبــل والأرمــاح والخــذم

رجع كفار قريش إلى مكة يجروا أذيال الهزيمة والعار، والخوف من القتل يطاردهم في كــل مكانٍ، ومع كل صوتٍ: زمجرة الرياح تصور لهم جيشًا يزأر، وإذا خلدوا للراحــة أفــزعتهم الأحلام التي يرونها في المنام تصور لهم الموت والهلاك، وعند ما أفاقوا من هول الصــدمة أجمعوا أمرهم على الانتقام من المسلمين الذيين جردوهم من معاني العــزة والأنفــة والإبــاء والحمية والعظمة، وكان النزال عند جبل أحد، وقد انعقد النصر للمسلمين في البدايــة، إلا أن ضعاف النفوس من الرماة خرجوا على طاعة الرسول بألا يبرحوا مكانهم حتــى لا تنكشــف ظهور المقاتلين، وغلبهم الطمع، وأعماهم الجشع، فأنساهم وصية الرسول لهم وما لهــا مــن مغزى عسكري كبير، فعلوا ما فعلوا فجروا الهزيمة على قومهم، فتنبــه المشــركون لــذلك وتسللوا كالثعالب خلف الجيش –من مكان الرماة الذي أمنه المقاتلون– وأعملوا في المســلمين وسائل قتالهم، فحققوا نصرًا رخيصًا، لم يقم على تكافؤ وندية، بل على خيانةٍ وخدعــة مــن

بعض المسلمين والكفار، وقد ثبت الرسول في الميدان، واشترك في الحرب حتى جرح، بـأن غرزت حلقة الدروع في وجنته بطعنه من كف أثيم غادر، وكسرت رباعية الرسـول عليـه السلام:

آبـوا لمكـة خـوف القتـل يفـزعهم		مـر الريـاح وأطيـاف مـن الحلـم
حتى اسـتقر ربـاط الجـأش فـي أحـدٍ		وعـاد كيـدهم فـي ثـأر منـتقم
كـاد النبـي بـأن يـودي بجمعهـم		لـولا مطـامع مغـرورٍ ومغتـنم
وأصـبح الجـيش بعـد النصـر تهزمـه		هـذي الثعالـب بـين السـهل والعلـم
عصـوا رسـول إلـه النـاس فـانهزموا		ومن يطـع أمـر خيـر الخلـق يسـتقم
نالـت بخلفهـم الأحـلاف وجنتـه		بطعنـة مـن أثـيم الكـف مجتـرم
فضـت ثنايـا كـأن الـدر مضـحكها		أو صفحة البرق فـي حسـن ومبتسـم

وكأن الله أراد بهذه الهزيمة أن يلقن المقاتلين درسًا في وجوب طاعة القائد البصير المحنـك، ويسترد المسلمون هيبتهم وعزتهم يوم فتح مكة، فقد أصروا على إيقاع الهزيمة بالكفار مهمـا كلفهم ذلك من ثمن؛ لأنهم في قرارة أنفسهم مقتنعون بأن من قاتل وقتل فله الجنة، واستشعروا وجوب القتال حتى تعود للإسلام كلمته، وحتى ينطلق من جديد تحت راية القرآن، ومن هنـا أصر المسلمون على استرداد هيبتهم وعزتهم، فاندفعوا لفتح مكة، وأذلو قريشًا، وعفروا أنفها بالتراب، وثبتوا يوم الخندق للأحزاب الذين ردهم الله بغيظهم لـم ينـالوا خيـرًا، وكفـى الله المؤمنين القتال، وعادوا جيشًا من المعز يجللهم الخزي والعار، لا تجـد مـنهم شـجاعًا ولا صنديدًا، كذلك حققوا النصر في حنين بأن أنزل الله سكينته عليهم، بعد أن أعجبتهم كثـرتهم، وأسروا فرسانها، وغنموا أموالها، كما ساروا إلى خيبر، وأدبوا اليهود فيها بسبب نقض عهدهم مع الرسول عليه السلام، هذه الغزوات كان الله وراء رسوله وعباده المخلصين، وقد عـادت للإسلام كلمته العليا، وانطلق تحت راية القوة والعزة والمنعة:

إن الـدماء التـي سـالت علـى أحـدٍ		عادت على الـدين بـالخيرات والـنعم
هاجـت حميـة خيـل الله وانـدفعت		تزجـي جمـاعتهم فـي كـل محتـدم
فـي فـتح (مكـة) نالـت مـن عـدوهم		وعفـرت أنفـه فـي الـذل والـرغم

وطردتهم عن (المحفور) في وهلٍ		جيشًا من البهم لا جيشان من البهم
وما (حنين) وقد قامت لحربهم		إلا بلاء على الأرواح والنعم
ساقوا فوارسها للقتل وانتهبوا		كرائم المال في فيء ومغتنم
ساروا (لخيبر) والآفاق تلفحهم		من الحقود بمثل النار والحمم
فعرفوها جزاء البغي وانصرفوا		إلى (المدينة) غاب الأسد والأجم
قد بين الله في الغارات قائدهم		تحت اللواء بنصر الدين في الأمم

ويصل النهر إلى مصبه، والبدر إلى تمامه، ويكتمل الدين، ويكون أبو بكر أول من استشعر دنو أجل الرسول عليه السلام؛ لأن اكتمال البدر يؤذن بالنقصان، فيبكي أبو بكر بكاء الصَديق الصِّديق، وكانت بداية النهاية صداعًا، ثم تشتد وطأة المرض عليه، وتوهن جسد الرسول عليه السلام، ويشعر كل مسلم بتصدع في أعماقه، ويود لو يفتدي رسول الله بروحه وما ملكت يداه، حتى الشمس في ضحاها ودت لو تخلف عنها قانون الحياة، فتظلم، ولا ترى مرض الرسول يدوم، ولكن ما الحيلة وقضاء الله لا مرد له:

بكت عيون أبي بكر وقد نزلت		(اليوم أكملت) تبدي حسن مختتم
فقد أحس البدر مكتمل		والبدر في التم لم يلبث ولم يدم
وأن روح رسول الله منطلق		إلى الرفيق وحوض بارد السجم
شكا الرسول صداع الرأس في غده		وراح منبهرًا من وطأة الوصم
خطب تضعضع ركن المسلمين له		والكل يفدي رسول الله من سقم
قد حز في النفس ما شف الهدى وجرى		في طاهر الجرم بين الرأس القدم
تود شمس الضحى لو أنها ظلم		وأن سقم رسول الله لم يقم
لكنه القدر الجاري بحكمته		مس الرسول بأمرٍ منه منبرم
فاضت على السحر نفسٌ جل خالقها		فاقت نفوس جميع الناس في الكرم

ويناجي الشاعر (دار عائشة) التي دفن بها الرسول عليه السلام فقد ضمت جلالاً ونورًا عظيمين، وصارت أشرف بقاع الأرض إذ دفن فيها أشرف خلق الله، وكشف عن عواطف النفس الجياشة وهي تزور قبر الرسول عليه السلام، حيث تشعر بالراحة والنعيم، كما أن

منارة المسجد تشع ضياءً وهاجًا لا يماثله ضياء، ويعبق المكان بروائح عطرة، لا تدانيها الروائح المنبعثة من المسك وأوانيه، كما أن خازن الجنة –رضوان– يتمنى أن يحقق الفخر لنفسه بأن يستبدل مفاتيح قفل باب القبر بمفاتيح الجنة، أو يكون واحدًا من خدم الرسول عليه السلام، وليس رضوان بهذا الحب وحده، بل إن الشاعر لتهيم نفسه بزيارة قبر الرسول والسلام عليه، ويشتد الشوق والحنين كلما حل عيد الأضحى، ويتمنى الشاعر لو أمكنه أداء فريضة الحج وزيارة قبر المصطفى صلى الله عليه وسلم. وهو على شوقه المضطرم هذا يفوق شوق الأحباب إلى ديار ليلى، وذي إضم، ونجد، وذي سلم:

يا دار عائشة الثاوي بحفرتها		هذا الجلال وهذا النور في العظم
لأنت أشرف هذي الأرض أجمعها		إن مس تربك هم النفس ينحسم
نعم المنارة يسري من ذؤابتها		هذا الضياء جليًا غير منكتم
أين النوافج من رياك عاطرة		وأين ضوء السنا من ضوئك العمم
فخر لرضوان أن تضحي مفاتحه		في قفل بابك أو يمسي من الحشم
نفسي لقبتك الخضراء هائمة		والقلب يهتف بالتسليم والسلم
حب تأصل في الأضحى يعاودني		والحب إن تحضر الأيام يضطرم
ما دار ليلى يشوق القلب زورتها		في مثل شوقك أو سلمى بذي إضم

ويكشف الشاعر عن هدفه من إنشاء هذه القصيدة العظيمة، وهو الاستشفاع بها لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويلتمس بها القرب منه، حينئذٍ تنتفي عنه كرب الدنيا والآخرة، وما أحوج الشاعر إلى شفاعة الرسول وقد عب ونهل من اللذات، ووقع تحت تأثير الإغراء فأثم بقلبه، وأثم ببصره وطالما جاهد لإبعاد نفسه عن مواطن الزلل، ولكنه كان يعود إليه تحت عنفوان الشباب الغلاب، وأنه إن فزع إلى الرسول فلأنه الهادي اسمًا وعملاً، وما في قلب الشاعر من ودٍ خالصٍ يدفعه إلى الاستشفاع، وطلب الرضا بعد أن ندم وتاب وأناب، وقد رفع الشاعر من شأن شعره بمدحه للرسول، وكم كان هذا المدح فخرًا لقوافيه:

سقت البيان أبا الزهراء ملتمسًا		قربى من الود تنفي كربة الغمم
فكم ركضت إلى اللذات متهبًا		فما أبرئ هذي النفس من لمم
وكم هفوت إلى الإغراء يدفعني		قلب أثيم وطرف دائب النهم

إن الشـــــباب وإن أنكـــــرت صـــــحبته		ما زال يعرفنـــي فـــي اللهـــو والحـــرم
فـــإن هرعـــت إلـــى الهـــادي فلـــي ســـند		مـــن اســـمه ووداد غيـــر منفصـــم
فكم رفعـــت بـــه شـــعري وكـــم فخـــرت		هـــذي القـــوافي بمـــدح المفـــرد العلـــم

والشاعر في لجوئه إلى الرسول عليه السلام قد أصاب الخير كله، وقد أقحم نفسه وهو يمدحه بين فحول الشعراء المادحين من أمثال ((حسان بن ثابـــت)) و((الكميـــت)) و((البوصـــيري)) و((البارودي)) و((شوقي)) وقد كان سعيدًا وهؤلاء الشعراء يقبلونه بينهم مادحًا، حتى رضيت نفسه وطابت، ذلك أن الجميع يقتبس من رسول الله بيانه، ويحوز الفضل كل الفضل بمدحه:

ألقيـــت دلـــوي بمـــاء طـــاب مـــورده		بـــين الـــدلاء علـــى جمـــع ومـــزدحم
رأيت حســـان حـــول الـــورد مصـــطبحًا		مـــع الكميـــت بمـــاء ســـائغ شـــبم
وصـــاحب البـــردة العصـــماء مبتســـمًا		لصـــاحبيه علـــى حـــظ ومقتســـم
جئـــت الفحـــول فســـقوني صـــبابتهم		حتى رويـــت ولـــم أغضـــب ولـــم ألـــم
فكلنـــا مـــن رســـول الله مقتـــبس		هـــذا البيـــان ومـــن بمدحـــه يغتـــنم

التحليل:

ابتدأ الشاعر قصيدته بالنسيب، وصلاً لميراث الآباء والأجداد بافتتاح القصائد بالغزل والنسيب، وإن لم يكن ذلك من أغراض القصيدة. والذي يعنينا هل وفق الشاعر فـــي توظيـــف الكلمـــة للكشف عن العواطف المستوردة في أعماق النفس؟ استطاع الشاعر أن يعكس الحالة النفســية للمحب في حالي الرضا والغضب، فاستخدم كلمة ((ضياء)) لتدل على الحالة الأولى، وكلمـــة ((الظلم)) لترمز إلى العاطفة العابسة.

وعندما أراد تبيان الجمال الطاغي وسلبه العقل أبهم سبب هذا السبي فبنى الفعل للمجهول فـــي قولة ((علقتها))، وأردف تلك الحالة بكلمة ((بعتها)) كنتيجة لهذا التعلق والمحبـــة، وإن كنـــت أفضل أن يقول ((وهبتها)) النفس؛ لأن البيع يوحي بالمقابل، حينئذٍ ليس هنـــاك مجـــال قـــوي للندم، أما الوهب فقد يندم الواهب عليه، يعضد ذلك قوله: ((أسلمتها القلب لم نسأل قياداتـــه)) فتسليم قيادة القلب للمحبوبة دون سؤالها ذلك، يقوي دعوتنا لاستخدام كلمة وهبتها بـــدلاً مـــن بعتها.

كما كان الشاعر موفقًا وهو يصور المحبوبة غاضبة عليه، متفننة في مكايدته بالنظر الطويـــل إلى غيره، بينما ترمية بمقلتها، فاستخدم كلمة ((الرمي)) ليعبر عن غضبها الذي تولـــد عـــن

الغيرة المزعومة، وكان في استطاعته أن يقول: ((تسبيني)) ولكنها في حالة غضب محتدم فالأنسب الرمي لا السبي.

وفي مجال بيان سيطرة الدنيا على المفتونين، اعتبر المفتون ((غبيًا)) وكان في مقدوره أن يقول: ((غويًا))، لكن الشاعر أراد أن ينفر من خداع الدنيا فسلب من المفتون عقله ليحطم قيودها إذا كانت ستسلبه عقله، ولم يفته حسن التعليل لوصف المفتون بالغبي؛ لأنه انساق وفي انطلاق، فكأنه ألقى عقله وراءه ظهريًا.

والشاعر وهو يصور غدر الدنيا بلغ قمة التعبير عن السيطرة التامة، وركز هذا المعنى في قوله ((تلوك)) وقال بعده: ((كل محب)) فأظهر أن الحب من جانب واحد وهو المفتون، وأنها لا تلفظه إلا وهو واقع تحت سيطرتها التامة، بعد أن قضت على شخصيته.

كذلك وفق الشاعر وهو يتهكم بقريش عندما كانت تتصور النفع ممن لا ينفع نفسه وهو الصنم، وقد صور الكفار في غفلة شديدة ذهب معها التفكير المستقيم، وهو يصف الكفر بثبات قدمه في قلوبهم.

وهو في مجال الحديث عن ثقة خديجة في الرسول يقول ((أسلمته)) زمام المال ولم يقل ((سلمته))، ليعكس عاطفة الرضى والارتياح في نفس خديجة، والثقة المتناهية التي توحي بها الكلمة، وفي مقابل تلك الثقة أخلص الرسول صلى الله عليه وسلم في عمله وجد وكد، ولكن الشاعر يوفق وهو يعبر عن ذلك بكلمة واحدة وهي: ((يستنزل)) الأرزاق.

وما أجمل الشاعر وهو يصور الأعداء في غزوة أحد بعد أن تحول النصر إليهم، فجعلهم يحققونه بطريقة لا تنبئ بشجاعة وحنكة، إذ صورهم بالثعالب في مكرها، وأنهم حققوا النصر بطريقة غير نظامية.

ولعل من أوفق تعبيرات الشاعر وهو يتحدث عن نزول جبريل بالوحي إلى الأرض أن الأفلاك والأرض تمنت أن تكون أذنًا لتنعم بسماع هذا الوحي العظيم، وسر التوفيق أن الأفلاك والأرض تمنت أن تتحول كلها إلى أذن، ولم يقل: تمنت أن يكون لها أذن وما أشد الفرق بين المعنيين.

كما كان من روائع تعبيراته المنبثقة عن عاطفةٍ دينيةٍ مشبوبةٍ أنه خلع الإحساس الرقيق على الشمس وهي تود الإظلام فلا ترى مرض الرسول يطول، ولم يغب عن الشاعر أن يقتبس بعض المعاني من القرآن الكريم وهو يشير إلى مكايدة الدنيا له، فيلمح إلى قصة يوسف عليه السلام.

ومع هذا فإن الشاعر قد جانبه التوفيق في استخدام بعض الكلمات أو في ترتيب نظامها.

ففي البيت الأول تقسم قلبه ين شدة الحزن والألم، ومعلوم أن البث أقوى دلالة على حدوث الألم من صريح اللفظ وهو الألم. ولو أنه عكس وذكر الألم أولاً لسلك طريق التدرج، إذ الألم أدنى درجة من البث، ولكن يبدو أن النغمة الموسيقية غلبة، أو فرضت عليه ذلك.

والشاعر يصور الدنيا بالحية الرقشاء المنقطة بسواد وبياض، يجعل السواد مع البياض زهرًا، ومن منا يرى حية بهذا الشكل المخيف ويتصور الزهور؟!

هذه الحية تلدغ الملدوغ بثغر سليم الأسنان، وكلمة ((ثغر)) هذه جرت العادة باستخدامها في لغة المحبين، فلو أن الشاعر قال: تبغي السليم (بنابٍ أو سن) لكان أوفق.

وإن كنت أستطيع الاعتذار عن الشاعر بأن كلمة ثغر استخدمت للكشف عن طبع الدنيا من خداع ومكر ودهاء.

كذلك لم يوفق الشاعر وهو يتحدث عن غزوة حنين وأن المسلمين أسروا فرسان الأعداء وغنموا أموالهم، ولكنه قال: وانتهبوا كرائم المال. فكلمة انتهبوا مرفوضة؛ لأنها تصور المسلمين وقد حاربوا الكفار من أجل المال فحسب، وأنهم استولوا على المال بدون وجه حق.

هذا وقد استخدم الشاعر بعض ألفاظ مهجورة –أو كالمهجورة– ولا أدري أتحسب له أم عليه، فإن حسبت له فكأنه يبعث الحياة في كلمات كادت تموت لندرة استعمالها، وإذا حسبت عليه فقد كانت له مندوحة عن تلك كلمات، اللهم إلا أن تكون القافية قد فرضت عليه كثيرًا منها. من ذلك كلمات (العصم) بمعنى ((القلائد))، و(العيوق) بمعنى ((نجم أحمر))، و(راجح) بمعنى ((ثقيل))، و (جرير) بمعنى ((الحبل))، ((الغسم)) بمعنى ((اختلاط الظلمة))، و(الهزم) بمعنى ((جماعة المعز)).

والشاعر يتحدث عن غار حراء نراه يصفه بصفات متتابعة لا حاجة إليها في إثراء المعنى، إذ نراه يقول:

آوى إلى جبل في الله يصعده		عالٍ أشمٍ منيع الظهر والقمم

فما الحاجة إلى الشطرة الثانية بأكملها، فهل هو إفلاس في المعنى؟ أم ماذا نقول؟ كما أوقعه الحرص على المجانسة في ضعف تعبيري كان في غنى عنه، فعندما تحدث عن غزوة الخندق وعودة الكفار خائبين جعلهم جيشاً من البهم (أولاد الضأن والمعز) فلا حاجة لأن يقول: لا جيشاً من البهم (الشجعان) اللهم إلا الحرص على الجناس، أو فرضت عليه القافية ذلك.

هذا وقد كان الشاعر يميل إلى الجمع بين الصور المتقابلة، إذ بضدها تتميز الأشياء، فعندما يشير إلى عمل الرسول السامي وهو إنقاذه صحابته من براثن الدنيا، نرى هذه الدنيا تفعل النقيض مع قريش فتهلكها بإغرائها وخداعها.

ومن الصور المتقابلة صورة انصراف الناس عن الرسول – وبخاصة أهله– يوم دعاهم إلى الإسلام، وعلى العكس من ذلك ثبات خديجة رضي الله عنها معه، تنصره بمالها ورأيها.

هذا ونلاحظ أن الحديث عن غزوات الرسول مقتضب اقتضابًا مخلاً لا أدري الباعث عليه، أهو جهل بالتاريخ فتجنب الشاعر الخوض فيها خوفًا من الزلل، أم إن الشاعر أصيب بالإعياء الفكري والخيالي، أو هو إشفاق من ملل الإطالة.

إذا قلنا: هو الجهل بالتاريخ فقد ظلمنا الرجل وهو المحب المدنف للرسول عليه السلام – والمحب حريص كل الحرص على معرفة كل ما يتعلق بمحبوبه، وإذا قلنا: إنه إعياء فكري خيالي، فهذا مردود بطول النفس الذي جعل القصيدة في مائتين واثنى عشر بيتًا.

قد يكون الإشفاق من ملل الإطالة هو السبب في إيجاز الحديث عن الغزوات، وقد يكون غير ذلك من الأسباب.

كما كان الحديث عن المعجزات خاطفًا لم يوفه الشاعر حقه من الاهتمام والتجلية، لكن لا يلهينا هذا الحديث عن ملاحظة خطأ الشاعر في ترتيب وتسلسل الأحداث، فقد تعرض للحديث عن فتح مكة قبل غزوة الخندق، ومن البديهي أنها قبل فتح مكة، إذ بفتح مكة انتهت عداوة قريش بدخول الناس في دين الله أفواجًا، بينما غزوة الخندق كانت مؤلفة من قريش ومن لبى دعوتها في التحالف ضد الإسلام والمسلمين، كما تأخر الحديث عن حنين إلى ما بعد الفتح، والواقع التاريخي يشهد بأنها كانت قبل الفتح في المحرم من العام السابع للهجرة.

على أن الشاعر كان التسلسل الفكري يخدعه فلا تترابط الأبيات، أنا لا أطالبه بالوحدة الفنية، ولكني أطالب باستيفاء الموضوع قبل الانتقال إلى موضوع آخر، أو ضم الأجزاء إلى بعضها دون إقحام لبعض الأبيات في غير مواضعها.

فالشاعر وهو يصور الدنيا في خداعها وخيانتها قال –مما قال–:

رقشاء بالزهد قد غطت قوادحها		تبغي السليم بثغر غير ذي ثرم
رحى تدور على طحن تفرقه		حتى يصير هباء غير ملتئم
تبدي النواجذ حتى عند بسمتها		وتلحق الذئب في الأحداث بالغنم

فكان الأفضل ان يتبادل البيتان: ((الثاني والثالث)) المكان، فالحديث في البيت الأول عن الحية وفمها الذي تلذع به دون أن يكون بالأسنان تكسر، أولى أن يأتي بعده البيت الذي يتحدث عن النواجذ.

أيضًا والشاعر يتحدث عن شباب الرسول وحسن طلعته وفتوته فيه، ووقوع من يتمتع بذلك في حبائل الدنيا، بينما الرسول ينجو بشبابه عن الوقوع في الشرك، ويضيق باللهو واللاهين، يترك هذا المعنى ويعود إليه بعد بيتين فيقول:

إن الشباب ملح في غوايته		لكن (أحمد) عنه الدهر في صمم

ومثل ذلك فعله وهو يتحدث عن ثقة خديجة فيه بأن دفعت إليه المال لينطلق به متاجرًا، فيطوي الأرض حيث ميدان التجارة ويعمل جاهدًا حتى يعود بالربح الوفير، يقول:

فأسلمته زمام المال راجية		منه النماء وموفورًا من القسم
فراح بالمال ينميه وينعشه		بيمنه وبعزم منه معتزم
يطوي الفلاة لأرض الشام مرتزقًا		والمرء إن يطلب الأرزاق لم يقم
جهد من العيش يعليه ويخفضه		فوق الصحاري على الوخاذة الرسم

إذًا من الواضح أن الانطلاق إلى بلاد الشام بعد تسلم المال كان قبل أن تعمل يده في التجارة، ولكن يبدو أن الشاعر كانت تأخذه سبحات تلهيه وتنسيه التسلسل الفكري المطلوب.
وبصدد هذا التسلسل المطلوب نرى الشاعر يهيم (بيثرب) قبل أن ينتقل الرسول إليها، وواضح أن سبب الهيام هو استقرار الرسول فيها، حيًا وميتًا، فنرى الشاعر يقول:

(يا أرض يثرب) لا زالت تنازعني		نفسي إليك بشوق ثائر الحدم
سار الرسول على يمن يجاذبه		حب لأهليك عند الليل والغسم

ومهما يكن من شيءٍ فإن الشاعر كان غارقًا ومستغرقًا في حب الرسول، فكان يطفو حينًا ويغوص حينًا آخر في بحر ذلك الحب الخالد.

ثانيًا: وحي البردة[1]

للشاعر ((ميشيل الله ويردي))

يبتدئ الشاعر قصيدته الطويلة التي بلغت مائة وخمسة وعشرين بيتًا، بدأها بانبجاس أنوار الهداية على بلاد الحجاز، وما فيها من سكان، وما على أرضها من جبال، تلك الأنوار

---

[1] مجلة الرسالة. العدد 1005 في 1952/10/16م.

صاحبت نزول جبريل منطلقًا بالوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، في شفافية الروح ورقة الزهر المتفتح، ويفضل الشاعر مزج الروح بروح النبي عليه السلام، فذلك أجدى وأنفع من مزج الدمع بالدم، وتعطير الأنف بعطر الروضة الفواح يفوق لذة عشق الفتاة الجميلة، سواء أكانت ريم القاع، أوريم الأكم:

أنوار هادي الورى في دارة العلم		رفت على ذكر جيران بذي سلم
وأرسلت نغم التوحيد عن ملك		كالروح منطلق، كالزهر مبتسم
فمزج روحك بالروح التي ازدهرت		يغنيك عن مزج دمعٍ ساجم بدم
وشمك العطر فواحًا بروضتها		ألذ من عشق ريم القاع والأكم

ويشير الشاعر إلى الحب الخالد العظيم، فيذكر أن حب العظماء يكون بالاتحاد في الرأي والفكر، لا أن يكون هذا الاتحاد في الشكل والمظهر، ويقسم الحب إلى نوعين: حب خالد هو حب الروح، وحب مادي قائمٌ على الهوى واللذة الحسية، ذلك هو الحب الفاني، ثم يعض إصبع الندم على ما فرط من عمره في اللهو، وتبديد الوقت في حب قائم على الوهم، إذ سرعان ما ينهار كسرعة انهيار القصور القائمة على أعمدة الخيال المحض، ويكرر الندم على حب غلاظ الأكباد، قساة القلوب؛ لأن هذا النوع من الناس يصد عن الصديق إذا خالفه في الرأي دون دراسة لأسباب تلك المخالفة، مثل هذا النوع من الأصدقاء تورث صداقتهم الندم في نهاية الأمر؛ لأنها قامت على أسس نفعية لا شفافية للروح فيها:

ومن يهم بعظيم يتحد معه		بالرأي والفكر قبل الوسم والأرم
والحب صنوان حب الروح خيرهما		فلا تكن للهوى الفاني بملتزم
يا ليت أحلام عمري لم تضع بددًا		بحب قصر من الأوهام منهدم
وليتني لم أهم إلا بمن عرفوا		برقة القلب لا بالظلم والعقم
فكم حبيبٍ إذا خالفت فكرته		جازاك بالصد قبل البحث في التهم
ومن يساق حبيبًا صد خمرته		وسحر ألحانه يندم وينفطم

وإذا كان الأمر كذلك فعلى العاقل أن يتبصر عاقبة أمره، ويتخير من الأصدقاء من لا يجني من صداقتهم ألمًا وندمًا حتى لا يذوي بحسنه كمدٍ أو سأم، وخير الحب حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحبه يجلب الخير والمنفعة، إذ يكون هذا الحب وسيلة شفاعة الرسول لمن يحبه ويخلص لدعوته، وليس ذلك فحسب، بل الارتشاف من ورده العذب يروي العطش،

وينقع غلة الظمآن، ذلك أن قلب الرسول ينبوع رحمة لا يغيض، بل يفيض على المحبين بما يرطب القلب ويحيي الفؤاد:

فاربأ بنفسك أن تنهار من ألمٍ		واربأ بحسنك أن يكمد من سأم
واجعل هواك رسول الله تلق به		يوم الحساب شفيعًا فائق الكرم
هذا رسول الهدى فارشف على ظمأ		من ورده العذب عطفًا شاق كل ظمي
كأنما قلبه ينبوع مرحمة		مستبشر بالرؤى جذلان بالنسم

ويشير الشعر إلى أن الله تعالى اصطفى نبيه، فجعله ميمون الطالع وقد بدد به ظلمات الجهل والشرك، كما أومأ إلى أنه لم يسجد لصنم قط، بل كان يوحد الله لا يشرك به شيئًا، لأنه صار مستنير الفكر، بجانب توفيق الله له بترك عبادة الأصنام التي لا تملك لنفسها أو لغيرها نفعًا أو ضرًا، وكان من الطبيعي أن يعادي قومه أو يعادوه؛ لأنه سفه أحلامهم وهم ينساقون وراء حجارة لا تملك لنفسها موتًا ولا حياة ولا نشورًا، وهذا شأن جميع الأنبياء والرسل الذين تصدوا لنشر عبادة الله سبحانه وتعالى:

يا أيها المصطفى الميمون طالعه		قد أطلع الله منك النور للظلم
وحَّدتَ ربَّك لم تشرك به أحدًا		ولستَ تستجد بالإغراء للصنم
وكيف تشرك بالرحمن آلهة		لا يستطيعون رد الروح للرمم
عاديت أهلك في تحطيم بدعتهم		من ينصر الله بالأصنام يصطدم

كان الرسول على تلك الأخلاق العظيمة، وذلك السلوك المستقيم؛ لأن الله تبارك وتعالى أعده لحمل الأمانة وتبليغ الرسالة، ولم يكن هناك أقوى عزيمة، ولا أصدق إيمانًا منه عليه السلام، وكم كان صلبًا في تبليغ الرسالة، فلم يصرفه عنها صارف من إغراء بالمال أو الملك والسلطان، ولم تضعف عزيمته أمام التعذيب والنكال اللذين تعرض لهما الرسول وصحابته، لذلك حزن إبليس وجنوده لفشلهم في إغراء الرسول ومن آمن به ليتركوا هذا الدين الجديد، ولم تجد جهنمهم حطبًا لها من بين المسلمين، وكأنما غلت أيدي إبليس وجنوده بأصفادٍ كبلهم بها الرسول عليه السلام، فعادوا من المعركة خائبين:

كأن ربك لم يخلق لدولته		سواك من مرسل بالحق معتصم
أدى الرسالة حتى ضج من سأم		أجناد إبليس واشتد الأسى بهم

وأفلســــت بعـــــد إقبــــال جهــــنمهم		ولم تجد حطبًـا فـي الأشـهر الحـرم
كـــأن أحمــــد بالأصـــــفاد كلــــبهم		فارتـــد جيشــهم المقهــور بالســـدم

ويفصل الشاعر أثر الشريعة الغراء التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم، والتي قامت على أسسٍ وأركانٍ قويةٍ لا يصيبها خلل أو انفطار، فأظهر أن الشريعة الإسلامية تعلي من شأن العقل، وتعني بتغذيته بالنافع المفيد من الفكر والرأي، فكان العقل وسيلة الإنقاذ من الإثم والهوان، وقادهم إلى حياة تظللها السعادة الروحية التي لا تعد لها سعادة، وعلمهم سبل الارتقاء المشروعة حتى سادوا العالمين، وقد طبعوا على العدل الذي فتح الدنيا عليهم، وحبب الناس في الإسلام، كما صار الوفاء بالوعد جزءًا من طباعهم، دون أخذ عهدٍ أو ميثاق على ما يعدون به، كما أشار إلى أن المسلمين أشداء على الكفار، ومع تلك الشدة والقوة فهم لا يعرفون الظلم وبذلك سادوا العالمين، وشيدوا ملكًا ما كان له أن يكون قويًا شامخًا لولا الإسلام وما غرسه في بنيه من رفيع الخصال وكريم العادات والتقاليد والسلوك الحميد:

شــــرع علـــى أقـــوم الأركـــان أســـه		للعـــــالمين نبــــي طــــاهر الشـــيم
غذى عقــول الــورى حتـــى أتـــاح لهــم		عــيش النعــيم ونقـــاهم مـــن الإثـــم
وعلـــم العـــرب حتـــى ســـاد نســـلهم		هـــام الممالـــك وارتاحـــت لعـــدلهم
كأنمـــا الشـــرع جـــزء مـــن نفوســـهم		فإن هم وعــدو اسـتغنوا عــن القسـم
قـــومٌ إذا استخصـــموا كـــانوا فراعنـــةً		فـــإن هـــم قســموا أرضـــوك بالقســم
وخلـــــدوا ملكهـــــم ريـــــان مؤتلقًـــــا		وكل مـــا شـــادت الأطمـــاع لـــم يـــدم

ويمضي الشاعر فيطيل من حديث العظة والاعتبار، ويذكر أن الممالك التي تقوم على الجشع ستنهار يومًا؛ لأنها لا تقوم على أساسٍ متين، وإذا تجرد الناس من المودة والرحمة والتعاطف والتآلف، غلب القوي الضعيف على أمره، فيصبح لا خير يرجى منه، كما لا ترجو صغار السمك خيرًا من الحيتان، وعلى العاقل أن ينفذ من سلطان المال المهلك؛ لأن سلطانه أقوى من سلطان الأماني والأحلام، التي يسأم العاقل من الاستمرار في تمنيها كلما تقدم في السن، وعلاه الشيب، ولو أن الإنسان تدبر عاقبة أمره، وتوصل إلى أنه يعرض نفسه للمهالك وهو يكتنز المال الذي سيتركه يومًا لغيره، يتمتع بما شقى في جمعه، لو توصل الإنسان إلى تلك الحقيقة، لترفع عن صحبة الأخوان الذين يشجعون على الحصول على المال دون تبين وجه الحق في اكتسابه، وأنه كما سيفارق الإنسان ماله يومًا، فسوف يغدر به أقرب الناس إليه عندما يحبس

عنهم خيره، فلو أنه أدرك ذلك لأبعد نفسه عن تلك الرفقة التي لا أمان في قربه. ثم يقدم تحذيرًا عامًا من الهموم التي تدسها الدنيا في إغراءاتها المتنوعة، حتى لا يشعر المغتر بما فيها من مضار، شأنها في ذلك شأن السم المدسوس في الدسم، فلا يتبينه الإنسان إلا بعد فوات الأوان، ومن هنا يرى الشاعر لزامًا عليه أن يوضح الطريق الأقوم لينقذ به من ينتصح ويبغي الهداية والرشاد، وهو الزهد في الدنيا، إذا هو وسيلة الراحة الفكرية والذي إذا أهملناه عاد علينا ذلك بالشر والوبال:

إن الممالك إن شيدت على جشعٍ		تفرس ولا خير في الحيتان للبلم
وقد يمل الفتى بالشيب من أرب		ولا يمل عبيد المال من بشم
آتون نار زفور جد محتدم		والمال يهوي مخلق جد مزدحم
لو أدرك المرء أن المال تاركه		لمل صحبة خوان الوداد عمي
ولو درى العاشق الموتور كيف سلا		أحبابه لم يبت يومًا بقربهم
كفاك همًا فأهواء الدنى غصص		تودي بصفوك مثل السم في الدسم
والزهو راحة فكر من متاعبه		فإن دعانا وأهملناه ينتقم
همنا بفان فأغرانا وأذهلنا		وأي قلب بحب الأرض لم يهم؟

وإذا كان الشاعر يدعو إلى الزهد فلأنه رأى الرسول إمامًا في ذلك، حيث راودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأباها أيما شمم، كما أن المسلمين كانوا على استعداد ليقوموا معه مقام الخادم من مخدومه، ولكنه يأبى إلا أن يكون واحدًا منهم، وكان ذلك من الرسول مبعث عجبٍ ودهشةٍ من الشاعر، إذ كان يعاني مرارة الجوع، وفي استطاعته أن يحيا في رغدٍ وبحبوحة من العيش، وبمقدوره أن يحيا حياة الملوك والعظماء، فقد سعى إليه قومه بذلك ورغبوه فيه، حتى يرجع عن دينه الجديد، ولكنه فضل حياة الفقراء الوادعين دون أن يكون للدنيا عليه سلطان.

يا أزهد الناس في الدنيا وفي يده		خزائن الملك والأنصار كالخدم
عجبت كيف تعاني الجوع مرتضيًا		حظ الفقير ولم تلتذ بالتخم
ولم تبال بتيجان مرصعة		ولم تكن للألى خلوًا بمرتسم

حقًا لقد كان الرسول حريصًا على قومه، فقد دعا لهم بالهداية والمغفرة، وإنقاذهم من الضلال، على الرغم مما أنزله به أعداء الإسلام من شرٍ وكيد، ودعاهم إلى أقوم سبيلٍ ينقذهم من الشرك والعذاب، فما كان منهم إلا السخرية والاستهزاء، إذ سيطر على عقولهم وهم خادع بأن الرسول كاذبٌ في دعوته، وهم مقتنعون في قرارة أنفسهم أنه أمين صادق، فكانت تلك الأفكار سبيلاً إلى شقائهم وهلاكهم وعذابهم:

تقول ربي أجرهم من عمايتهم		وتصرف النفس نحو المورد الشبم
فاستضحك القوم هزءًا واستبد بهم		وهمٌ فصيرهم لحمًا على وضم
كأن أفكارهم من طول ما شقيت		ألقت بأرواحهم في وهدة الحطم

ثم يعود الشاعر إلى بث العظة والعبرة بين الناس، فيبين أن الذي لا يحاسب نفسه ويندم على ما فعل فمثواه النار، وهي بئس القرار لمن لم ينصرف عن الطريق المؤدي إليها، ثم يوجه الإنسان إلى طلب رضا الله؛ لأن الروح في حاجة إلى ذلك، حتى تسلم من الأذى والعذاب، إذ لا عاصم لها من طعام ينقذها من الجوع، ولا لباس يقيها حر جهنم الشديد.

كما لا تفيد الأبراج المشيدة في تحصين المرء من الموت، فالموت ينزل بسكان القصور كما ينزل بسكان الخيام، وأن حياة المرء فيما يخلف من ذكر طيب، وأنه صائر إلى الشيب والهرم، ولن يعود الشباب كما يتمنى الإنسان، ولذلك ينبغي أن يتزود في حياته وهو قادرٌ على العمل الصالح، وقبل أن ينزل به الضعف، فلا يستطيع تعويض ما فات وضاع من العمر وهو يلهث وراء الإثم والخسران.

والنار حرقة نفس من ندامتها		يا بؤس من لم يحد عن شر مغتنم
فاسلم بنفسك إن الروح يعوزها		رضا الذي علم الإنسان بالقلم
فلا طعام من البأساء ينقذنا		ولا لباس يقينا شدة الضرم
وهل يفيدك أبراجٌ مشيدةٌ		والموت في القصر مثل الموت في الخيم
والمرء يفنى إذا لم يبق مأثرة		تحيا إذا باتت الأجساد في الرحم
والعمر إن طال يوم لا رجوع له		فهيء الزاد قبل الشيب والهرم

ويعطي الشاعر الدرس العملي لمن ينصحهم، فيوضح أنه أقبل على الله، وأسلم إليه أمره، فهو خير حافظًا لكل المخلوقات: للإنسان والزهر والطيور، ثم يعاتب الإنسان بأن الله فضله على جميع المخلوقات بالعقل والحكمة، ثم يتجرد من مظاهر التعقل والتصرف الحكيم، ويغيب عنه وجوب

التخلق بالرحمة، ويستنكر على الإنسان أن يقتنع بإدراك الفوز عن طريـق الآلام والمفاسـد، كمـا يتعجب من تصور سمو الروح وهي متعلقة بالمظاهر المادية التي تحـول بينهـا وبـين الشـفافية والطهارة، وأن الرحمة إذا نزعت من القلب فإن الإنسان لا يختلف عن الآساد في عنفها وقسوتها.

أسـلمت لله أمـري فهـو يكلـؤني		كالزهر في الحقل، والأطيار في العلم
ألسـت يأيهـا الإنسـان أفضـلها		وبـارئ الكـون قـد حـلاك بـالحكم
فـإن يغـب عنـك أن العـيش مرحمـة		فكيـف تـدرك أن الفـوز بـالألم؟
وكيـف تسـمو بـروحٍ بـالثرى علقـت		وكيف تعلو على الآسـاد فـي الأجـم؟

ثم يعود الشاعر إلى بيان الأثر الحميد للشريعة الغراء الذي أرسى قواعدها المصطفى صلى الله عليه وسلم على عمد من البر، والثقافة التي شجع عليها يوم انتصر في غزوة بدر، وكـان فـداء بعـض الأسرى تعليم الفرد من المشركين لعشرة من المسلمين، وقد وضع –بتوفيق ربه– نظمًـا اجتماعيـة واقتصادية ناجحة إذا أخذت بها الأمم أمنت من عواقب الجهل الوخيمة، وتحصنت بها مـن الفقـر والعوز، ولكن الأمم غلبت عليها المذاهب الاجتماعية والاقتصادية المستحدثة، فساد الاضطراب بين الناس، وحلت العدواة والبغضاء محل الوئام والمحبة، فقامت الحروب بين الأمم، وكانـت نتيجتهـا الخراب والدمار.

أقـول للمصـطفى أعظـم بمـا ابتـدعت		آيـات ربـك مـن خيـر ومـن نعـم
لو يتبع الخلـق مـا خلـدت مـن سـنن		لـم يفتـك الجهـل والإعـواز بـالأمم
ولـم يـر النـاس أحكامًـا وفلسـفة		فـي الاجتمـاع سـتلقيهم إلـى العـدم
مـذاهب أحـدثت فـي الأرض بلبلـة		وأورثتنـا بلايـا الحـرب والإزم

ثم يلمس صميم المشكلة الاقتصادية وهي إهمال الزكاة والعشور التي حددها الإسلام، وكـان فيهـا غناء المسلمين، وتحصينهم من الفقر والعوز، ولكنها أهملت فتعطل الهدف منها، وتعرض كثير من المسلمين للأمراض التي فتكت بهم نتيجة الفقر الذي أعجزهم عن تـدبير وسـائل العـلاج منهـا، والرسول وهو يسن ذلك –أو يبلغه عن ربه– كأنه أطلع على الغيب، ورأى ما سـنكون فيـه مـن ويلات ونقم لا نقوى على احتمالها، ونظر بعين الله ما سيحدث في زماننا من سـيطرة النظريـات الاجتماعية والاقتصادية التي يحاول الملحدون أن يفرضوها علينا، هذه النبوة الملهمة قد توعـد الله تعالى منكرها بالعذاب الشديد:

أيـن الزكـاة وأيـن العشـر يحملـه		أهل الغنى للألـى مـاتوا مـن السـقم؟

هــل كنــت تبصــر مــا أودى بعالمنــا		من قبــل أن فــاض بــالويلات والــنقم؟
أم هــل تنبــأت عمــا تــم فــي زمــنٍ		ســادت بــه فكــرة الإلحــاد والــنهم؟
نبــوة حــارب الجبــار منكرهــا		وروع النــاس بالتعــذيب والحمــم

ويهيم الشاعر بالنبي حبًا، ويذكر سبب الحب والهيام، فيشير إلى سمو رسالته وهي هدايــة البشــر، وأعجبه فيه طهره ونقاؤه، وعدله، وقيام الرسالة على فيصل عدل في تكريم الناس وهو التقوى، ولم يجبر أحدًا على الدخول في الدين الإسلامي، وأوضح هدف الرسالة مرة أخرى وهي هداية العالمين، دعا إليها بالإقناع دون ما عنف أو تسلط، ولم يفرق الإسلام بين الناس على أساس الجنس أو اللون، بل جعل الجميع إخوة يحب بعضهم بعضًا في الله ولله، وأقنع الناس أن الأكوان فانية، والتحصن بالله ودينه خير وسيلة لتحقيق الأمان يوم يرجعون إلى الله يوم القيامة.

فيــا نبــي الهــدى حييــت مــن علــم		بــالطهر متســم بالعــدل مــدعم
أحببــت دينــك لمــا قلــت أكــرمكم		أتقــاكم وتركــت الحكــم للحكــم
وقلــت إنــي هــدى للعــالمين ولــم		تلجأ إلــى العنــف بــل أقنعــت بــالكلم
في دينــك الســمح لا جــنس ولا وطــن		فكــل فــرد أخ يشــدو علــى علــم
الله أكبــر والأكــوان فانيــة		ومــن يلــذ بجــلال الله لا يضــم
ســبحان مــن بيديــه الملــك أجمعــه		ويرجعــون إليــه يــوم بعــثهم

ويشير الشاعر إلى عبقرية الرسول وفصاحته. على الرغم من أميته بصريح القرآن الكــريم، ومــع ذلك فقد أجرىالله على لسانه وحيًا لا يدانيه كلام مهما بلغ من الفصاحة، وقد كان هذا الوحي إعجازًا لم يستطع العرب معارضته أو حتى محاكاته، وقد احتشدوا لهذا العمل، واستطاع النبي أن يجمع إليه المسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم ومشاربهم، جمعهم على كلمة التوحيد فاتحد مــن تفــرق، وتصافى من تعادى، حتى صاروا متجانسين تجانس الأنغام في ألحانها العبقرية:

يا عبقري الــورى الأمــي هــل ســمعت		من قبلك العــرب وحيًــا جــد منســجم
آياتــك الغــر إعجــاز تنــزه عــن		نــدٍ، ولــيس دعــى الحــب كــا للــدم
كأنمــا النــاس آيــات مبعثــرة		أخرجت منهــا جميــل اللحــن والــنغم

حارب الرسول في قومه عادات ضالة آثمة مثل وأد البنات، ومنح المرأة –ولأول مرة في الوجود– حقها في الميراث، وجعلها قيمة من قيم الحياة، وقرر لها حقوق الاحترام والمودة والمحبة، مما جعل

الشاعر يفخر به على الناس أجمعين، ويعتبره سيد المصلحين في الكون جميعه، ودليل ذلك أنه اهتم بالفتاة وتقويمها وترتيبها؛ لأنها هي التي تلد وتمد الأمة باشباب، فإن أحسن إليها في التربية والتعامل، كان نتاجها عظيمًا، وإن كانت غير ذلك كانت سببًا مباشرًا من أسباب ضياع الأمة، وقد سبق الرسول دول الغرب في دعوتهم إلى الحرية بعامة، وتحرير المرأة مما كانت فيه من ذل وهوان بخاصة:

من علم الجاهلي الغر مكرمة		وأد البنات أم البالي من النظم
محمد رد من ضلوا وعلمهم		حق النساء اللواتي كن كالرمم
يا فخر أمتنا في الأرض قاطبة		وسيد المصلحين العرب والعجم
عززت كل فتاةٍ حين صحت بنا		ما أولد العز غير السادة الحشم
فأنت أول من نادى بمأثرة		يظنها الغرب من آلاء بعضهم

ويبرز الشاعر الجانب التربوي العظيم الذي كان عليه الرسول مع الناس كافة، فقد اتسع صدره لأذكياء القوم وأغبيائهم، فكان يخاطب كلاً منهم على حسب قدرته وطاقته، دون تبرم أو ضجر، كما كرم الإنسان المسكين، وعطف عليه في بر ورحمة، في الوقت الذي كان يُعامل الإنسان فيه كالأغنام بدول العالم المتحضرة، ويشير الشاعر مرة أخرى إلى عظمة الرسول وقدرته على تطبيب الأرواح ومداواتها، فكان طبيبها وآسيها، كما كان شفيقًا رحيمًا باليتامى والأرامل، وصار لهؤلاء جميعًا أبًا بارًا عطوفًا، وهذا ما شجع الشاعر أن يطلب إليه أن يستمر في رعاية هذه النفوس التي أذلها اليتيم، كما طلب إليه أن يهبه –ويهب الناس أيضًا– مبادئه الحية الخالدة التي تفرد بها بين خلق الله أجمعين، فصار خالدًا بها:

خاطب كل ذكي حسب قدرته		ولم تكن بغبي القوم بالبرم
وكنت أرأف بالمسكين من دولٍ		رأت بأمثاله سربًا من الغنم
إن كان ينجع طب الناس في جسدٍ		فأنت تفعل بالأرواح كالحسم
ترعى اليتيم وترعى كل أرملةٍ		رعى الأب المشفق الباكي من اليتم
فارع النفوس التي ذلت ويتمها		فقد الكريمين: حب الخير والشمم
وهب لنا مبدأ حيًا وتضحية		بها تفردت بين الناس من قدم

كما يعود الشاعر إلى تبيان النظام الاجتماعي الرائع الذي ساد المدينة يوم هاجر إليها المسلمون، وصار بعد ذلك دستورًا خالدًا وهو الإخاء، ويتمنى الشاعر على الله أن يدوم هذا الخلق ويظلل الناس في هذا العصر، حينئذٍ يسعد الناس ويبتهجون، كما يشير إلى نجاح الرسول في أداء رسالته، إذ استطاع أن يؤلف بين القلوب، ويغرمر فيها الود والمحبة مكان العداوة والبغضاء، ولن يبرأ قوم الشاعر من داء التنابز والتناحر والصد والكراهية إلا يمثل التخلق بالود والتسامح، والترفع عن الأسباب التي تؤدي إلى الجفوة والكراهية والطمع الذي يجر إلى الهاوية، والعودة إلى نداء الرسول وتوجيهاته السديدة التي انصرف الناس عنها فضلوا وذلوا، ويطلب إلى الرسول أن ينفخ في الناس نخوة توحد قلوبهم وتجمعهم من جديد على كلمة سواء، وأن يبعث فيهم همته حتى يقووا ويعزوا:

ليت الإخاء الذي في يثرب انتشرت		راياته ظل فينا غير منفصم
إن القلوب إذا ألفتها ائتلفت		والود حبل فإن تصرمه ينصرم
ماذا يطهر قومي من تنابزهم		والصد يعلق بالأرواح كالرشم
أجفوة ورعاة غرهم طمع		كأنهم عن نداء الحق في صمم
أسمعتنا فنسينا واستقل بنا		هوى فأمسى عزيز القوم كالحطم
فانفخ بنا نخوة تجمع أواصرنا		وابعث بنا همةً يا باعث الهمم

ويأسى الشاعر للبابليين، والفراعنة والتدمريين؛ لأنهم شيدوا ما شيدوا فلم ولن يغني عنهم شيئًا، إذ كل ذلك إلى خرابٍ يباب؛ لأن الخير لم يكن حاديهم في هذه الأعمال التي يعتبرونها قمة الحضارة والرقي، ولو أنهم تدبروا عواقب الأمور، ما فعلوا ما يندمون عليه، وها هم أولاء زالوا وزالت معهم آثارهم، وعزتهم أيضًا، أما المصطفى صلى الله عليه وسلم فقد صار خالدًا عبر القرون والأجيال وحتى تقوم الساعة، وما ذلك إلا لأنه قدم للبشرية وسائل النعيم في الدنيا والآخرة، وترك لهم ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، ومن هنا فإن كل لسان يلهج باسمه وينطق بالثناء عليه:

أبناء بابل أفنتهم مآثمها		وآل فرعون ما شادوا سوى الهرم
وتدمر ومغانيها غدت خربًا		والذكر بالخير غير الذكر بالإرم
يا ليت من شيدوها للفناء رأوا		عقبى المباني فأغنتهم عن الندم
زالوا وزالت مع الآثار عزتهم		فإن تجادل سل التاريخ واحتكم
والمصطفى خالد في الناس ما بزغت		أم النجوم وممدوح بكل فم

ويتوجه الشاعر إلى العرب بالنداء، ويبعث فيهم الحمية والحماس، فيذكرهم بما كان لهم من مجد مؤثل، ولكنه ضاع بالاختصام، وبذلك تحول الخير إلى الشر بسبب ما بين العرب من فرقة وتخاذل وعداء، مما صيرهم طعامًا سائغًا للدول القوية المتماسكة، ويعود إلى تحميسهم مرةً أخرى بأن الكرامة العربية والإباء والشمم الذي يتميز به العرب، كل ذلك يأبى عليهم تقبل الذل الذي يحيون فيه، ويصطلون بناره، وقد جر عليهم هضم الحقوق، في الوقت الذي لا يهضم العرب حقًا لأية أمة أو دولةٍ أخرى. ويطلب إليهم أن يعودوا إلى كلمة سواء فيحققوا الوحدة التي كانوا عليها، ويتجنبوا المكر الذي فرق جمعهم، فإن الرسول بشريعته ودستورها قد هذب النفوس وطبعها على الخير والطهر والصفاء، وأشاع الحب والسلام بين الجميع:

يأيها العرب المأثور مجدهم		ما فاز بالمجد شعبٌ شبه مختصم
أيصبح الخير شرًا من تخاذلنا		ونغتدي نهبة الغربان والرخم
إن الكرامة تأبى أن نذل ولم		نهضم حقوق الورى كالهائج الضرم
فاستجمعوا أمركم فالله وحدكم		والمكر فرقكم في حومة الجسم
وشرع أحمد بالقرآن هذبكم		وجد في أمركم بالحب والسلم

ويخاطب المسلمين ويغبطهم على ما هم فيه من فخر بدينهم العظيم، ويشير إلى ما يجمع بين المسلمين والمسيحيين من لغةٍ وتعايش في ظل دولة واحدة، وطلب إليهم أن يقدموا الأفعال الغراء التي تعلي من شأن الدين وتعزز من جانبه، وأن يكون الحب في مقدمة تلك الأفعال الماجدة؛ لأن قيمة الحب أعظم قيم الحياة، وينبغي أن يتخذ الدين شرعة ومنهاجًا، وأن يكون من النفس هواها، ومن القلب نبضة، وهذا ما ينفع الناس، إذ يستوي من مات دون أن يحقق أملاً، ومن مات وقد تحققت له الآمال؛ لأن الإنسان سيغادر الدنيا صفر اليدين، وتلك هي الفلسفة الإشراقية، التي تمكن النفس من إدراك الصحيح وتحنب الخبيث، والتجرد عن الدنايا، والصوم عن الرذيلة؛ لتعيش النفس سعيدةً في عالم الطهر والنقاء، وعلى العاقل أن يمكن روحه من الانطلاق في عالم المُثل، وأن يكون حب الله لديها كحب الملائكة الأطهار التي لا تبغي من وراء هذا الحب إلا وجه الله تعالى، وبعد ذلك عليه أن يستقيم، وأن يقيم على هذه الاستقامة:

يأيها المسلمون الفخر فخركم		ونحن إخوانكم بالنطق والعلم
فأيدوا بالفعال الغر دينكم		فقيمة الحب عندي أعظم القيم
والدين إلا هوى في نفسٍ عاشقةٍ		ومن يبح بالهوى يوم النوى يلم

سيان يـــا قـــوم مـــن يقضـــي بـــلا أمـــل		ومن ينـــال المنـــى فـــي عـــالم العـــدم
صـــوفية أدركتهـــا الـــنفس فانصـــرفت		عن الدنيايا ومـــن يهـــو العلـــى يصـــم
فاستهد بالروح في الأفـــلاك وأهـــو كمـــا		تهـــوى الملائكـــة وجـــه الله واســـتقم

ويتوجه الشاعر بالخطاب لمن عصف بهم هوى النفس، طالبًا التوقف عند هـذا الحـد مـن الحـب واللهفة، ويلتفت فيتحدث عن نفسه بأن سهام الحسن في فتاته رمت قلبه، فصار صبًا جريحًا، ومـن عجب أن يظل الجريح متماسكًا دون أن يصاب بضعف الجراح، وأن حرقة اللوعة جعلته ينفس عن آلامه بأغاني الشجن والمرارة، حتى فرجت كرب ذلك القلب الدامي، الذي رمته رماح الجمال فصار عليلاً، ثم يعود إلى تبجيل الحب الطاهر الخالد ويطلب إلى نفسه أن تلتمسه وتتمسك بـه، وإلا فـلا قيمة لحياتها، وأولى لها أن تتوارى عن الأعين في باطن الأرض لعل المنية تنساه:

وقـــل لمـــن أدمـــت الأهـــواء مهجتـــه		أمـــا اكتفيـــت مـــن الـــدنيا بحـــبهم؟
رمـــت فـــؤادي بســـهم الحســـن فاتنـــة		فاعجـــب لصـــب جـــريح ثابـــت القـــدم
مـــدت أناشـــيده نيـــران لوعتـــه		ففرجـــت عـــن عليـــلٍ بالجمـــال رمـــى
إن لـــم يخلـــد فـــؤادي الحـــب فالتمســـي		يا نفس كهفًـــا بـــبطن الأرض واعتصـــمي
علـــى المنيـــة تنســـاني كمـــا نســـيت		عرائس البحر صـــيد النســـر فـــي القمـــم

ويأخذ الشاعر في مناجاة الرسول عليه السلام فيتصوره نفحة سرت من جنة الخلد، وقد فاح شذاها، فتعطرت بها الآناف، ويجعل من نفسه محبًا ومحبوبًا في ذات الوقت، ويعلن أن المحبـة لا تتوقـف على القرابة بالأنساب أو الرحم، فهي ملك لكل من تفتح قلبه على الخير والمودة، وأن حب الرسول عليه السلام شرعة قديمة منذ آدم عليه السلام، وعليها اجتمع الناس من قديم الزمان، ومن أراد الفوز في الدنيا والآخرة فليتخذ من تلك الشرعة إمامًا يأتم به، وهاديًا له في الظلمات، إشارة إلى ما ذكـر بأن اسم الرسول (محمد) اقترن باسم (الله) تعالى في العرش منذ خلق الله السموات والأرض:

يـــا نفحـــة مـــن جنـــان الخلـــد ســـارية		كالورد يلثم فـــي الأســـحار مـــن أمـــم
إنـــي محـــب ومحبـــوب ولـــو زعمـــوا		أن المحبـــة بالأنســـاب والـــرحم
فالنـــاس مـــن آدم بالمصـــطفى اجتمعـــوا		وشـــرعة الحـــب أم النـــاس فـــأتمم

ويستمر الشاعر في مناجاة الرسول عليه السلام بذكر ما تميز به من خلقٍ رفيع، وطبع رقيق، ووفاء بالعهد والذمم، وقد تعشق الشاعر ذلك من الرسول، وفتن به، كغيره من الشعراء الذين هـاموا حبًـا

بالفتيات الفاتنات، هذا الحب قد يكون سببًا في انبثاق وحي يخلد صاحبه، ويأتي بعظيم الأشعار أو الأعمال، وأن الرسول شمس يدور في فلكها نجوم الشعراء فيستنيرون بضيائها، دون أن يبلغوا قوتها في الإضاءة، ولولا أن الشاعر يقبس شعره من شمس الهداية ما حسن شعره ولا جاد، مثله مثل النبع لا يسيل لولا هطول الأمطار، ولئن كان شعره طلاً من غيثٍ فإن ذكر الرسول في الشعر يثري المعنى ويجعله كثيفًا غزيرًا:

يا أجمل الخلق سيماء وأظرفهم		طبعًا وأوفاهم بالعهد والذمم
عشقت منك صفات جل مبدعها		كالغيد تفتن لب الشاعر الفهم
يرنو فيمنحه وحيًا يخلده		ورب حب مثير جاء بالعظم
ورب نجم منير يستضيء بكم		((فأنتم الشمس لم تدرك ولم ترم))
وحسن شعري بكم من شمسكم قبسٌ		والنبع ما سال لولا صيب الديم
فإن أجدت بهذا الطل مدحكم		فكل معنى بكم كالهاطل العرم

ويشير الشاعر إلى علو قدر الرسول عليه السلام بتحية الله له وصلاته عليه، والناس كذلك يفعلون، وإن كانوا في ذلك أعجز من أن يدركوا ربهم في ذلك أو يقتربوا منه، ولئن لجأ الشاعر إلى رسم أخلاق الرسول وصفاته في صورة زاهية، فلأنه ينوي التعلل بها مستجيرًا برسول الله يوم البعث والنشور، ثم ينادي الرسول بما هو عظيم فيه، وهو هداية الفكر البشري، فكان بذلك أعظم هدية من خالقه لعباده، وذلك فضل، وتلك منة من الله كبرى وعظيمة، ويؤكد صدق عاطفة الحب فيه ولو خلا شعره من الزخرفة والتنميق، مؤكدًا لنفسه أن الرسول يفرق بين شعر وشعر، ويقف على صدق الحب من عدمه، فهو ليس ممن ينخدعون بزخرفٍ من القول وزور:

حياك ربي بآيات مفصلة		والناس أعجز عن إدراك ربهم
لكنها صورة بالشعر أرسمها		لأستجير بها إن بت كالحلم
يا هادي الفكر أهداه الإله إلى		عباده منة من فضله العمم
إن يمدحوك بأبيات منمقة		فأنت تفرق قلبي عن قلوبهم

ثم يؤخذ الشاعر بدهشة الإعجاب أن صنع الله نبيه على هذا النحو العظيم، وأن نور هدايته –لو شاء الله– لعم الخلق كلهم في جميع بقاع الأرض، ثم يقسم الشاعر على الرسول بأن يشفع للجميع إن لم يكن وكيلاً لهم يوم المحشر، وأقسم له بحق ما يتردد في الحرم من كلمات التوحيد، ويطلب الشاعر

إلى الله تبارك وتعالى أن يصلي على نبيه لقاء إحيائه الأرواح، ويتغمد مثواه بالنور على مر الزمان، وأن يعطر ويخلد ذكراه إلى يوم الدين.

تبـــارك الله لـــو شـــاعت مراحمـــه		لشـــع نـــورك بـــين النـــاس كلهـــم
إن لـــم تكـــن بوكيـــل فاشـــفعن لنـــا		بحـــق ترديـــدنا التوحيـــد فـــي الحـــرم
صـــلى الإلـــه علـــى محـــاك فـــي مهـــجٍ		تحيا بهـــا كحيـــاة النـــور فـــي الســـدم
صلى الإله علـــى مثـــواك مـــا صـــدحت		ورقـــاء أو هينمـــت عطريـــة النســـم
صـــلى الإلـــه علـــى ذكـــراك ممتـــدحًا		حتـــى تـــؤم صـــلاة البعـــث بـــالأمم

التحليل:

لم يكن الشاعر تقليديًا في افتتاح القصيدة بالغزل أو التشبيب، على عكس ما لاحظناه عنـد الشـاعر ((أحمد محفوظ))، بل رأينا شاعرنا يثور على النمطية من وقوع تحت تأثير جمال ريم القاع، والبكاء بسبب الصد والتحول، ومزج الدمع بالدم، فنراه يفصل مزج الروح بروح الرسول عليه السلام على مزج الدمع بالدم ((وتعطير الأنف بشم رائحة روضة الرسول ألذ من عشق فتاة القاع أو الأكم.

وفي مقدمة القصيدة نرى الشاعر يستحضر ((البوصيري)) في مطلع قصيدته:

أمـــن تـــذكر جيـــران بـــذي ســـلم		مزجت دمعًـــا جـــرى مـــن مقلـــة بـــدم

فيستخدم بعض عباراته إما على نحو ما ذكر البوصيري في الشطرة الأولى مـن المطلـع، وإمـا يستخدمها متمردًا على معناها، فبينما يسفح البوصيري دمعه ويمزجه بدمه لتذكر الأحباب القـاطنين المجاورين لحي ((ذي سلم)) نرى شاعرنا يرفض هذا المزج على تلك الصورة ويرى مـزج روح المؤمن بروح نبيه أجدى وأنفع.

كما نرى شاعرنا يستحضر ((البارودي)) في مطلع قصيدته:

يـــا رائـــد البـــرق يمـــم دارة العلـــم		وأحـــد الغمـــام إلـــى حـــي بـــذي ســـلم

فيستخدم ((دارة العلم)) وقد شع منها نور الرسول الهادي، وذلك على نحو لم يصوره ((البارودي)) كما يستحضر ((شوقي)) وهو يتحدث عن ريم القاع التي سفكت دمه في الأشهر الحرم التي يحـرم فيها سفك الدماء، في مطلع قصيدته:

ريـــم علـــى القـــاع بـــين البـــان والعلـــم		أحل سفك دمـــي فـــي الأشـــهر الحـــرم

ومعلوم أن سفك الدماء يكون بسهام العشق والهيام الرائشة، والشاعر وإن لم يكن قد بدأ بـالغزل أو النسيب فقد لجأ إلى شيء من ذلك في أخريات القصيدة، ولكن دون استرسال وإطالة.

ولو استعرضنا وسائل التعبير عند الشاعر لوجدنا المآخذ عليها محدودة، فقد رأيناه يملك زمام اللغة بحيث لم تستعص عليه كلمة أو فرضت القافية عليه لفظًا، وإن كنا نراه قد أقحم قوله ((علم الإنسان بالقلم)) في بيته:

فاسلم بنفسك إن الروح يفوزها		رضا الذي علم الإنسان بالقلم

فالعبارة وإن كانت صفة من صفات المطلوب رضاه حقًا وهو الله تبارك وتعالى، إلا أنني أرى العبارة مقحمة، ومجالها الأوفق الأدق عند الحديث عن التعليم والثقافة.

هذا ونلاحظ أن الشاعر لم يشر إلى حمل الرسول، أو ولادته، أو مراحل حياته الأولى ، بل بدأ بزمن البعثة ونزول الوحي، ثم استمر على هذا النحو، فلم يلتفت إلى الوراء ولو لحظة واحدة، وهذه رؤية جديدة، ونسق جديد، في قصائد المدحيات، كما أن الشاعر أوجز الحديث عن معجزات الرسول، ولم يشر منها إلا إلى القرآن الكريم فحسب، كذلك لم يشر من قريبٍ ولا من بعيد إلى غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو وإن كان كذلك إلا أنه عالج الموضوع وتناوله برؤية جديدة، تمثلت في التركيز على الإشادة بالنظام الاجتماعي الرائد الذي أرسى الرسول دعائمه على العدل والمودة والمساواة والتواضع والتراحم، كما أوضح محاربة الرسول لبعض العادات السيئة التي عرفت عن العصر الجاهلي مثل وأد البنات، وأشار إلى جهده في تقرير حقوق المرأة، وفرض احترامها، وتوريثها بعد أن كانت تورث.

كما أومأ إلى النظام الاقتصادي الناجح الذي جاء به الرسول من زكاة وصدقة، فأشاع به العدل الاجتماعي والطمأنينة بين الناس.

وقد ركز الشاعر على أعظم قيم الحياة الخالدة وهي الحب الطاهر النقي، كما أفاض في الحديث عن الأثر الحميد الذي تركته الشريعة الإسلامية الغراء في النفوس؛ حديث المثقف الواعي.

هذا وقد كان الشاعر قادرًا على استقصاء المعاني والتوليد فيها.

وما أجمله وهو يستنبط أعماق أعداء الإسلام ويظهر جوانيتهم في بيته:

فاستضحك القوم هزءًا واستبد بهم		وهمٌ فصيرهم لحمًا على وضم

وذلك بعد أن طلب الرسول لهم من ربه الهداية، فكان الرد عليه هو الاستضحاك، والتركيب اللغوي للكلمة يفيد أن الضحك خرج منهم دون أن يكونوا مقتنعين بسببه، فمبعث ضحكهم هو العناد والاستكبار، وكأن الشاعر استوحى قول الله تعالى: **{ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله}** ولكنهم أخفوا هذا الإيمان عنادًا واستكبارًا.

كما كان الشاعر موفقًا في بيته:

يا عبقري الــورى الأمـــي هــل ســمعت		من قبلك العــرب وحيًــا جـد منســجم

وسر التوفيق أنه نعت الرسول بالعبقرية، وأنه فوق عباقرة العالم، بل اعتبره العبقري الوحيد في هذا الكون، ومبعث العجب والإعجاب أنه قرن العبقرية في الرسول بأميته فكأن الرسول على غير مــا ألف الناس، إذ المتصور في العبقري أن يكون مثقفاً يتقن القراءة والكتابة كشرط أساسي مبدئي فــي العبقري، ولكن الرسول لم يكن ليكتب أو ليقرأ، وقد بلغ الشاعر قمة الأداء والتعبير الدقيق الرائــع، وهو يرى الناس وقد اختلفوا جنسًا ولوناً ولغة ومشربًا، وإذ بالرسول يجعل من هذا الجمع المتنــافر كلاً متناسقاً في نظامٍ بديعٍ خلاب، وذلك في بيته:

كأنمــــــا النـــــــاس آلات مبعثــــــرة		أخرجت منهــا جميــل اللحــن والــنغم

وما أروع الشاعر وهو يقدم صورًا متقابلة، ليكون العتبير أقوى، والوعظ أبلغ، والعبرة أدنـــى إلـــى التقبل والاحترام.

انظر إليه وهو يقابل بين صورة ذهب معها كل شيء برحيل أصحابها عن الدنيا وزوال عصـــرهم حيث تعرت هذه الصورة من عناصر البقاء، وبين صورة باقية خالدة خلود الدهر لما تحمــل مــن أسباب البقاء والخلود،

يقول الشاعر:

أبنــــــاء بابــــــل أفنــــــتهم مآثمهـــــــا		وآل فرعــون ماشـــادوا ســوى الهـــرم
وتـــــدمر ومغانيهـــــا غــــدت خربًــــا		والذكر بــالخير غيــر الــذكر بــالإرم
يـــا ليـــت مـــن شـــيدوها للفنـــاء رأوا		عقبـــى المبـــاني فـــأغنتهم عـــن النـــدم
زالـــوا وزالـــت مـــع الآثـــار عـــزتهم		فـــإن تجـــادل ســل التـــاريخ واحـــتكم
والمصطفى خالدٌ في الناس ما بزغت		أم النجــــوم وممــــدوح لكـــــل فـــم

ولنا أن نلمح نزعةً صوفية، وكأن الشاعر يؤمن بمذهب الحلول

وهو يقول:

إنـــي محـــبٌ ومحبـــوبٌ ولـــو زعمـــوا		أن المحبــــة بالأنســـــاب والـــــرحم

هذا وقد كان الشاعر يتقمص شخصية المسلمين، وهو يناجي الرسول، وقد يقنع الإنسان نفسه بـــأن الشاعر مقتنع فيما بينه وبين نفسه بالرسول ورسالته، ولكن أن يصل الشاعر في تصويره وحديثه أنه يردد التوحيد في الحرم فهذا التعبير يجعلنا لا نقتنع بما يستكن في قلبه من اقتناع واستسلام، وذلـــك على نحو ما قال في بيته:

إن لـــم تكـــن بوكيـــل فاشـــفعن لنـــا		بحـــق ترديـــدنا التوحيـــد فـــي الحـــرم

ولكن ما بال الشاعر وقد اعترف بأن الطب النفسي الذي نجح فيــه الرســول، ورعيتــه لليتــامى والأرامل، وكان للجميع أبًا، ما باله وهو يعترف بكل ذلك يطلب إليه رعاية اليتامى في بيته:

فـــارع النفـــوس التـــي ذلـــت ويتمهـــا		فقد الكـــريمين: حـــب الخيـــر والشـــمم

فهل الرسول في حاجة إلى مزيد من التوجيه؟! أم ذلك من قبيل ((ولكن ليطمــئن قلبــي)) تعاطفًــا وتراحمًا؟ يبدو أن الشاعر اندمج في اليتامى والمساكين والضعفاء فدفعه الحدب والعطف والإشــفاق ليطلب مثل هذا الطلب.

هذا وقد اضطرب التسلسل الفكري عند الشاعر اضطرابًا كثيرًا، فقد تحدث عن العدل في بيته:

وعلـــم العـــرب حتـــى ســـاد نســـلهم		هـــام الممالـــك وارتاحـــت لعـــدلهم

وتحدث في البيت الذي تلاه عن الوفاء بالعهد فقال:

كأنمـــا الشـــرع جـــزء مـــن نفوســـهم		فإن هم وعـــدوا اســـتغنوا عـــن القســـم

ثم عاد في البيت التالي إلى الحديث عن العدل وهم يقسمون الغنائم وغيرها حيث قال:

قـــوم إذا استخصـــموا كـــانوا فراعنـــة		فـــإن هـــم قســـموا أرضـــوك بالقســـم

وبعد عدد كبير جدًا من الأبيات عاد إلى الحديث عن الوفاء بالوعد في بيته:

يـــا أجمـــل الخلـــق ســـيماء وأظـــرفهم		طبعًـــا وأوفـــاهم بالعهـــد والـــذمم

ثم عاد إلى الحديث عن العدل في بيته:

فيـــا نبـــي الهـــدى حييـــت مـــن علـــم		بـــالطهر متســـم بالعـــدل مـــدعم

وكثيرًا ما تحدث عن الحب في أثوابه المختلفة، فتارة يشير إلى الحب الخالد في عمومه، وتارة يتكلم عن حبه للرسول، وثالثة يرى الرسول أولى بالحب من قبل الشاعر وغيره، ورابعــة يــذكر حــب الصحابة بعضهم لبعض، ولكنه لم يكن يستوفي الحديث عن ظاهرة الحب هذه في مكــان واحــد أو مقطع واحد، إنما كان يعيش تحت تأثير العاطفة الفوارة التي يستجيب لها كلما فارت واضطرمت.

هذا الاتجاه لمسناه وهو يعدد أخلاق الرسول عليه السلام وصفاته.

وإظهار الافتتان بها، وهذا الاضطراب الفكري رأيناه وهو يبين أثر الشريعة الغــراء فــي الحيــاة الاجتماعية والاقتصادية.

ولقد كان الشاعر يتمثل القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وهو يقرض شعره، حيث نـراه يتـأثر بهما في العبارة أو المعنى، ويقتبس منهما، مما أضفى على شعره حيوية وطرافة وجدة، إذ هو فـي مجال العظة والاعتبار يؤكد أن الموت سينزل بكل مخلوقٍ وفي أي مكان فيقول:

وهـل تفيـدك أبـراجٌ مشـيدةٌ		والموت في القصر مثل المـوت فـي الخـيم

فهو متأثر بقوله تعالى: **{أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروجٍ مشيدة}** وقولـه: **{قـل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم}**.

وقوله:

والعمر إن طال يـوم لا رجـوع لـه		فهـيء الـزاد قبـل الشـيب والهـرم

متأثر فيه بقوله تعالى: **{لكل أجلٍ كتاب}**، وقوله **{وتزودوا فإن خير الزاد التقوى}**.

وقوله:

أحببـت دينـك لمـا قلـت أكـرمكم		أتقـاكم وتركـت الحكـم للحكـم

متأثر فيه بقوله تعالى: **{إن أكرمكم عند الله أتقاكم}** وقوله: **{ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي مـن يشاء}**.

وفي بيته:

وقلـت إنـي هـدى للعـالمين ولـم		تلجـأ إلـى العنـف بـل أقنعـت بـالكلم

يتأثر بقوله تعالى: **{ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة}**، وقوله: **{ولو كنت فظًا غلـيظ القلب لانفضوا من حولك}**.

وقوله في بيته:

في دينك السمح لا جـنس ولا وطـن		فكـل فـرد أخ يشـدو علـى علـم

متأثر بقوله تعالى: **{وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا}** وقول الرسـول: (**(لا فضـل لعربـيٍ علـى عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى)**).

وقوله في بيته:

خاطبـت كـل ذكـي حسـبٍ قدرتـه		ولـم تكـن بغبـي القـوم بـالبرم

متأثر بقول الرسول عليه السلام: (**(خاطبوا الناس على قدر عقولهم)**).

بين القصدتين:

نلاحظ أن الشاعر ((أحمد محفوظ)) كان في مطلع قصيدته نمطيًا تقليديًا، بمعنى أنه بدأها بالنسيب واستمر في ذلك حتى استوعب أحد عشر بيتًا، بينما الشاعر ((ميشيل الله ويردي)) قد تمرد على هذه النمطية على نحو ما ذكرت في التحليل.

ولئن كان ((أحمد محفوظ)) قد تعرض لظاهرة الحب، فإنه لم يكن بالعمق والصفاء الذي كان عليه ((ويردي)) في قصيدته، حيث أراده حبًا طاهرًا شفيفًا شفافية حب الملائكة لربهم، وعندما نسب كان أدق في تعبيره عن لوعة الحب عندما اعتبر نيران اللوعة سببًا في امتداد أناشيد التباريح والجوى.

مـــدت أناشـــيده نيـــران لوعتـــه		ففرجـــت عـــن عليـــل بالجمـــال رمـــى

وقد صيرت شدت الحب من ((ويردي)) محبًا ومحبوبًا على نحو لم نلمسه لدى ((أحمد محفوظ)).

أما عن الصياغة لدى الشاعرين، فقد كان ((أحمد محفوظ)) سهل العبارة، مشـــرق الديباجـــة، قريب المأتى والمأخذ، أما ((ويردي)) فقد كان جزل العبارة، يدعو القارئ إلى الأنـــاة حتـــى يستوعب ما يريد، وإن كان ذلك في غير صعوبة أو إلغاز، وعن بنية العبارة، فقد كانت ألفاظ ((محفوظ)) أكثر بساطة وسهولة من ((ويردي)) وإن كان ((محفوظ)) قد فرضت عليه القافية بعض الألفاظ، كما كان يميل إلى استخدام بعض الألفاظ التي قل استعمالها على نحو ما أشرت إليه أيضًا في التحليل.

ركز((محفوظ)) مواعظه تحت عنوان محدد، بينما ((ويردي)) كان يثب في مواعظه خضوعًا للبوارق التي تلوح وتختفي.

قوة الشاعرية متوفرة في قصيدة ((ويردي)) أكثر منها في قصيدة ((محفوظ))، فقد كانت تمكن ((ويردي)) من الاستقصاء والتحليل والتعليل، وإن كان لذلك وجود لدى ((محفوظ)).

الموسيقى الداخلية التي تنبعث من الشعر تمتع بها شعر الشاعرين، وإن كانت أكثر بروزًا في شعر ((محفوظ)).

لجأ الشاعران إلى الصور المتقابلة لإثراء المعنى والتشـــويق إليـــه، والإقنـــاع بـــه، وكـــان ((محفوظ)) أكثر استعمالاً لهذا النمط من التعبير.

الاضطراب في التفكير كان قاسمًا مشتركًا بين الشاعرين، وإن كان من جانـــب ((ويـــردي)) أكثر.

الصور والأخيلة لم تكن عند محفوظ بالعمق والتحليق مثلما لمسناه في شعر ((ويردي)).

((ويردي)) كان أكثر إبرازًا لجانب الشريعة العملي وأثرها في بناء دولة قوية البنيان على نحو مسه ((محفوظ)) مسًا محدودًا.

يتضح في شعر ((ويردي)) أثر الثقافة المدنية، وهو يتناول حديث البابليين، والفراعنة، والتدمريين، ومذاهب الإلحاد الاقتصادية، وتشدق الغربيين سبقهم العرب في مضمار الحضارة والمدنية، واستقرار النظم الاجتماعية لديهم وتحقيقهم للحرية مما يفخرون به على الأجيال والدول، وقد أفحمهم بالواقع الملموس، وبذلك عبر برؤية جديدة عما يريد، وهو ما ليس له وجود في شعر ((محفوظ)).

تناول ((محفوظ)) بعض معجزات الرسول على نحو أوسع من تناول ((ويردي)) لذلك، أما الغزوات فقد أضرب ((ويردي)) عن ذكرها صفحًا، ولا أدري هل سبب ذلك هو محدودية المعلومات عن التاريخ الإسلامي، فتجنب الحديث فيها خوفًا من الزلل؟ أم إنه ممن يدعون أن الإسلام انتشر بحد السيف فهو لا يريد النظم في شيء غير مقتنع به، أم إن نفسه قد اعتراها البهر فلم يستطع أن ينطلق أكثر من ذلك، أم إن العاطفة استنفدت طاقتها وخبا أوارها، فلم يعد للشاعر معين يمده بأكثر مما قال، أم إنه اكتفى بما ذكر، ورأى فيه الكفاية للتدليل على تفاعله وتجاوبه مع إخوانه المسلمين؟

وهذا يجرنا إلى الحديث عن العاطفة لدى الشاعرين:

الذي يقرأ بردة ((محفوظ)) يلمس فيها الصدق العاطفي متوفرًا أكثر مما يلمسه في وحي بردة ((ويردي))، وكان في الإمكان أن ينخدع القارئ فيحكم بتوفر الصدق العاطفي أكثر لدى ((ويردي)) لولا أنه أعلن عن ديانته، مما يشكك في صدق تلك العاطفة، ولذلك تجنب أمورًا يطرقها كل المجيدين من المادحين للرسول صلى الله عليه وسلم، فلم يشر إلى الأم، وطهارتها وعراقة أرومتها، كما لم يشر إلى حمل الرسول وولادته والبركات التي حلت بقومه وقوم مرضعته، كذلك لم نجد منه شوقًا إلى المدينة وزيارة قبر الرسول عليه السلام ومع ذلك فقد أكثر فيما لم يكثر منه ((محفوظ)) –المسلم– وأعني به الاقتباس من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة على نحو ما أشرت إليه في التحليل.

وإذا كان ((ويردي)) قد دعا العرب إلى نبذ الشقاق، والعودة إلى وحدة الصف، وألح في ذلك حتى لكأنه قائد سياسي، فهذا ما ليس له وجود في قصيدة ((محفوظ)).

الفصل الثاني

بين المتنبي وشوقي

بين المتنبي وشوقي

اللوم والعتاب من فنون الشعر قديمًاوحديثًا، فقد دارا مع الزمن حيث دار، وبواعث اللوم تتعدد وتتخذ أشكالاً وأنماطًا مختلفة، وأغلب ما يكون اللوم والعتاب من صديق إلى صديقه، أو من إنسان خاب ظنه في إنسان آخر أو مجموعة من الناس، كما أن اللوم والعتاب قد يكونان من الرقة واللطافة، بحيث تتسكب معهما العبرات، كعتاب ((أبي فراس الحمداني)) لابن عمه ((سيف الدولة)) أن تركه في الأسر لدى الروم دون أن يعمل على إنقاذه من أيديهم، وربما بلغ عتاب ((أبي فراس)) مبلغًا اكتسى به وشاحًا صوفيًا صادقًا خالصًا كما في أبياته:

فليتك تحلو والحياة مريرة		وليتك ترضى والأنام غضاب

وليـــت الـــذي بينـــي وبينـــك عـــامر		وبينـــي وبـــين العـــالمين خـــراب
إذا صـــح منـــك الـــود فالكـــل هـــين		وكـــل الـــذي فـــوق التـــراب تـــراب

هذا الشعر أرق ما قيل في الأدب العربي من عتاب.

وقد يكون العتاب من العنف والقسوة ما يسجل المذلة والهوان على المتلقي للعتاب، وقد يكون من أثـر اللـوم والعتاب أن يرتدع المخطئ، ويعود إلى حظيرة الصواب، أو قد يركب رأسه فيتحول إلى إنسان معاند، يسـدر فيما جر عليه اللوم والعتاب.

الأسباب كثيرة، والنتائج متعددة، وسنرى –بتوفيق الله– طرفًا من ذلك لدى كل من المتنبي وشوقي.

أولاً: المتنبي

لما لم يجد ((المتنبي)) عند ((سيف الدولة)) ما أمل، ووقف الحاقدون في طريق طموحه سدًا منعًا، تحول عن أميره إلى ((كافور الإخشيدي)) في مصر، عسى أن يظفر بحلمه هناك، ولكنه أفاق من حلمـه عنـدما وجـد ((كافور)) يتجاهله، حتى بلغ به الأمر أن حدد إقامته، وسلبه حريته، فتداعت عليه العلل والكوارث، ووجد من الناس جفاء له، مجاملة للسلطان، وهنا أخذ يلوم هؤلاء الحاقدين المنافقين، ويكشف طبـائع البشـر، وفسـاد المجتمع، وحرب الزمان له معرضًا ((بكافور)) الذي ضيع أمله، كما أخذ في وصف الحمى التـي أصـابته وذلك في جو من المرارة والألم، ولم يفته أن يفخر بنفسه، ويعلي من قدره في معظم أفكار هذه القصيدة.

هذا، وقد استهل الشاعر قصيدته بالتبرم والضيق من هؤلاء اللائمين، الذين جعلوا منـه غرضًـا لسـهامهم، مترفعًا عما يجلب عليه اللوم، فإن أفعاله الكريمة فوق مستوى الشبهات والنقد، ثم يتضاعف لهيب الثورة على هؤلاء، مظهرًا – في صراحة – أنه كره الإقامة بينهم، ولم يعد به صبر عليها، لذلك فقد ثار علـى حسـاده، رافضًا مساعدتهم، مبديًا استعداده لأن يضرب في جوف الصحراء المهلكة دون انتظار دليل أو مؤنس، ودون أن يرحم وجهه من هجيريا اللافح، ففي ذلك راحته وسلواه، وجريًا على طبعه من النشـاط والحيويـة، فـإن الإقامة الطويلة ترهقه، وإذا كان يرفض الدليل في هذه الصحراء الموحشة بعد أن يئس من الاطمئنـان إلـى الناس، فإنه يصطحب ما هو وفي متفاعل الأحاسيس والمشاعر، وهي رواحله التي يبصر بعينها الصـادقة إن اختلط الأمر عليه، وضل في مسالك الصحراء، والتي يقوم صوتها مقام صوته إن ضعف عن إسماع النـاس، كما إنه يهتدي إلى مواقع الماء بمجرد أن يرى السحب الممطرة مصحوبة ببرق السماء، وأنه شجاع لا يحتاج إلى من يحميه، ويوفر له الأمان، فقد اتخذ من ربه وسيفه حاميين له، وهو يمشي فريدًا في الصحراء، كما أنه كريم عف لا يحط برحله إلا على الكرماء.

ملومكمـــا يجـــل عـــن المـــلام		ووقـــع فعالـــه فـــوق الكـــلام [2]
ذرانـــي والفـــلاة بـــلا دليـــل		ووجهـــي والهجيـــر بـــلا لثـــام

---

[2] ديوان المتنبي – ص 272 عبد الرحمن البرقوقي – دار الكتاب – بيروت.

فـــــــإني أســــــتريح بــــــذي وهـــــذا		وأتعـــــــب بالإناخـــــــة والمقــــــام
عيــــون رواحلــــي إن حــــرت عينـــي		وكـــــل بغــــــام رازحـــــة بغــــام
فقـــــد أرد الميـــــاه بغيـــــر هـــــاد		ســــوى عـــدى لهـــا بـــرق الغمــــام
يـــــذم لمهجتــــــي ربـــــي وســـــيفي		إذا احتـــــاج الوحيـــــد إلـــــى ذمـــام
ولا أمــــس لأهـــــل البخـــــل ضـــــيفًا		ولـــــيس قــــرى ســـوى مــــخ النعـــام

ويمضي الشاعر فنراه يعطينا دليلاً جديدًا على رفضه أصطحاب دليل من الناس، لأن النفاق أصبح ديـدنهم، وقد تحولوا عن الحب إلى اللؤم والوضاعة، ولذلك فمن الحكمة أن يجاريهم، عملاً بقول الحكيم:

فــــدارهم مــــا دمــــت فـــي دارهـــم		وأرضـــــهم مــــا دمــــت فـــي أرضـــهم

وقد صار الشك في كل الناس يلازمه، ما داموا ينتسبون إلى فصيلة البشر، حتى في أقرب الناس إليه، وذلـك بعد أن انقرض في الناس ذلك الحب النوراني القائم على صفاء القلب، وقام الحب على أسـاس خـداع مـن الوسامة والمظهرية، ثم يعلن الشاعر رفضه لهذا النوع من الحب والمحبين، حتى ولو كان أخوه الشقيق مـن بينهم، ولا عجب في أن يختلف مع أخيه في الهوى والاتجاه، فإن الفضائل التي يرثها الأبنـاء عـن الآبـاء والأجداد كثيرًا ما تغلبها الرذائل المكتسبة من فساد المجتمع:

فلمـــــا صـــــار ود النـــــاس حبًـــــا		جزيـــــت علــــى ابتســـــام بابتســـــام
وصــــــرت أشــــك فـــيمن أصـــطفيه		لعلمــــــي أنـــــه بعـــــض الأنــــام
يحـــــب العـــــاقلون علـــــى التصـــــافي		وحـــــب الجـــــاهلين علــــى الوســـــام
وآنــــف مـــــن أخــــي لأبـــــي وأمـــــي		إذا مــــا لــــم أجـــده مــــن الكــــرام
أرى الأجــــــداد تغلبهــــــا كثيـــــرًا		علــــــى الأولاد أخــــــلاق اللئــــــام

ويؤكد الشاعر أنه لم يفقد أصالته أو شخصيته، ولهذا فإنه لا يقنع بأن ينتسب إلى المجد عن طريق جد عظيم، فيكون بذلك عالة على مفاخر الآباء والأجداد، بل إنه يضيف إلى الموروث من الفضائل أمجادًا جديدة، وبذلك يدفع بدم جديد في عروق أرومته العربية العريقة، وهذا هو مبعث فخره واعتـزازه، أمـا هـؤلاء الكسـالى الخاضعين الذين يملكون القدرة على تغيير الفساد، فهم موضع عجب ودهشة مـن الشـاعر، لأنهـم وهبـوا الطاقات والمواهب ثم عطلوها، ورضوا لأنفسهم بالنقيصة والعجز، ثم ينعي الشاعر على هؤلاء الذين انفـتح لهم طريق العلا والرفعة على مصراعية ثم جبنوا عن ولوج بابه بتعطيل ما وهبهم الله من قدرة علـى ذلـك، فمثلهم كمثل من يسير في الصحراء دون أن يتخذ لنفسه عدة الرحيل، كما يسجل الشاعر عيبه علـى أولئـك القادرين على عمل عظائم الأمور، ثم هم يرضخون للخمول والكسل.

ولســــت بقــــانع مـــن كــــل فضــــل		بــــأن أعــــزي إلــــى جــــد همـــام

عجبـــــت لمـــــن لـــــه قـــــد وحـــــد		وينبـــو نبـــوة القضـــم الكهـــام
ومـــن يجـــد الطريـــق إلـــى المعـــالي		فـــلا يـــذر المطـــى بـــلا ســـنام
ولـــم أر فـــي عيـــوب النـــاس عيبًـــا		كـــنقص القـــادرين علـــى التمـــام

ويصل الشاعر لى حالة من اليأس والقنوط بعد أن سد عليه ((كافور)) كل منافذ الأمل والرجاء، ولذلك فقد فقد الهدف من الحياة، وماتت كل الآمال صغيرها وكبيرها وهو مقيم في أرض مصر، حتى أقعده ذلك عن الحركة والنشاط، مما ألزمه الفراش، وكان قبل ذلك يتجافى جنبه عن مضجعه، ويمل لقاءه مرة في العام، وقد زاد من همومه أن انقرض الأصدقاء والزائرون، فالناس على هوى ملوكهم، يصلون من يصلون، ويقطعون من يقطعون.

ولذلك فقد مرض قلبه، ولكن يريح نفسه أن كثر حساده بعد ذلك – دلالة العظمة فيه – وبعد مرماه، فلم يصلوا إلى القمة التي يعتليها، ثم يعود مرة أخرى إلى بيان أن الفراش أثر في جسمه، فأضحى عليلاً، لا يقوى على الوقوف، فقد صار فريسة للأمراض التي جعلته يعيش في غيبوبة شديدة كالسكران، وقد سلب الوعي، والفكر الرزين:

أقمـــت بـــأرض مصـــر فـــلا ورائـــي		تخـــب بـــي المطـــر ولا أمـــامي
وملنـــي الفـــراش وكـــان جنبـــي		يمـــل لقـــاءه فـــي كـــل عـــام
قليـــل عائـــدي ســـقم فـــؤادي		كثيـــر حاســـدي صـــعب مرامـــي
عليـــل الجســـم ممتنـــع القيـــام		شـــديد الســـكر مـــن غيـــر المـــدام

ويبدأ الشاعر بتحديد بعض مصادر الألم الذي يعانيه، وهو تلك الحمى التي تزوره على استحياء، وتتخذ من الظلام ستارًا تتسلل تحته إلى معشوقها خوف الرقباء والعزال، ويحاول التخلص منها حتى لا تسكن جسده ببذل فاخر الفراش، إلا أنها تدل عليه، وتأبى المنام إلا في جسمه، وفي عظامه على وجه الخصوص، وهي تمعن في إيجاد مكان لها في جسمه، فإذا ما ضاق جلده عن جسمه وعنها، أذابت الشحم واللحم منه، لتتخذ لنفسها قرارًا مكينًا، وأنها لا تهجره إلا بعد أن يتصبب عرقه، ويغتسل به جسده، وكأن هذا العرق دموعها التي تنهل لمطاردة الصبح لها، وأنها لا تفارقه إلا كارهة، ولذلك فإنه ينتظر العودة في غير اشتياق، وشتان بين انتظار مشتاق، وانتظار كاره واجف يتوقع عذابها، وللأسف لم تخلف وعدًا كلما جن المساء، فهي وفية بالعهد، ولكن ما أشقاه بذلك الوفاء.

وزائرتـــي كـــأن بهـــا حيـــاء		فلـــيس تـــزور إلا فـــي الظـــلام
بـــذلت لهـــا المطـــارف والحشـــايا		فعافتهـــا وباتـــت فـــي عظـــامي
يضـــيق الجلـــد عـــن نفســـي وعنهـــا		فتوســـعه بـــأنواع الســـقام
إذا مـــا فـــارقتني غســـلتني		كأنـــا عاكفـــان علـــى حـــرام

كـــــأن الصـــــــبح يطردهــــــا فتجـــــري		مــــــــــدامعها بأربعـــــــــــة ســــــــجام
أراقـــــب وقتهـــــا مـــــن غيـــــر شـــــوق		مراقبــــــــــة المشــــــــوق المســــــــتهام
ويصــــــــدق وعـــــــدها والصـــــــدق شــــــر		إذا ألقـــــــاك فـــــــي الكــــــرب العظـــــام

ويستعطف الشاعر الحمى، ويعجب من قدرتها على اقتحام زحام الكوارث حوله، والوصول إليه دون عـــائق يمنعها، وأنها لم ترفق به، فقد جرحته فوق جراحه، حتى لم يبق في جسمه مكان لجرح آخر، ثم يرجو الشفاء من تلك الحمى التي أذبلت أطرافه، وأفقدت يده القدره على الحركة والتصرف، كما يتمنـــى أن يصـــل إلـــى أهدافه على إبل نشيطة، وأن هذا الشفاء سيمكن له من أن يشفي غليل صدره من أعدائـــه بمختلـــف أســـلحة الانتقام، وأن برأه من مرضه سيتيح له التخلص من العقبات والأزمات، لأنه خبير بطـــرق الخـــلاص منهـــا، وحينئذ سيفارق ((كافور)) إلى بلاده.

أبنـــــــت الــــــدهر عنـــــدي كـــــل بنـــــت		فكيـــــف وصـــــلت أنـــــت مـــــن الزحـــــام؟
جرحـــــــت مجرحًـــــــا لـــــــم يبـــــق فيـــــه		مكـــــــــان للســــــــــيوف وللســــــــــهام
ألا يـــــــا ليـــــــت شـــــــعر يـــــــدي أتمســـــــي		تصـــــــــرف فـــــــــي عنـــــــــان أو زمـــــــــام
وهـــــــل أرمـــــــي هـــــــوى براقصـــــــات		محـــــــــلاة المقـــــــــاود باللغـــــــــام
فربمـــــــا شـــــــفيت غليـــــــل صـــــــدري		بســـــــير أو قنـــــــاة أو حســـــــام
وضـــــــاقت خطـــــــة فخلصـــــــت منهـــــــا		خـــــــلاص الخمـــــــر مـــــــن نســـــــج القـــــــدام
وفارقـــــــت الحبيـــــــب بـــــــلا وداع		وودعـــــــت الـــــــبلاد بـــــــلا ســـــــلام

ويتهكم الشاعر على الطبيب، لأنه اعتقد أن سبب المرض يرجع إلى الطعام والشراب، ولـــم يفطـــن إلـــى أن المرض سببه حالته النفسية المنبئسة لحبسه، وهدم صرح آماله الشامخ، فإنه جواد كريم على نفســـه، ومثـــل هؤلاء الكرام إذا طال بهم الاستجمام تعرضوا للمرض، خاصة بعد أن كان من هؤلاء الذين يديمون الاشتراك في الحروب، فما إن يخرج من حرب حتى يدخل في أخرى، ولكنه في ظل ((كافور)) يحبس، ويمنع الحركة، ويحرم الحرية، ومع ذلك فإنه صبور قوي العزيمة، حتى لو انتهى أمره إلى الموت، ولئن سلم الآن من الموت فلأجل معلوم، ثم يدعو إلى الاستمتاع بالحياة في كل حال، إذ في السهاد متعة التأمل والتفكر، وفي الرقاد متعة الراحة من العناء، والقبر ليست فيه هذه المتعة، لأنه يختلف عن السهاد والرقاد.

يقـــــــول لـــــــي الطبيـــــــب أكلـــــــت شـــــــيئًا		وداؤك فـــــــي شـــــــرابك والطعـــــــام
ومـــــــا فـــــــي طبـــــــه أنـــــــي جـــــــواد		أضـــــــر بجســـــــمه طـــــــول الجمـــــــام
تعـــــــود أن يغبـــــــر فـــــــي الســـــــرايا		ويـــــــدخل مـــــــن قتـــــــام فـــــــي قتـــــــام
فأمســـــــك لا يطـــــــال لـــــــه فيرعـــــــى		ولا هـــــــو فـــــــي العليـــــــف أو اللجـــــــام

فـــإن أمـــرض فمـــا مـــرض اصـــطباري		وإن أحمـــم فمـــا حـــم اعتزامـــي
وإن أســـلم فمـــا أبقـــى ولكـــن		ســـلمت مـــن الحمـــام إلـــى الحمـــام
تمتـــع مـــن ســـهاد أو رقـــاد		ولا تأمـــل كـــرى تحـــت الرجـــام
فـــإن لثالـــث الحـــالين معنـــى		ســـوى معنـــى انتباهـــك والمنـــام

التحليل:

أول ما يروعنا الشاعر به هو التوفيق باختيار البحر الذي صب فيه أناته وانفعالاتـه، فنـراه يختـار البحـر ((الوافر)) الذي يتلاءم مع اصطخاب أمواج قلبه، ومع المد والجزر الذي تنطوي عليه جوانحه، ذلك أنا نـراه يثور، ثم يلجأ إلى المدح أو الفخر بنفسه، وهذا ما تمثله تفعيلات بحر الوافر وهي:

((مفاعلتن مفاعلتن فعولن))، فالتفعيلتان الأوليان يمثلان الثورة، والثالثة تمثل الهدوء عندما يمدح أو يفخر.

كما أن اختيار القافية الميمية التي سبقها مد، مناسب لحالته المجهدة التي يحتاج معها أن يفرغ شحنات قلبه مع نهاية كل بيت في مد يمتص تلك الشحنات قبل أن تنفجر بها نفسه.

على أنه لم يصرح باسم الملوم تعاليًا على هؤلاء اللائمين وأن البيت الثاني والثالث يوحيان بحالته النفسية التي ضاقت بالعيش في مصر، وهو لذلك يلمح بالهرب منها، مجتازًا كل عقبة، مرتكبًا كل صعب فـي سـبيل أن يحيا حرًا كما كان، وقد استطعنا أن نلحظ استعلاءه على الناس الذي جعله في يوم من الأيام يقسم ألا يمدح إلا الأمراء، نلمح ذلك من خلال بيته الأول عندما وضع نفسه فوق الشبهات.

كما نلمس الشجاعة في البيت الثاني، حيث استغنى عن المرشد والمؤنس في الصحراء المهلكة، ولـم يلـتمس لوجهه وقاء من حر هجيرها، ونستشف النشاط في البيت الثالث من خلال نغمة الطباق الموسيقية في قولـه: ((استريح وأتعب)).

وقد أفرغ سموم حقده وهو يصور أعداءه في قوله ((قرى مخ النعام)) دلالة على البخل، وسـلك إلـى ذلـك طريق الكناية، وأشار إلى أنه عف لا ينزل ضيفاً على بخيل ولو فقد زاده.

كما أن بيته:

ولا أمســـي لأهـــل البخـــل ضـــيفًا		ولـــيس قـــرى ســـوى مـــخ النعـــام

في نصفه الأول يعكس حميته في أنه يسرع بمغادرة المكان الذي يوجد به البخل، ولا يمنعنـا مـانع مـن أن نعتبر ذلك تعريضًا ببخل ((كافور)) عليه.

على أننا نرى الشاعر يربط نفسه برحى التقاليد الدائرة، عسى أن يكون في ذلك بعـض السـلوى والعـزاء، فيخاطب اثنين على عادة الشعراء القدامى، ويحرص على التصريع في بداية القصيدة.

ويعود ((المتنبي)) إلى التعريض ((بكافور)) وحاشيته في بيته:

وصـــرت أشـــك فـــيمن أصـــطفيه		لعلمـــي أنـــه بعـــض الأنـــام

لأنهم هم الذين فقد فيهم الود المرتقب، والأمل المرجى، والذين لمس فيهم الجفاء والتحول.

كما أنه استخدم كلمة موحيه معبرة عن سرعة التحول عنه، وهي كلمة ((خبا))؛ لأنها من الخبب، وهو ضرب من العدو، وقد صاغ في البيت:

يحـــب العـــاقلون علـــى التســامي	وحـــب الجـــاهلين علـــى الوســام

صاغ فيه الشاعر حقيقة مقررة هي أن العاقلين يقوم حبهم لبعضهم على الصفاء، أما الجاهلون فينخدعون بالشكل والمظهر، وقد صاغ ذلك في لحن المقابلة بين شطري البيت، والذي عرض فيه بهؤلاء المخدوعين الذين أبى إلا أن يصفهم بالجهل.

على أني أعترض على الشاعر في قوله: ((وآنف من أخي لأبي وأمي)) إذ كان يستطيع أن يستخدم كلمة ((شقيق)) بدلاً من: ((أبي وأمي)) وكان يمكن أن يقول أيضًا: ((وآنف من أخي وكذا شقيقي)) لتوسيع دائرة من يأنف منهم، أو للتدرج في الإباء، فإنه على هذا التعبير يكون متعاليًا على أخيه لأبيه أو أمه، وكذلك متعاليًا على أخيه الشقيق الذي هو أقرب إليه من أخيه غير الشقيق.

هذا وقد أوقفنا الشاعر أمام معركة طاحنة، طرفاها الأجداد واللئام في بيته:

أرى الأجـــداد تغلبهـــا كثيـــرًا	علـــى الأولاد أخـــلاق اللئـــام

فإن الأجداد ثارت على اللئام الذين أرادوا انتزاع ميراثهم من الفضيلة لدى أبنائهم ثم تكون لهم الغلبة، ويظل الصراع بين الخير والشر قائمًا ما دامت السموات والأرض.

أما بيت الشاعر:

عجبـــت لمـــن لـــه قـــد وحـــد	وينبـــو نبـــوة القضـــم الكهـــام

فقد ذكر كلمة ((لقد))، وهي تدل على القطع، أو القوام، فإذا أنظرنا إلى المعنى الأول، وجدنا السيف – الملحوظ في كلمة حد – يغني عنه، وإذا استعملنا الثاني فقد خرجنا عن الذوق الأدبي؛ إذ القد لا يستخدم إلا في الغزل بقوام النساء.

ونستطيع أن نوجه المعنى الأول، بأن القطع – الملحوظ في كلمة قد – مقصود به الرأي القاطع، والنظرة الصائبة التي عبر عنها ((أبو نواس)) وهو يمدح ((الأمين)) بقوله:

ملـــك إذا اعتســـر الأمـــور مضـــى بـــه	رأى يفـــل الســـيف وهـــو حســـام

ومع ذلك فنحن نحمد للشاعر روحه المتسامية الأبية في اعتماده على نفسه في كسبه الحمد لها في بيته:

ولســـت بقـــانع مـــن كـــل فضـــل	بـــأن أعـــزى إلـــى جـــد همـــام

وكأنه التقى مع الشاعر العظيم الذي يقول:

لا يقـــول أمـــرؤ كـــان أبـــي	إنمـــا المـــرء بخيـــر العمـــل

ولكن النقاد عابوا على المتنبي استخدام كلمة ((كل)) في بيته السابق، لأن مجيئها في سياق النفي يحولها عن الكلية إلى البعضية، ويكون المعنى المفهوم حينئذ أنه يقنع ببعض أنواع الفضل، وبذلك يحد من طموح نفسه إلى كل أنواع الفضل، فتضعف المبالغة، وتضعف معها صورته الأخاذة التي لم يكن يريد لها ذلك.

ويعود مرة ثالثة إلى التعريض ((بكافور)) وحاشيته من خلال المقطع الثالث، ويختم أبياته بحكمة بالغة في بيته الأخير منه، جعلنا ذلك نقر له بصدقه، ونتفق معه في نظرته، خاصة عندما صاحب تلك الحكمة نغمة موسيقية خرجت من وتر الطباق: ((نقص وتمام)).

ولكن: ما كل هذا الإلحاح على التعريض؟

لا نستطيع أن نلوم ((المتنبي)) على ذلك الإلحاح، بعد أن رأى ما رأى من ((كافور)) وحاشيته، وتنكرت له الأيام في بلاد هاجر إليها لتعوضه عن ((سيف الدولة)) وما فاته وهو بكنفه، فهذه نفس تناوشتها الهموم، واصطلحت عليها الأحزان، حتى صارت – على كثرتها – لا تفزعه، كما قال عن ذلك في مجال آخر:

رماني الدهر بالأرزاء حتى		فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهام		تكسرت النصال على النصال

فإذا ما تجاوزنا المقطع الثالث وجدنا أبيات المقطع الرابع تقطر بعاطفة الألم والندم: الألم؛ لأنه فشل في تحقيق ما يتمناه، وصعب على النفس الكبيبرة أن تفشل، والندم؛ لأنه تسرع بمفارقة ((سيف الدولة)) الذي طالما تفيأ ظلال نعيمه، وصدح – وحده – بغر قصائده في رياضه الفسيحة، وجناته الغناء. وقد انطلق فيها خياله، وتفجرت ينابيع شعره، وعزف على مسامع الكون أجمل ما صاغ من ألحان، وذوبها في فم الدنيا حتى أسكرها، مما جعل ((سيف الدولة)) يفضله على عشرين شاعرًا، ويحتفي به أيما احتفاء، ويجله أيما إجلال، عكسه بيته:

وقد كان يدني مجلسي من سمائه		أحادث فيها بدرها والكواكبا

وإذا كان الشاعر حزينًا كل هذا الحزن، فلعل من سلواه أن يترنم بموسيقاه الحزينة على أنغام الطباق في البيت الأول – من هذا المقطع – وحسن التقسيم في البيت الثالث والرابع منه.

على أني أرى البيت:

أقمت بأرض مصر فلا ورائي		تخب بي المطي ولا أمامي

أراه قمة في تصوير الآلام، حيث عبر فيه – بطريق الرمز – عن فقدان الآمال: كبيرها وصغيرها، وهو في ذلك ينعي على ((كافور)) بخله حتى بتافه الآمال.

كما نلمح إباء وتعالي المتنبي في بيته:

قليل عائدي سقم فؤادي		كثير حاسدي صعب مرامي

إذ بينما هو غارق في بحر الدموع والآلام، نراه وقد مزج مر الشكوى بلذيذ الفخر والعجب.

هذا، ونلاحظ الشاعر – في المقطع الخامس – وقد عرج بخياله إلى السموات العلى، وهو يعاني تجربته القاسية، فيضفي ذلك الخيال على الحمى صورة العشق والهيام، وينطقها، ويستنطقها، ويترجم عن مشاعره ومشاعرها، فيصورها تارة (بالواله) وتارة يراها امرأة محرمة عليه اغتسل بعد التقائهما، ومرة ثالثة يراها عدوًا أسكن جسمه الأمراض، وأنها صادقة الوعد، ولكن في شر وتنغيص، ثم يصور لنا معركة بين الصبح وبين الحمى، تنتهي بانتصار الصبح وفرار الحمى باكية حزينة.

ونلمس دقة الشاعر وهو ينتقي ألفاظه المعبرة الموحية، فكلمة ((غسلتني)) كان يمكن أن يعبر عن مدلولها بكلمة ((بللتني)) ولكنه أراد أن يصور غزارة العرق الذي تصبب منه، وكلمة ((بللتني)) لا تنهض بهذا التصوير.

على أن كلمة ((غسلتني)) أنسب من ناحية أخرى؛ لتوافقها مع عجز البيت في كلمة ((حرام)) على وجه الخصوص، لأن الاغتسال من الحرام أو غيره يكون بإسباغ الماء للجسد، وكلمة ((بللتني)) لا تفيد ذلك، ويبدو أن الشاعر خص الغسل بحالة الحرام، مع أنه يكون في الحلال أيضًا، لأن الحمى زائرة أجنبية لا تحل له.

وقد تعجب الشاعر لأمر هذه الزائرة التي وصفت بالحياء، إذ العاشقات يتدللن بخلف الوعد والتثاقل، ليزداد العشاق تعلقًا بهن، ولكنها على العكس من ذلك نراها متهالكة عليه، وكلما فارقته، كلما ترقبت المساء لتعاود الزيارة.

ونلحظ حسن التعليل لعرق الحمى في البيت الرابع والخامس من نفس المقطع، وحالة التضاد بين حاله وهو مذعور في انتظارها وبين حال المستهام، وهو ينتفض فرحًا للقاء محبوبته. وفي المقطع السادس نرى الشاعر ما يزال يترفق مع الحمى، ويلين لها من جانبه، فيستعطفها في أسلوبه الإنشائي بالنداء، ويبالغ في إظهار اللين لها حيث ناداها بالهمزة، إيحاء لها باحتلالها سويداء القلب – وما هي كذلك.

كما أنه أراد أن يصرفها عنه، فبين لها أنه محاط بسياج من شدائد الزمان وكوارثه، فاستخدم لها كلمة ((كل)) وما لها من دلالة الإحاطة والشمول، وذلك من خلال البيت الأول من هذا المقطع، كما تعجب مستنكرًا في أسلوبه الإنشائي بالاستفهام.

ولا يفوتنا أن نحمد للشاعر تعبيره المبتكر: ((ليت شعر يدي)) إذ التعبير المألوف: ((ليت شعري)).أما تعبير الشاعر فإنه يجرد من اليد إنسانًا مستقلاً، له أحاسيسه ومشاعره وآماله، ويبدو أن اليد كانت آثار المرض عليها أظهر من بقايا أعضاء الجسم، فعلق الأمل عليها بعد أن فقده فيها.

هذا، وقد حلق خيال الشاعر بعيدًا في بيته:

وهل أرمي هواي براقصات		محلاة المقاود باللغام

إذ اعتبر هواه هدفًا أو صيدًا شاردًا يصوب إليه سهامه، وإبله هي تلك السهام التي براها السير، والتي تحمله إلى هدفه في رشاقة ونشاط وجمال الراقصات الفاتنات، وقد اعتبر الشاعر المقاود عقودًا ذهبية، واللغام خيوطًا فضية كل ذلك يزين جيد الإبل.

ولكن هل يرضي الذوق الحديث عن تصوير لغام الإبل بالخيوط الفضية؟

أعتقد أنه إذا كان هذا التصوير مستساغًا في عصر ((المتنبي)) فليس بمستساغ في عصرنا الحديث والمعاصر، فقد رفض بعض النقاد – الدكتور طه حسين – صورة قرية من ذلك في قول الشاعر ((محمود أبو الوفا)):

إذا تحدث سال الظرف من فمه		وإن يحدث تراه مطرق الراس

ولنا بعد ذلك أن نلحظ الرمزية التي لجأ إليها الشاعر في بيته:

وضاقت خطة فخلصت منها		خلاص الخمر من نسج القدام

وهي قدرته على التخلص من ((كافور)) وسجنه إذا ما عوفي من مرضه، كما نلمح عاطفة السخرية والتهكم بكافور من خلال بيته:

وفارقت الحبيب بلا وداع		وودعت البلاد بلا سلام

فقد رمز إليه ((بالحبيب)) – وما هو بالحبيت – كما عكس البيب عاطفة كراهية الشاعر للمصريين ومدى سخطه عليهم، كأنه نذر إن شفي فسيغادر البلاد غير مودع لأهلها.

أما المقطع السابع – والأخير – فنقف فيه على مبالغة مغرقة في قوله: ((ويدخل من قتام في قتام))، وكأن أيامه موصولة بين الحروب، كما أنه عرض مأساته في مقابلة ممتدة بين حالين من خلال البيت الثالث والرابع، ورأيناه يجمع بين عاطفة الفخر والمدح، وبين عاطفة اليأس والحسرة التي عبر عنها بطريق الكناية بعد ذلك نستطيع أن نقول: إن القصيدة في صورتها الكلية تدور حول أمرين:

أولهما: سوء حظ ((المتنبي)) مع ((كافور)) وحاشيته، وما كانت تعتريه من صيحات استنكار بثها مدحه وفخره بنفسه، التماسًا للسلوى والعزاء.

ثانيهما: وصف الحمى التي سببها سوء الحظ، وما تركته من آثار نفسية وجسمية، مع إظهار التجلد لأحداث الزمان ونوبه.

أما الصور الجزئية: فهي تلك الصور الجانبية التي فصلت الصورة الكلية، وتعاونت مع بعضها في تماسك حتى خرجت الصورة الكلية تامة الخلق والبناء، وما أكثرها وأروعها في القصيدة.

كما أن القصيدة صورة لتجربة شعرية عبقرية، انفعل الشاعر بأحداثها، وآلامها، وعاشها حسًا ووجدانًا، ومن هنا كانت معانيه من واقع الحياة المر، لا سرف فيها ولا إغراب، ولذلك جاءت في صورة بارعة وملهمة، وقد حملت بين طياتها النار والنور: النار على الأعداء، والنور هداية للأحياء.

فقد علم السجين الصبر والاحتمال، حتى يقوى على تحطيم القيود، وعلم المصاب كيف يعيش على أنوار الأمل، وأهم من كل ذلك رأيناه يوجه الكسالى الخاملين، ويبث فيهم روح النشاط والهمة والعظمة.

وقد استطاعت معانيه أن تعكس حياته وحالته النفسية في صدق وإتقان، حملتنا على أن نعيش معه مشاعره، وأن نشاركه عواطفه.

ولئن لاحظنا له بعض الهفوات، فإنها قد تبخرت من زفراته الحرى، ولهيب مرارتها اللاذع.

ولكن: ألا تتعارض رمزيته عندما كان يعرض ((بكافور)) وحاشيته مع صراحته المعهودة؟

الحق أنه كان حكيمًا وهو يلوذ بحمى الرمزية، إذ من الحمق أن يستمر في صراحته وهو أعزل من كل سلاح، بعد أن صار طريح الفراش أسير القيد، ((وكافور)) لا أمان له، فكان لا بد أن يسلك إلى ذلك طريق الرمز بتعبير ظاهره فيه الرحمة، يخدع به ((كافور))، ومن على شاكلته من السطحيين، وباطنه فيه العذاب يلهب بسياطه ظهر ((كافور)) وحاشيته.

ثانيًا شوقي

في اليوم الثامن من يونيو عام ألف وتسعمائة وأربعة للميلاد ألقى ((مصطفى رياض)) باشا خطبة في افتتاح مدرسة ((محمد علي)) الصناعية بالإسكندرية، والتي أنشأتها جمعية ((العروة الوثقى)) وقد حضر حفل الافتتاح عميد الدولة المحتلة اللورد كرومر فتملقه رياض باشا بكلام لم يتوقع أن يصدر عن مثله، فأحنقت

خطبته الناس، وفار شعور عارم بالغضب عليه، وكان ((شوقي)) من هؤلاء الحانقين، فسل شعره سيفًا على ((رياض)) وحاشيته، حتى أذل منهم الأنف الشامخ، وملأ عيونهم بقذى الخطأ والجريمة.

ففي مقدمة القصيدة ينادي ((رياض)) باشا مكرمًا إياه، حافظًا له منزلته، ولكنه يكشف له عن أساه وهو يلومه، لأن اللوم لم يصدر عن رغبة فيه، ولكن الباعث عليه أقوى مما بين الشاعر ورياض، وأعظم من منزلته ومقامه، فألحق فوق كل كبير، والحق أحق أن يتبع، ثم أشار إلى سر اللوم بأن الناس قد وجدوا ((رياض)) باشا قد تحول عن صادق الوطنية، وفتن بصنيع الإنجليز، وكأنهم على صواب في استعمار مصر وإذلال أهلها.

وتدنى وهو يتملق ((اللورد كرومر))، فرأوا في ذلك خروجًا على حدود الرزانة والاستحياء:

كبير السابقين من الكرام		برغمي أن أنالك بالملام [3]
مقامك فوق ما زعموا ولكن		رأيت الحق فوقك والمقام
لقد وجدوك مفتونًا فقالوا		خرجت من الوقار والاحتشام

ويذكر الشاعر ما تناقلته بعض الألسن بأن الكيد الذي صدر عن ((رياض)) باشا لا يخفى على أحد، وأن تملقه أضر بشخصية مصر والمصريين من حيث لا يقصد إلى ذلك، فجاء قوله على عكس ما يتوقع الناس فوفق إلى الإغاظة التي لم يجد الرماية في ميدانها، وقد احتد غضب الناس فرموه بالكفر في وطنيته كأنه ينتقم من الوطنيين المخلصين، ثم يعلل لسبب الغضب عليه، وهو الإطراء والثناء الجم على الإنجليز. وقد حمد مسلكهم في التعامل مع المصريين، وما ذلك إلا للطمع في الرضا عنه، والإنعام عليه ما ستطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وبذلك تحول من عزيز إلى ذليل، ومن وطني مخلص إلى خائن، ومن محبوب إلى بغيض، حيث سقط من قمم المعالي إلى الدرك الأسفل:

وقال البعض كيدك غير خاف		وقالوا رمية من غير رام
وقيل شططت في الكفران حتى		أردت المنعمين بالانتقام
غمرت القوم إطراء وحمدًا		وهم غمروك بالنعم الجسام
رأوا بالأمس أنفك في الثريا		فكيف اليوم أصبح في الرغام

ثم يستخف الشاعر ((برياض)) باشا، ويحتد غضبًا عليه، وهو يقسم أن الإنجليز لا ينخدعون بمعسول الكلام، وما قال به إنما هو مكر ونفاق، وأنه بعمله هذا قد حقر نفسه وأهانها، فما هو إلا حقير إن في ولائه للاستعمار أو في خصامه له، ثم يعنفه على أن خطب هذه الخطبة التي جرت عليه تلك المصائب، ولامه على أن ألقى بنفسه في ميدان لا يحسن ارتقاء المنابر فيه، لذلك اعتبرت هذه الخطبة خطبًا جسيمًا، وكان هو في حد ذاته مصدرًا للرزايا والبلايا، فأضاف إلى مصائب الأمة مصائب جديدة، في الوقت الذي تحاول أن

---

[3] الشوقيات جـ 1 ص 208.

تتخلص من أسباب تلك المصائب، ويشدد النكير عليه وهو يلهج بالثناء المستطاب على المحتلين وما أنزلـوه بالبلاد من ويلات، في الوقت الذي ما زال جرحه من الاستعمار يثعب دمًا بينما المحتلون ليسوا في حاجة إلى هذا الثناء والنفاق، وما أغناه هو الآخر عن ذلك التهاوي والتخاذل:

أمـــا والله مـــا علمـــوك إلا		صـــغيرًا فـــي ولائـــك والخصـــام
إذا مـــا لـــم تكـــن للقـــول أهـــلاً		فمـــا لـــك فـــي المواقـــف والكـــلام
خطبـــت فكنـــت خطبًـــا – ولا خطيبًـــا –		أضـــيف إلـــى مصـــائبنا العظـــام
لهجـــت بـــالاحتلال ومـــا أتـــاه		وجرحـــك منـــه – لـــو أحسســـت – دامـــي
ومـــا أغنـــاه عمـــن قـــال فيـــه		ومـــا أغنـــاك عـــن هـــذا الترامـــي

ولقد أراد ((شوقي)) أن يذكي في نفس ((رياض)) باشا ثورة الندم والحسرة على ما اقترف، فذكره بحب البلاد له يوم كان وطنيًا مخلصًا، وهذه ثمرة تجتنى دون أن يطلبها الجاني، بل هي تتحقق ذاتيًا بعد أن ارتوت ونمت بغيث الوطنية الهطال، ويخاطبه قائلاً إنك استصغرت ما كان عظيمًا، فحقرت بعملك الحكومة وأضعت الحق والحرمة فذمك الناس وغضبوا منك وعليك، وإذا كنت تجني ثمار الحب أو البغض فكل امرئ بمـا اكتسـب رهين، وأنت الجاني، وكل جان وما قدمت يداه:

أحبتـــك الـــبلاد طويـــل دهـــر		وذا ثمـــن الـــولاء والاحتـــرام
حقـــرت لهـــا زمامًـــا كنـــت فيـــه		لعوبًـــا بالحكومـــة والـــذمام
محاســـنه غراســـك والمســـاوي		لـــك الثمـــران مـــن حمـــد وذام

وتخف حدة الغضب قليلاً و((شوقي)) يوجه ((رياض)) باشا إلى ما كان ينبغي عمله أو قوله، وهو في حفـل افتتاح مدرسة ((محمد علي)) الصناعية، وأمامه شباب في حاجة إلى التوجيه، فكان عليه أن يحفزهم للنهوض بوطنهم، مذكرًا إياهم ما كان لآبائهم وأجدادهم من مجد وحضارة، وأحرى بهم أن يستعيدوا مكـانتهم تحـت الشمس، ليكونوا خير خلف لخير سلف، كما يمدهم بتجاربه مع الأيام ليستنيروا بها، وتشحذ هممهم إلى العمل الجاد المثمر، وفي الوقت نفسه يبث القوة والعزيمة في نفوس الكسالى والمتخاذلين، ولكنه للأسف نسي واجب الشباب على الشيوخ فضلّ وغوى:

فهـــلا قلـــت للشـــبان قـــولاً		يليـــق بحافـــل الماضـــي الهمـــام؟
يبـــث تجـــارب الأيـــام فـــيهم		ويـــدعو الرابضـــين إلـــى القيـــام
خطبـــت علـــى الشـــبيبة غيـــر دار		بأنـــك مـــن مشـــيبك فـــي منـــام

ويوضح ((شوقي)) ((الرياض)) باشا العاقبة الوخيمة التي كانت ستنزل بأبناء الوطن وهي اليأس الذي يقضي على من ابتلي به، لولا رحمة الله بالمواطنين وما أفاض عليهم من حب مقدس {**يجعلون أصابعهم في أذانهم**

من الصواعق حذر الموت} مما نزل بهم من يأس وقنوط، وهم بذلك عصموا أنفسهم مــن نتــائج الوشـــايات المهلكة:

ولـــــــــــولا أن للأوطـــــــــــان حبًـــــــــا		يصـــــم عـــــن الوشـــــاية كـــــالغرام
جنيـــت علــــى قلـــوب الجمــــع يأسًـــا		كأنــــــك بيـــــنهم داعـــــي الحمــــــام

ويتوجه ((شوقي)) إلى ((رياض)) باشا بأعنف لوم وعتاب، وقد أهاجه فعله، في الوقت الذي تحاول مصر أن تلعق جراحها، وقد تناوشتها السهام، وأوشكت أن تقضي عليها، لولا بقية مــن روح ظلــت تتــردد بفضــل المخلصين من أبنائها، ثم يأتي ((رياض)) وينكأ الجراح ويكاد بسهمه أن يصيب مصر في مقتل لم تصل إليه يد الأعداء بينما ابنها كاد أن يصل إليه ويرميها في الصميم من الحشا والفؤاد، ويستنكر عليه ماحدث وقد بلغ سن السبعين، ومع هذا النضوج العقلي لا يفرق بين ما يجب أن يقال، وما يجب أن يحبسه في أعماقه:

أراعـــــك مقتــــل مـــــن مصــــر بــــاق		فقمــــت تزيــــد ســــهمًا فــــي الســــهام؟
وهــــل تركــــت لــــك الســــبعون عقـــلاً		لعرفــــان الحــــلال مــــن الحــــرام؟

ويحاصر ((شوقي)) ((رياض)) باشا بكل وسائل السخرية والاستهزاء والتهكم، لإفراغ شحنة الغضب الفوارة والمتكنة في أعماقه، فأخذ يذكره بالزمن الماضي وهو يتمتع فيه باحترام الجميع، واليوم وقد خسر تلك المكانة الرفيعة، ينسجم الدمع مدرارًا، ويطلب إليه أن يسأل حي الحلمية الذي كان يقطنه، ويسأل داره في شارع نور الظلام بها، فسوف يذكره ذلك بجلائل الأعمال الوطنية، والمواقف المشهودة التي تعفر جبينه وقد تخلى عنها، في تلك الفترة التي كان يتمتع فيها بمركز الزعيم ذي المنصب الرفيع، والثري ذي الغنى العــريض، اجتمــع حوله خلق كثير، كل له هدف ومسعى، فمنهم من يداجيه بالحب ليصل – بواسطته – إلى ما يطمح إليه مــن جاه وسلطان، ومنهم من بغي المال، وقد انتهز كل منهم الفرصة قبل فوت الأوان فجدوا في الحصــول علــى مآربهم، حتى نال كل منهم ما أراد، هؤلاء كانت تجمعهم حولك المنفعة الخاصة، ولم تكن منفعة مصر تــرد لهم على بال فصاروا في واد، وأبناء مصر المخلصين في واد آخر، وللأسف فإن حاشية ((رياض)) باشا قــد أفسدت عليه حياته الوطنية، فلم يعد يعنيه فيما بعد أن يجتمع أبناء مصر على صعيد واحد ضد الأعداء، ولــو كان يعنيه ذلك لما قال خطبته التي فرقت الشعب، وألبت عليه أبناء الوطن، ولهذا فإن الله يتخلى عن نصــرة من كانوا عوامل انقسام وفرقه:

ألا أنبيـــــك عــــن زمــــن تــــولى		فتــــذكره ودمعــــك فــــي انســــجام
ســــل ((الحلميـــــة)) الفيحـــــاء عنــــه		وســــل دارًا علــــى ((نــــور الظـــلام))
وســــل مــــن كــــان حولــــك عبــــد جــــاه		يريــــك الحــــب أو بــــاغي حطــــام
رأوا إرثًـــــا ســــيذهب بعــــد حــــين		فكــــانوا عصــــبة فــــي الاقتســــام
ونــــالوا الســــمع مــــن أذن كــــريم		فنــــالوا منــــه أنــــواع المــــرام

هـــــم حـــــزب وســـــائر مصـــــر حـــــزب		وأنـــــت أصـــــم عـــــن داعـــــي الوئـــــام
وكيـــــف ينـــــال عـــــون الله قـــــوم		ســـــراتهم عوامـــــل الانقســـــام؟

ويصل ((شوقي)) قمة الانفعال، قمة الغضب معًا، فيرى أن العقول إذا تجرد عنهـا أصـحابها أتـى هـؤلاء العظماء بأفعال أوغاد الناس وأخسائهم، إذ العقل الراسخ والتفكير الثاقب، والرأي المتزن إنما هي فواصل بين فرد وآخر، ويرمي ((شوقي)) بآخر ما في جعبته من سهام الثورة والغضب، فيدعو على ليالي الحلمية، وزمن النفاق بها أن يذهبا حيث لا عودة، وغير مأسوف عليهما، فقد انقضيا بالهمِّ والحزن والخيانة العظمى:

إذا الأحـــــلام فـــــي قـــــوم تولـــــت		أتـــــى الكبـــــراء أفعـــــال الطغـــــام
فيـــــا تلـــــك الليـــــالي لا تعـــــودي		ويـــــا زمـــــن النفـــــاق بـــــلا ســـــلام

هذا ويقف ((شوقي)) على الجانب الآخر، فيعلن عن حبه العميق لمصر، والذي غرد به في كل مكان وصدح به على كل أيك، وقد أصاب حب مصر من قلبه صميمة وشغافه، وهو حب في نماء دائمًا، وسـوف يشـهد التاريخ على صدق حبه يوم ينتصر كرام المصريين المخلصين على اللئام والأوغاد ممن بـاعوا أوطـانهم، وفرطوا في حقها، ولأجل ما عليه مصر من احتلال واستعمار، فإن ((شوقي)) لا يشعر بحـلاوة الـدنيا، ولا يصفو مرآها في عينيه، وقد كرهها وصد عنها فأحس الشقاء والتعاسة، وإن كان راضي النفس بما يفعل، ومن دواعي انصرافه عن الدنيا أن مصر الجميلة ترعى فيها الذئاب، فتدنس الأرض، وتذوى بالجمال، فيتأبى عن مزاحمة هؤلاء لأنه يراهم في ضلال مبين:

أحبـــــك مصـــــر مـــــن أعمـــــاق قلبـــــي		وحبـــــك فـــــي صـــــميم القلـــــب نـــــامي
ســـــيجمعني بـــــك التـــــاريخ يومًـــــا		إذا ظهـــــر الكـــــرام علـــــى اللئـــــام
لأجلـــــك رحـــــت بالـــــدنيا شـــــقيًا		أصـــــد الوجـــــه والـــــدنيا أمـــــامي
وانظـــــر جنـــــة جمعـــــت ذئابًـــــا		فيصـــــرفني الإبـــــاء عـــــن الزحـــــام

ويعبر ((شوقي)) عن صدق ولائه لمصر؛ بأنه وهبها قلمًا سيكتب به التاريخ دونما خوف أو وجل، وسـيتخذ منه حسامًا بتارًا يجز رءوس الأعداء، وسوف يسجل به الاتهام الذي يـدين ((ريـاض)) باشـا، ولا يبـرح ((شوقي)) المقام إلا وهو يتهكم ((برياض)) وأنه بلغ السبعين من العمر، وهو سن يرجو فيه من بلغه حسـن الختام بصالح الأعمال، ولو أنه استمر على وطنيته لكان مثل ((عرابي)) خالدًا في نظر الناس، ولكنه لم يكن كذلك فاستحق السخرية والاستهزاء، حيث كان يطلب المجد والزعامة والخلود، لكنه لم يسلك إلى ذلك سبيلاً:

وهبتـــــك – غيـــــر هيـــــاب – يراعًـــــا		أشـــــد علـــــى العـــــدو مـــــن الحســـــام
ســـــيكتب عنـــــك فـــــوق ثـــــرى ريـــــاض		وفـــــي التـــــاريخ صـــــفحة الاتهـــــام
أفـــــي الســـــبعين والـــــدنيا تولـــــت		ولا يرجـــــى ســـــوى حســـــن الختـــــام

تكـــون – وأنـــت أنـــت ريـــاض مصـــر		عرابـــي اليـــوم فـــي نظـــر الأنـــام؟

التحليل:

برع ((شوقي)) في استهلال قصيدته، وهو يخاطب ملومه بألفاظ الرقة والوداعة والتجلة والاحترام في الشطرة الأولى حيث قال: (كبير السابقين من الكرام) فخدعه عن نفسه؛ لأنه استشرف أن يستطرد ((شـوقي)) فـي المدح، ولكنه فاجأه باللوم الشديد والعتاب المر عندما استخدم له لفظ ((برغمي))، إذ الكلمة وإن كانت تـوحي بتقدير ((شوقي)) العظيم ((لرياض)) باشا، إلا أنه وجد نفسه مرغمًا على لومه، ولم يستطع التخلص من ذلك، فكأن ((شوقي)) كان في صراع مع نفسه قبل أن يصوغ اللوم شعرًا، وأنه كان يتمنى ألا يفعل ذلـك، وهـذا بدوره يوحي بأن الجرم عظيم.

كما أن ((شوقي)) ابتدأ النص بأداة النداء – المحذوفة – (يا) لبيان منزلة الملوم العظيمة، وهو فـي الوقـت نفسه نوع من التوبيخ والتبكيت، إذ كيف بفعل ما فعل ومقامه فيوق هذا الخطأ الشنيع.

هذا السحر التعبيري الذي حققه عن طريق النداء، نراه يحققه في مجال آخر وهو يتوسل إليه بالنداء أيضًا في بيته:

أحبـــك مصـــر مـــن أعمـــاق قلبـــي		وحبـــك فـــي صـــميم القلـــب نـــامي

فقد حذف أداة النداء (يا) حتى لا يكون بين المحب والمحبوب فاصل، لأنه بتلهف على التلفظ بذكر المحبوب وهو مصر.

هذا النداء نَفَّس عن ضيق الشاعر وتبرمه بالنفاق والملق وهو يقول:

فيـــا تلـــك الليـــالي لا تعـــودي		ويـــا زمـــن النفـــاق بـــلا ســـلام

السياق العام للقصيدة يوحي بأن ((شوقي)) كان غائبًا عن الاحتفال بافتتاح المدرسة الصناعية التي ألقى فيهـا ((رياض)) خطبته بمناسبة افتتاحها؛ لأنه كان بتحدث على لسان الغير، فهل كان غائبًا حقًا عـن مثـل هـذه المحافل؟ لا يعنيني تحقيق ذلك بقدر ما يعنيني استشفاف المواقف من الصياغة على أنـه لـون مـن ألـوان التمحيص الفكري.

فإذا ما تغيب شوقي عن الاحتفال فعلاً فالحديث على لسان الغير أمر طبيعي لا يحتاج إلى فلسفة تعلل مجـيء الكلام على تلك الصورة، أما إذا كان حاضرًا، وأورد الكلام على تلك الصورة فهذا يدعونا إلى البحـث عـن سبب ذلك.

قد يكون مجيء الكلام على تلك الصورة تشهيرًا ((برياض)) لأن دائرة المتحدثين عن أخطائه اتسعت فجاءت في صورة جماعية عبرت عنها كلمات: ((وجدوك))، ((و فقالوا))، ((وقال البعض)) وتتسع الـدائرة عنـدما يكون القائل مجهولاً وذلك ماتشير إليه كلمة ((وقيل)) في البيت الخامس.

على أن تكرار ما يدل على القول مثل: ((قالوا)) و ((قال)) و ((قيل)) دليل على الاستنكار الشديد، للركـوع تحت أقدام المستعمرين، مما جعل الناس لا يكفون عن القول، وجعل الشاعر يقلب اللفظ على وجوهه فيجمعه ويفرده، ويبنيه للمعلوم والمجهول.

ولكن لماذا بناء ((قيل)) للمجهول؟ أليس ذلك دلالة على أن الحديث تجاوز مجال الأشخاص المعروفة إلى الأشخاص المجهولة؟ فكأن كل الشعب تناول ذلك الموضوع، ولم يكن حديث الخاصة وحدها، لأن الجرم كان شديدًا عبر عنه ((شوقي)) في مجال آخر بقوله: ((غمرت)) وما توحي به من نسيان نفسه، وانقياده لهوى الشهوة المادية، ولأن ((رياض)) باشا صار صنيعة للإنجليز وهو يغمرهم بالثناء والإطراء فقد كرر الشاعر لفظ ((الغمر)) فيقول عن موقف الاستعمار معه (وهم غمروك بالنعم الجسام) فهل يريد ((شوقي)) إظهار كرم الإنجليز، أم إنه يوبخ ((رياض)) حيث صار من الصنائع المعدودة التي تنال الحظوة الكبرى عند الأعداء، وهذا بدوره يسقط الوطنية عنه، وكأنه لم يعد يبقى في قلبه وعقله مكان لوطنه.

وقد استنكر ذلك الجرم الشنيع فذكره بسنه مرتين – وهو السبعون – ليفضحه بالنص عليه، حيث لا ينبغي ممن بلغ هذا السن أن يفعل ذلك، وندد بفعله هذا في مجال آخر عبر عنه بقوله:

((لهجت))، وكأن شهوة التملق قد سيطرت على ((رياض)) فأضحى يعتاد الحديث في هذا اللون الخلقي الفاسد ويسدر فيه، لدرجة أن الملوم لم يعد يحس بآلام الاستعمار التي ما زالت تثعب دمًا، ويتجلى جمال الصياغة وهو يقرن بين اللفظين (لهجت – لو أحسست) في بيت واحدٍ ليجمع بين صورة النفاق المتخاذلة التي فقد معها الإحساس، وصورة الجراح الثاعبة والتي يتظنى من النفاق أن يمحوها، ولكن أنى النفاق أن يكون وسيلة إصلاح وعلاج؟!

وبسبيل الحديث عن الصور المتقابلة، نرى ((شوقي)) يلجأ إلى استخدامها في أكثر من موقف، فأثرى النص بالطرافة والحركة والحيوية، نلمس ذلك وهو يشير إلى حقارة ((رياض)) في ولائه للإنجليز أو خصامه معهم في بيته:

أما والله ما علموك إلا		صغيرًا في ولائك والخصام

فوضع صورة الولاء، في مواجهة صورة العداء، ومع ذلك فقد كانت النتيجة واحدة وهي الصغر والحقارة، وهنا لون طريف من ألوان التعبير حيث لم تتوقف شاعرية ((شوقي)) عند حدود التصرف في التراكيب ولكنه يتعدى ذلك إلى التصرف في الصور بحيث يوظفها توظيفًا دقيقًا يعكس ما يريد التعبير عنه دون التصريح به أحيانًا.

وما أجمل ((شوقي)) وهو يمتلك زمام التصرف في الصور حين صور الملوم وهو في إباء وأنفة عندما كان يعتز بوطنه رافعًا أنفه إلى السماء، ثم صوره وهذه الأنف قد تعفرت في التراب ذلاً وهوانًا، فانظر إلى ((شوقي)) وهو يسقط الخائنين من السماء إلى الأرض وهو يقول:

رأوا بالأمس أنفك في الثريا		فكيف اليوم أصبح في الرغام؟

وليست الصور المتقابلة من روائع التعبير لدى ((شوقي)) فحسب، بل كان يأتي بصور غريبة تبعث على الدهشة والانبهار، تنسينا ما فيها من غرابة، وتشدنا إلى ما وراء ذلك من جمال الصياغة والهدف المنشود منها.

يقول شوقي:

وأنظر جنة جمعت ذئابًا		فيصرفني الإباء عن الزحام

وهو يقصد بالجنة مصر التي صارت بجمالها جنة الله في أرضه، ومبعث العجب أن الذئاب لا تعيش في الأماكن التي يتناولها الناس بالعناية، ويرتادونها للإمتاع والتسرية، فلا مجال لوجود ذئب واحد فيها، فضلاً عن ذئاب مجتمعة.

ولكنه ((شوقي)) الذي ملأته الحسرة على أن تتحول مصر (الجنة) إلى مرتع للذئاب، وما يوحي به ذلك من النفرة من هذا المكان، وما يئول إليه من وحشة، ويعز عليه أن يتخلق الناس بأخلاق الذئاب حتى صاروا في خياله من جنسهم دون أن يخرجهم من هذا الجنس أداة من أدوات التشبيه.

كان ((شوقي)) يوثق من عرى ارتباط الأبيات ببعضها كأن يكون البيت الثاني تعليلاً لسابقه في مثل قوله:

وقيل: شططت في الكفران حتى		أردت المنعمين بالانتقام
غمرت القوم إطراءً وحمدًا		وهم غمروك بالنعم الجسام

فالبيت الثاني تعليل لقول الناس: إن ((رياض)) شط في ثنائه على الأعداء وكفر بنعمة الوطن عليه.

ونرى الارتباط أكثر توثقًا بين البيتين التاليين:

ولولا أن للأوطان حبًا		يصم عن الوشاية كالغرام
جنيت على قلوب الجمع يأسًا		كأنك بينهم داعي الحمام

فقد ارتبط البيت الثاني بالأول ارتباط الإجابة بالسؤال.

وإذا كان الترابط بين هذه الأبيات يجمع عليه النقاد جميعًا، فهناك ارتباط فكري شعوري بين بعض الأبيات مما لا يرتضيه بعض النقاد، نلمس ذلك وهو يدعو على ليالي وزمن النفاق بعدم العودة، وينتقل من هذا المزاج السوادوي، وتلك العاطفة العبوس، إلى مزاج شفاف رقيق، تشرق فيه العاطفة أيما إشراق.

يقول ((شوقي)):

فيا تلك الليالي لا تعودي		ويا زمن النفاق بلا سلام
أحبك مصر من أعماق قلبي		وحبك في صميم القلب دامي

والواقع أن هذا التحول المفاجئ –في الظاهر– انتقال طبيعي فقد جمعت الشدة بين البيتين: في الأول شدة التبرم والضيق، وفي الثاني شدة الحب والهيام، فانتقل الشاعر – انتقالاً ضروريًا– من الشدة الأولى إلى الشدة الثانية ليبرد القلب من حر ناره المتقدة بنعيم الحب الشافي.

كما أني أرى البيت الثاني تعليلاً لما في البيت الأول من ضيق وتبرم، فكأن الشاعر ربط بينهما ارتباط العلة بالمعلول، والسبب بالمسبب، والمقدمة بالنتيجة. على أن القصيدة تميزت بظاهرتين:

ظاهرة الإيجاز بالحذف، وظاهرة الاستفهام.

فظاهرة الإيجاز بالحذف نلمسها في البيت:

مقامك فوق ما زعموا ولكن		رأيت الحق فوقك والمقام

وهو يقصد (وفوق مقامك).

ونلمح ذلك أيضًا في بيته:

محاســـــــنه غراســــــك والمســـــــاوي		لـــــك الثمــــران: مـــــن حمــــد وذام

وهو يعني: (والمساوي غراسك).

ونرى ذلك – أيضًا – في بيته:

فيـــــا تلـــــك الليــــــالي لا تعــــودي		ويــــا زمــــن النفــــاق بــــلا ســــلام

وهو يريد (اذهب بلا سلام).

أما عن ظاهر الاستفهام –بما في ذلك الاستفهام التعجبي– فقد أوردتها القصيدة في تسعة مواقف، وكلها تدور حول التوبيخ، والتبكيت، والسخرية والاستهزاء، والتهكم بفقدان الذاكرة، والتهكم والتحقيـر بسـؤال الجمـاد، والنفي والاستنكار.

هذا، وقد سلمت القافية لشوقي فلم نعثر على لفظ مجلوب من أجلها، وبالتالي فـلا حشـو ولا فضـول فـي الصياغة، بل هو جمال ينساب رقراقًا عذبًا شهيًا.

بين القصيدتين:

نلاحظ على القصيدتين أن سبب اللوم فيهما مختلف، فلـوم ((المتنبـي)) ((شخصـي))، ولـوم ((شـوقي)) ((قومي))، بمعنى أن المتنبي عندما فشل في تحقيق طموحاته في مصر إبان حكم ((كافور الإخشيدي)) وتحول الناس عنه ممالأة للحاكم أخذ يلوم ويذم الناس والحمى التي انتابته، وكان فيها ((يغمز)) ((كافور)) بالهجـاء، أما ((شوقي)) فلم يكن اللوم لسبب مادي، بل كان وطنيًا صرفًا، ولذلك كان مع الناس لا عليهم كما كان الحال عند ((المتنبي)) ولهذا فإن موضوع اللوم جمع بين الشاعرين في عموميته، أما في تفاصيله فقد اختلف الأمـر اختلافًا كبيرًا، فالكراهية التي تولدت عند المتنبي جعلته يغادر أرض مصر وهو كاره لها ولأهلها، ويتحمـل في سبيل ذلك مشاق السفر ووعثاء الطريق، وارتياد الصحراء المهلكة، يضنيه المسير، ويظمئه الهجير، وينفر من البقاء في مصر نفورًا عظيمًا لدرجة أنه تعجل الرحيل دون انتظار دليل يوجهه في ارتيـاده للصـحراء، بينما الأمر غير ذلك بالنسبة ((لشوقي))، فقد أدناه لومه ((لرياض)) من قلوب الشعب، وضاعف مـن حبـه لمصر، فوهبها قلمًا أشد من ضرب السيوف، وطعن الرماح.

كما أن ((المتنبي)) كان يقفز في قصيدته بين أغراض عدة وإن كان أغلبها يرتبط بسبب اللوم برباط وثيـق، فنراه يفخر، ويعتد بشخصيته، ويقدم الحكمة والموعظة الحسنة، ويجعل من نفسه مثالاً للعزة والأنفة والحميـة والإباء.

أما ((شوقي)) فلم يكن لموضوعه تفريعات أو زوائد، فهو موضوع يدور كله في فلك اللـوم والعتـاب، ولـم يخرج عن ذلك إلى شيء مما لمسناه عند ((المتنبي)).

وموضوع حمى ((المتنبي)) المستفيض ليس له أثر أو شبيه لدى شوقي إلا إذا تعسفنا وقلنا أن دواعي اللـوم عند ((المتنبي))، مضافًا إليها الحمى وعدم دقة الطبيب في التطبيب حتى كـاد يهلـك، يقتـرب منـه فعـل ((رياض)) باشا حتى صار كأنه داعية موت في قول ((شوقي)):

جمعـــــت علــــى قلــــوب الجمـــع يأسًــا		كأنــــــك بيـــــنهم داعـــــي الحمــــام

أسلوب اللوم لدى الشاعرين عنيف حاد وإن كان ((شوقي)) قد رققه بعض الشيء وهو يحاول أن يحفظ على ((رياض)) باشا بعضًا من كرامته، ويذكره بماضيه الوطني المجيد، عله يرعوي ويثوب، فهو لوم من يرجو الصلاح، ويؤمل الرشاد، أما ((المتنبي)) فلم يكن على تلك الصورة ومن هنا كان سوداوي المزاج من أول القصيدة إلى آخرها، غائم العاطفة حتى وهو يفخر؛ لأنه كان يفخر ليغطي فشله في تحقيق مآربه، وكأنه فوق المطامع والإغراءات، غني عما يتصوره الناس فيه، فهو فخر تفجر على لسانه من غير صدق يوشحه، عبر عنه ((المتنبي)) ليسعد نفسه بدواعي هذا الفخر، بل صدر عنه ليقوم بوظيفة أخرى هي التمويه على الناس بأنه أبى لا تذله طموحاته، لذلك فقد كان الغرور يلف قصيدته من بدايتها إلى نهايتها.

أما ((شوقي)) فلم يكن سوداوي المزاج على الإطلاق، ونرى عاطفته تتلون بتلون نفسه، فإذا ما غضب تجهمت العاطفة فيه، وإذا ما أبدى حبه لمصر، انفرجت منه الأسارير، فأشرقت عاطفته وابيضت.

وقد يكون السبب في ثبات العاطفة على لون واحد لدى ((المتنبي)) أنها صدرت عن حقدٍ مر المذاق، أما ((شوقي)) فلم يتجاوز حدود الغضب، دون أن يكون للحقد نصيب في قلبه ومطلع القصيدتين يشف عن ذلك وينم، يقول المتنبي:

ملومكما يجل عن الملام		ووقع فعاله فوق الكلام

ويقول ((شوقي)):

كبير السابقين من الكرام		برغمي أن أنالك بالملام

((فالمتنبي)) يترفع عن الإشارة إلى نفسه تعاليًا على من يخاطبهما، ويؤكد هذا التعالي بكلمة ((يجل)) نفسه فوق مستوى الشبهات؛ إذ لا يفعل إلا الأفعال الكريمة الماجدة، وهذا مسلك الحاقدين الموتورين.

أما ((شوقي)) فقد دفعه التواضع إلى رفع شأن ملومه منذ الكلمة الأولى في مطلعه، ويخاطبه بما يشبه الاعتذار عن اللوم الذي ينوي أن يوجهه إليه، وكأنه يمهد له حتى لا يقع اللوم عليه وقع الفاجعة؛ لأنه يؤمل فيه الرشاد كما أشرت سلفًا.

وبذلك يحق لنا أن نقول: إن ((المتنبي)) في مطلعه كان أعرابيًا جلفًا إذا ما قيس بمطلع ((شوقي)) وقد يكون للمتنبي عذره للأسباب سالفة الذكر، ويكون ((شوقي)) ابنًا بارًا لبيئته التي رضع فيها الذوق الرفيع، والرقة الشفيفة، وتعلم فيها كيف يخاطب العظماء، وكيف يتحاور علية القوم على مرآى منه ومسمعٍ.

ولأن الجرح كان غائرًا في قلب ((المتنبي)) –لأنه كان يواجه وحده نتيجة الفشل المادي– فإنه قد طال نفسه في عرض مشكلته بكل أبعادها، فأطلعنا على آلامه النفسية التي تمور في أعماقه، وتعتمل في فؤاده، وما ترتب عليها من علل وأمراض.

وما ذكر الحمى في قصيدته إلا إيحاء بالأثر التي خلفته الخيبة، وخلفه سوء التعامل من الناس وحاكمهم، على عكس ما كان يتمنى ويتصور.

وكانت شحناته العاطفية فوارة موارة جبارة، فكان حديثه عن الحمى مطولاً في جودة وحذق وإتقان. وليس الأمر كذلك في المشكلة التي واجهها ((شوقي)) ذلك أنها مشكلة شعب لا مشكلة فرد، فكأن الآلام قد توزعت على أفراد الأمة، وكان ((لشوقي)) منها نصيب، وأي نصيب؟ لأن رهافة الحس فيه باعتباره شاعرًا، ولأنه

يدرك خطورة عمل ((رياض)) باشا لأنه مثقف، ولأنه غيور حاد العاطفة الوطنية، لكل ذلك –وأكثـر منـه– كان نصيب ((شوقي)) في تلك الأزمة أكبر من غيره من الناس.

الفصل الثالث

حديث النفس

عينية كل من:

ابن سينا

الدكتور محمد رجب البيومي

عادل الغضبان

أولاً: عينية ابن سينا

شغل ابن سينا بأمر النفس، وشغف بحديثها حبًا، وقد درس هذا الموضوع، واستبطن كنهه، وأدرك أسراره، وواصل الحديث فيه محاورةً ومجادلةً حتى صار له فيه قدم وساق، وليس ذلك بغريب أو مستغرب من ابن سينا، وهو الباحث المدقق، الذي أخلص للعلم، فخلده العلم بما تمخض عنه فكره الثاقب الألمعي.

و((النفس)) من بين الموضوعات الفكرية الفلسفية التي سيطرت على الفيلسوف ((ابن سينا)) فحركت خياله، وأثارت شاعريته، فرأيناه ينظم حديثها طريفًا، يحمل مذهبه الذي اعتنقته فيها، ويصور رأيه الذي ارتآه موافقًا لأستاذه أفلاطون، ويدفعه الاقتناع بفكرته إلى أن يعبر عنها في قالب لغوي متنوع، بالشعر تارة، وبالقصة المنشورة تارة أخرى.

ويعجب بعض الشعراء برأي ((ابن سينا)) وصياغته شعرًا، فيعارضونه، وبعضهم يعارضه في رأيه فينسج ما يراه شعرًا أيضًا كالشاعر ((عادل الغضبان))، وكان في الإمكان اعتبار قصيدته مناقضة لا معارضة بسبب اختلاف الرأي في النفس، ولكن لأن الاختلاف كان محددًا فقد اعتبرت الشاعر ((عادل الغضبان)) معارضًا لا مناقضًا.

هذا، وقد كان ((ابن سينا)) به ولوع في تصوير النفس بالطيور، ففي الشعر حدد نوعية الطير، وهي الورقاء، وفي القصة النثرية صورها بطائر ولكنه غير معين.

يبدأ ((ابن سينا)) في بيان المكان الذي كانت تعيش فيه الروح في بادئ أمرها وهبطت منه بعد إثمها وعصيانها، وهو المحل الأرفع في الرفيق الأعلى، وكم تمنعت الروح وتعززت عندما كتب عليها النزول إلى الأرض والحلول في جسم الأنسان؛ لأنها كانت تحيا حياة نورانية شفافة، وقد علمت أنها ستحل في جسد مادي يجمع بين الخير والشر، فعز عليها أن تنتقل من الحياة المثالية إلى الحياة المادية، وما يعتورها من خير وشر، وفضيلة ورذيلة، ومن خصائص هذه النفس: الشفافية التي لا تدرك بالحواس، فليست جرمًا يدرك بالعين، ومع ذلك تغدو وتروح مع صاحبها، وقد اجتمع القيضان فيها:

الرؤية، وعدمها، انعدمت الرؤية بالوسيلة المعتادة وهي العين، وتحقق وجودها بوسيلة أخرى وهي العقل، فهي به سافرة لم تتبرقع عليه.

وعندما تيقنت النفس من نزولها إلى الأرض كرهت ذلك كرهًا شديدًا؛ لأنها ستحيا حياة لم تألفها من قبل، هذا الكره تكرر من النفس والحالة قد انعكست؛ لأنها استطاعت أن تحقق في البدن شيئًا من عالم المثل الذي كانت تحيا فيه، فكأنها نجحت في الرسالة التي وضعتها نصب عينيها من تحقيق الخير والفضيلة، فجوارح الإنسان إذن وسيلة إلى غاية نبيلة حققت للنفس فضائل إيجابية بعد أن كانت تعيش سلبية في عالمها العلوي، ولذلك فلا عجب أن تحزن وتتفجع على فراق الجسم بعد أن يموت؛ لأنها ألفته، وأنست به، وتواصل منها ذلك الإلف والإيناس بعد أنفه وتمنع:

هبطت إليك من المحل الأرفع		ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف		وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما		كرهت فراقك وهي ذات تفجع
أنفت وما أنست فلما واصلت		ألفت مجاورة الخراب البلقع

ولشدة حب النفس للحياة الجديدة، وعشقها لحلولها في جسم الإنسان الفاني نسيت عهودها ومواثيقها التي قطعت عليها في عالمها المثالي –الذي لم تقنع بفراقه أول

الأمر– بأن تبقى جوهرًا، لا تدنسه أدران المادة، ولكن ما حدث كان غير ذلك، فبهبوطها وتمركزها في بدن الإنسان (ذات الأجرع) علقت به وعلق بها، وتخللت معالمه من عظام وغضاريف ولحم وشحم مما سيصير طللاً خربًا فانيًا:

وأظنها نسيت عهودًا بالحمى		ومنازلاً بفراقها لم تقنع
حتى إذا اتصلت ((بهاء)) هبوطها		في ((ميم)) مركزها بذات الأجرع
علقت بها ((ثاء)) الثقيل فأصبحت		بين المعالم والطلول الخضع

وتسبتطن النفس مصير الجسد الذي علقت به، وتقوم حياته على ما تستدعيه عوامل البقاء من طعامٍ وشرابٍ وملبسٍ ومسكن، وتتصور فيه فناء يدب إليه يومًا بعد يوم، وأنها ستغادره بعد أن يودع الدنيا، ويلقى مصيره المحتوم ولأنه قام على عوامل فانية، لم تستطع أن تضمن له حياةً دائمة؛ حيث سيعجز يومًا عن التفاعل مع تلك المقومات المادية، فيستولى الهلع على النفس، وما ينتظرها من مستقبل مجهول لها، وتبكي معولة على حياتها التي ألفتها داخل البدن وقد أوشكت على الزوال، ((فتتفجع وتتوجع وتحزن وتأسى، فإن كانت روحًا خيرة فاضلة، كانت فجيعتها أن افتقدت أداة الخير والفضيلة إذ افتقدت الجسد، وإن كانت روحًا شريرة خبيثة مستهترة كانت حسرتها أن سلبت اللذة والمتاع ألا وهي الجسد كذلك)) [4].

أيضًا فإنها تسترجع ذكرياتها، فتبكي حياتها السابقة التي لا يعتورها فناء، ولم يعكر صفوها تفكير في حاضر يخشى غروبه، ومستقبل يخشى زواله.

ويتوفر لدى الروح طرف من المثالية وهو الوفاء، فهي تتردد عليه بعد أن فارقته فترى عوامل الإفتاء قد عملت في الجسد عملها حتى لم يبق منه إلا دمن وأطلال وذلك بتكرار الرياح الأربع التي قد ترمز إلى تعاقب الفصول الأربعة، أو قد ((تكون الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة)) [5].

([4]) مجلة الرسالة – العدد 93 في 1935/4/15 م – مقال: ((عينية ابن سينا)) للدكتور: ((زكي نجيب محمود)) ص594.

([5]) المرجع السابق.

هذا الجسم البالي كان للروح إبان حياته قفصًا محكم الإغلاق، ولأنه قفص فقد أرسلت خواطرها إلى العالم الفسيح من بين نوافذه وطاقاته: عن طريق السمع تارة والبصر تارة أخرى، والعقل تارة ثالثة، وظلت هكذا لا تستطيع الفكاك إلى أن كتب عليها خالقها العودة أدراجها حيث عالمها الروحاني:

تبكي إذا ذكرت ديارًا بالحمى		بمدامع تهمي ولما تقطع
وتظل ساجية على الدمن التي		درست بتكرار الرياح الأربع
إذ عاقها الشرك الكثيف وصدها		قفص عن الأوج الفسيح المربع

وتشهد النفس نهاية البدن الذي ارتبطت به ردحًا من الزمن، وترى في تلك النهاية اقترابًا من رحلة جديدة ترتد فيها النفس إلى حماها الأول في فضائها الواسع اللا نهائي، وقد أخذت الروابط بينها وبين الجسد تنحل رويدًا رويدًا، وهي في ذلك تشعر بتخلصها من القيود العالقة بها شيئًا فشيئًا، وقد أصبح الجسد كتلته معطلة لم تعد النفس تستطيع به أن تواصل حياة الخير والفضيلة، وبعد ذلك نرى الروح تزدري الجسد، فتغني سعيدة والعطاء ينحسر عن العين، والغشاوة تزول عنها، فتشاهد ما خفي عليها، وتكشف لها ما برقعته عنها حياة المادة التي أخفت عنها رؤية الرفيق الأعلى الذي كانت تحيا فيه، فغمرتها السعادة وهي ترى نفسها قد تحصل لها من العلم والمعرفة ما فاق علمها وهي في الملأ الأدنى على الأرض، وقد أخذت طريقها إلى عالم النور، وهي تتحول إلى الصفاء النقي الذي كانت عليه قبل الهبوط، وتتخلص من علائق المادة التي أعاشتها في كدورةٍ ونقصٍ لم تتبينه إلا بعد عودتها إلى الرفيق الأعلى (وبضدها تتميز الأشياء) واتصالها بالعالم الروحي الخالد:

حتى إذا قرب المسير إلى الحمى		ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
سجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت		ما ليس يدرك بالعيون الهجع
وغدت مغارقة لكل مخلف		عنها، حليف التر ب غير مشيع

وبـــدت تغـــرد فـــوق ذروة شـــاهق		والعلم يرفع كـــل مـــن لـــم يرفـــع

هذا، ولقد أثارت عودة الروح إلى عالمها الفسيح من حيث أتت، أثـــارت الدهشـــة والتحير في أمر نزولها، وتحركت في النفس مشاعر شتى بعثت على التساؤل عن سبب الهبوط، مادام الصعود مكتوبًا عليها عند موت البدن، وتستبد الحيرة بالإنسان وهو يرى النفس تفارق عالم الخير والمثل حيث لا إثم ولا معصية، لتحل في البدن الذي لا يخلو من شرٍ أبدًا، ثم تصعد وقد عاشت حياةً ماديةً بما فيها من خير وشر إلى عالم الطهر والنقاء.

لقد كانت في البداية تتمنع النزول حيث لا خبرة لها بعالم المادة، ولا علم لها بمـــا يكتنف هذا العالم الغريب من فضيلة ورذيلة، واليوم كيف تعود وقد لحقها ما ليس له وجود في عالم الغيب؟

يتوقع الشاعر تلك التساؤلات الحيرى، الهائمة في نفوس الناس فيشفي غليلهم بـــأن الروح هبطت على الأرض لحكمة تخفى عليهم، وعلى علمائهم وحكمائهم، ومـــن آتاهم الله فصل الخطاب، فقد ضرب الله تعالى عليها الهبوط لتكمل لهـــا الحكمـــة والمعرفة بما لم تكن تعرف، وتسمع عما لم تكن تسمع بوسائل العلم والمعرفة التي ركبها الله في الإنسان من سمع وبصر وعقل لتبلغ الكمال بهذا التحصيل أو تقترب منه، حيث كانت تجهل كل ذلك وهي في عالمها العلوي، ولا سبيل إلى العلم بهـــا إلا وهي في الحضيض الأدنى من الأرض وبين تلك المعارف.

ولأن الأجل قد انتهى، ووجب على الروح أن تصعد إلى عالمها لم تستطع الروح أن تستكمل معارفها، إذ فترة بقائها على الأرض كانت قصيرة، ومهما جدت النفس في تحصيل أسباب الكمال فلن تصل إلى مرغوبها؛ لأن اكتساب العلوم لا يتوقـــف عند حد معين من الزمن، ومهما تكن مدة البقاء في الدنيا طويلة، فهو طول نسبي، وإلا فهي قصيرة في حساب الزمن الطويل الذي يحياه الكون قصرًا لا يكاد يدرك.

وإذا كانت النفس قد استطاعت أن تتفاعل مع مجتمع الأرض عندما هبطت، فهي تستطيع الاندماج في عالم المثل كما كانت، بعد أن تتخلص مما علق بها من شوائب، وبذلك يريح الشاعر قلوب الناس من حيرتها ويشفي غليل الشك فيها:

فلأي شيء أهبطت من شامخ		سام إلى قعر الحضيض الأوضع
إن كان أرسلها الأله لحكمة		طويت عن الفطن اللبيب الأروع
فهبوطها – إن كان ضربة لازب		لتكون سامعة بما لم تسمع
وتعود عالمة بكل خفية		في العالمين فخرقها لم يرقع
وهي التي قطع الزمان طريقها		حتى لقد غربت بغير المطلع
فكأنها برق تألق بالحمى		ثم انطوى فكأنه لم يلمع
أنعم برد جواب ما أنا فاحص		عنه فنار العلم ذات تشعشع

* * *

التحليل:

استطاع ((ابن سينا)) أن يطوع الشعر لأشد العلوم العقلية جفافًا وهو الفلسفة، وقد بث معارفه الفلسفية عن النفس في تلك القصيدة بقدرة فائقة، وشاعرية فذة، تيسر للراغبين استشفاف معارفه عنها من خلال تلك القصيدة؛ ((لأن الشعر قد رقرق من صلابتها، فتراءت ذات رونق، كما أوضح بالتمثيل ما قرب البعيد وأدناه. وإذا كان الشعر أبعد ذكرًا من التأليف العلمي، وأكثر تداولاً بين الناس، فإن آلاف الدارسين قد عرفوا رأي ((ابن سينا)) في خلود الروح عن طريق هذه القصيدة، أكثر مما عرفوه عن كتبه المنهجية، بل في الدارسين من اكتفى بالقصيدة عن سواها من آثاره)) (6).

---

(6) مجلة الثقافة – العدد 109 – السنة التاسعة – فبراير 1982 – مقال الدكتور ((محمد رجب البيومي)) ص 27.

وقد استبعد الدكتور ((أحمد أمين)) أن تكون هذه القصيدة ((لابن سينا))، معتمدًا على أن مستوى الشعر فيها أرق من شعر ((ابن سينا)) الآخر وأراجيزه؛ لأنه غامض اللفظ في شعره وفلسفته، وهو في العينية سمح التعبير.

وقد أورد الدكتور رأيه في صورة جازمة، تمنى الدكتور ((محمد رجب البيومي)) أن يكون الرأي في صوره شك منه، بدلاً من القطع والتيقن، ويرفض حتى مجرد الشك فيقول: ((على أني لا أرى مجالاً للشك، فإن القصيدة ليست من الروعة الخارقة بحيث يجب أن يقولها شاعرٌ لا فيلسوف)).

وفي مجال آخر يؤكد فيه نسبة القصيدة إلى ((ابن سينا)) يقول: ((والقصيدة بمعانيها وأخيلتها وألفاظها لا تستغرب من ((ابن سينا)) أما المعاني فهي هي التي اعتقدها الفيلسوف وأكثر تردادها، أما الأخيلة فقريبة المنال بحيث لا تستعصي على حكيم قوي التخيل، وأما الألفاظ ففي بعضها جفاف يدل على معدن الفيلسوف)).

هذا، وقد وفق الشاعر في اختيار كثير من ألفاظه وعباراته لتنقل فكره وفلسفته في إيحاء وجاذبية، فقد تخير لفظ ((الهبوط)) على ((السقوط))؛ لأن الهبوط يضفي عليها الإحساس والإدراك لما يحدث لها، كما ذهب إلى ذلك الدكتور ((زكي نجيب محمود)) [7] والسقوط ينفي عنها ذلك، بل ويجعلنا نتصورها شيئًا غير شريف.

كما أن لفظ ((السقوط)) يتنافى ورقة الحمائم التي تخير الشاعر ورقاء منها، وعبر بها عن النفس، وما أجمل ((ابن سينا)) وهو يشير إلى احتجاب النفس بعد أن وصفها بالتعزز والتمنع، فكأنها وهي محجوبة تعطينا مظهرًا من مظاهر التعزز والتمنع، وهو الترفع الذي يجعلها تتعالى به عن الناس، وبذلك التحم البيت الثاني بالأول حيث كان امتدادًا خياليًا له.

---

(7) الرسالة – العدد 93.

وما أجمله –أيضًا– وهو يجري في القصيدة تيارًا نغميًا، ويحدث تموجات صوتية تثير الموسيقى الداخلية في الشعور والوجدان وهو يتخير كلمات اتحـــدت وزنًــا، وتجانست حروفًا، وذلك في بيته التالي:

أنفت ومـــا أنســت فلمـــا واصــلت		ألفـــت مجـــاورة الخـــراب البلقـــع

وفي مجال انتقاء الألفاظ نراه يدق وهو يعبر عن رأيه في النفس وأنها لا تمتـــزج بالبدن بحيث تفنى بفنائه، وتبقى ببقائه، وإنما هو ارتباط إلى أجل معلوم، وتخيـــر للتعبير عن تلك الفكرة وذلك المذهب، كلمة ((مجاورة)) فأزالت اللبس والغمـــوض الذي يكتنف حلول الروح بالبدن.

وما يلفت النظر تكرار كلمة ((الحمى)) بمعنى المنزل، فلماذا اختيار هذا اللفـــظ، وهل للتكرار دلالة معنوية؟

اختيار لفظ الحمى؛ لأنها في مقامها الأول محمية مما يسبب الأذى والضرر، وفي مقامها الثاني –البدن– احتمت به؛ إذ هو قفصها الذي حبست فيه.

أما التكرار فلكل لفظ دلالة، إذ في البيت:

وأظنها نسيت عهودًا بالحمى. . . .

كلمة ((الحمى)) تعني منزلها الأول في عالمها الرفيع.

وفي البيت:

تبكي إذا ذكرت ديارًا بالحمى . . .

تشير كلمة ((الحمى)) إلى الأرض التي يدب عليها البدن.

وفي البيت:

حتى إذا قرب المسير إلى الحمى. . .

فتعني –مرة أخرى– مقام الروح في عالمها الرفيع.

وفي البيت:

فكأنه برق تألق بالحمى . . .

ترمز الكلمة إلى الأرض التي يحيا فوقها الجسد.

هذا التكرار يعكس قوة العلاقة بين السماء والأرض في وجدان الشاعر وواقع النفس؛ لأنه يوقن بأن النفس لما أثمت أخرجت من عالم خلودها إلى عالم عقابها، فإذا ما حصلت شيئًا من معارف الخير والفضيلة والنفع العام كانت قد كفرت عن شيء من ذنوبها فعادت أدراجها فكأن هبوطها كان مؤقتًا، ولغاية محددة.

ومن روائع ((ابن سينا)) في تلك العينية قدرته على التعبير عن قصر المدة حتى لكأنه يدمج الزمن ويصل أوله بآخر، وكأنه يتمثل ((امرأ القيس)) وهو يعبر عن سرعة فرسه الفائقة وهو يقول:

مكرٍ مفرٍ مقبلٍ مدبرٍ معًا		كجلمود صخر حطه السيل من عل

يعبر ((ابن سينا)) عن دمج الزمن وهو يقول:

وصلت على كره إليك وربما		كرهت فراقك وهي ذات تفجع

فقد طوى الزمن بين فترة الهبوط والنفس كارهة له، وبين فترة الصعود والنفس كارهة له أيضًا، وهو في أثناء ذلك يعطينا فكرته وقد توزعت بين صورتين متقابلتين تثيران في النفس المشاعر والأحاسيس، وتحركان فضول الإنسان ليسأل ويتساءل عن سر تلك الصورتين.

كما طوى الزمن وهو يعبر عن قصر المدة التي مكثتها الروح على الأرض حبيسة في البدن، فصورها بالشمس التي غربت قبل أن تطلع، والبرق الذي أسرع في ذهاب تألقه حتى لكأنه لم يلمع.

وإذا كان ((ابن سينا)) قد أصاب حظًا موفورًا من التوفيق في التعبير عن فكرته أو مذهبه، فقد اضطرب تفكيره إلى حد ما وهو يعرض بعض الأفكار، فبيته الذي يقول:

أنفت وما أنست فلما واصلت		ألفت مجاورة الخراب البلقع

يشير إلى أنه قد مضت مدة أنفت الروح فيها أن ترتبط بالبدن، ولما واصلت المجاورة له ألفت الحياة بجواره، ولفظ ((واصلت)) يؤكد انقضاء مدة من الزمن، كما أن لفظ ((ألفت)) يؤكد ذلك؛ لأن الألفة لا تحدث فجأة، بل بعد مراس

وممارسة، ثم نرى الشاعر ينوه بنسيان النفس عهودها بحماها الأول والنسيان يوحي بمضي مدة أيضًا، يقول ((ابن سينا)):

وأظنها نسيت عهودًا بالحمى		ومنازلاً بفراقها لم تقنع

ثم يعود فيتحدث عن بداية الاتصال بالجسم فيقول:

حتى إذا اتصلت ((بهاء)) هبوطها		في ((ميم)) مركزها بذات الأجرع
علقت بها ((هاء)) الثقيل فأصبحت		بين المعالم والطلول الخضع

كما أن كلمة ((الدمن)) وكلمة ((درست)) في البيت:

وتظل ساجية على الدمن التي		درست بتكرار الرياح الأربع

تدلان على ما صار إليه الجسد من فناء، وبخاصة إذا اعتبرنا الرياح الأربع هي الحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة كما أشار الدكتور ((زكي نجيب محمود)) وبعد البيت السابق ببيت يقول الشاعر:

حتى إذا قرب المسير إلى الحمى		ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
سجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت		ما ليس يدرك بالعيون الهجع

وواضح من عرض الأبيات بهذا الترتيب اضطراب التفكير عند الشاعر؛ لأنه ذكر فناء الجسد، وبعده يقول: ((حتى إذا قرب المسير إلى الحمى)).

فهل بين موت الجسد وصعود الروح فاصل زمني؟!

ولقد أسهم الدكتور ((زكي نجيب محمود)) في ترتيب أفكار الشاعر فأورد الأبيات التالية على هذا الترتيب:

حتى إذا قرب المسير إلى الحمى		ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع

وغـــدت مفارقـــة لكـــل مخلـــف		عنها حليف التـــرب غيـــر مشـــيع
سجعت[8] وقد كشف الغطاء فأبصرت		ما لـــيس يـــدرك بـــالعيون الهجـــع

وذلك ترتيب منطقي فكري منظم، ولكن رواية ((مجلة الكتـــاب)) جعلـــت البيـــت الثاني ثالثًا والثالث ثانيًا فحدث الاضطراب.

هذا والبيت الأخير في القصيدة لم يرد في رواية ((مجلة الكتـــاب)) وإنمـــا أورده الدكتور ((زكي نجيب محمود)) في مقاله ((بمجلة الرسالة)) العدد 93.

ثانيًا: عينية الدكتور محمد رجب البيومي
(النفس)

(8) أورد الدكتور كلمة ((هجعت)) بدلاً من سجعت التي روتها مجلة الكتاب السنة السابعة أبريل 1952م ص 425.

كان الدكتور ((محمد رجب البيومي)) ممن تصدوا لمعارضة ((ابن سـينا)) فـي حديثه عن النفس، وأعلن عن تلك المعارضة بأن وضع عنوانًا جانبيًا يشـير إلـى ذلك قبل البدء في القصيدة.

في بداية المعارضة يطلب الشاعر إلى كل فـرد أن يحلـق ويطـوف بالسـماء، ويسترق السمع، إذ سوف تشنف آذانه بصوت الروح الرخيم المطرب، وهي تهتف كالورقاء في الملأ الأعلى، بلحن عبقري يسلب العقل والوجدان، ويهز المشـاعر، ويحرك الأحاسيس، وهي في طربها هذا تبعث لحنها البديع فوق موجـات الأثيـر يملأ دوحها الذي اتسع اتساعًا هائلاً، انبسط فشمل الجهـات الأربـع، ويسـتخفها الطرب فتنتقل في أجواز الفضاء، وقد طوته طيًا، ورنات صوتها العذب تنطلق في كل مكان تحل فيه، وكما بعثت البهجة في كل الأرجاء بصوتها الشجي، عطـرت الفضاء بأرجها الفواح، وحمله النسيم إلى كل جهات الفضـاء الفسـيح، ويأسـى الشاعر لها؛ لأنها غافلة عما يخبئ لها الدهر من بلايا ورزايا، بينما هي تغرد على فرع غصنها المياد نشوة، والرطيب فرحة.

طـف بالسـماء محلقًـا وتسـمع		فـالروح تهتـف بالمحـل الأرفـع
ورقـاء تبعـث لحنهـا فتخالـه		سلبت شـعورك بـالرخيم المبـدع
دعها تخض لجـج الأثيـر فـدوحها		بسط الظلال على الجهات الأربـع
طوت الفضاء فمـا تغـادر موضـعًا		إلا لتطلق صـوتها فـي موضـع
هـب النسـيم مؤرجًـا فتطوعـت		معـه فيـا للصـاحب المتطـوع
سجعت على الفنن الرطيب ولو درت		ماذا يخبـئ دهرهـا لـم تسـجع

ويظل الشاعر يأسى لهذا الورقاء؛ لأنها ستفقد عرشها عما قريب، وتحرم التحليق في الفضاء الواسع اللا نهائي، وسوف يتحشرج صوتها، فلا رخامة فيه ولا إبداع؛ بل سيتحول ذلك إلى نواحٍ يفتت الأكباد، وهي حبيسة قفص يمتلئ بالرهبة، ويبعث فيها الفزع، وتقتلها فيه الوحشة، ذلك أنها كانت تعيش في عالم الضياء والبهاء، أما إذا هبطت فسوف تحل في جسد لا ترى فيه إلا ظلمات بعضها فـوق بعـض، إذا

أخرجت يدها لا تكاد تراها، ومن هنا فإن الشمس إذا أشرقت فسوف تعجز عن السطوح واللمعان، وسوف تحبس فيه سجناً صفيق القضبان، يثير الكآبة والخوف الشديد، والرهبة المفزعة:

عما قريب سوف تفقد عرشها		وتنوح في القفص الرهيب المفزع
جسد يموج به الظلام فلو بدت		شمس النهار بأفقه لم تسطع
إن لم يكن سجناً يخيف نزيله		فعلام طوقه حديد الأضلع

ويتصاعد ألم الشاعر، ويتواصل أنينه، وهو يتفجع حزناً لتلك الحمامة التي أودعت ذلك السجن الرهيب، ولم لا ينوح لها، وقد رآها مكبلة بقيد لا تستطيع منه فكاكًا، أو معه حراكًا، وسمع آهاتها المنبعثة من قلب مفطور أثقله الوجع، ولم لا يتلوى لها ألمًا وهو يرى ذلك الضياء الشفاف يذوب في سواد الجسم مما دفعه إلى التعجب من غلبة الظلام على النور حتى ابتلعه في جوفه وأخفاه عن العيون، وقد ترفعت الروح عن التنزل عن عرشها ومخالطة ذلك الجسد، وأظهرت ضجرها وعدم طوقها الحياة فيه حيث يختلف عن عالمها النوراني المبرأ من الشوائب، والمنزه عن القبائح، والحياة المادية فيها من الرذائل ما يصد النفس عن حب الحياة فيها والإقامة بين أهليها، ولما رأت أنه لا مفر من تلك الملازمة قبلتها على الرغم منها؛ ويرى الجسد منها ذلك الصدور والتمنع، فأخذ يغريها بحبه لها وهيامه بها، ليخفف من غلوائها في كراهية الحياة معه، ويذيب ما بينهما من فوارق ويخدعها عن نفسها فيضرع إليها ضراعة الواله المشغوف، وتظل على أنفتها –لفترة– ولم تستجب لضراعته، ولكنها رأت الحياة معه حتمًا مقضيًا، فاقتنعت بحاتها الجديدة، ويتحول ذلك الاقتناع إلى حب وهيام، وتعتريها الصبابة في حبه، وهو أمر غير مستغرب أن يحدث الحب والهيام بعد تمنع وتأب، وتلك ظاهرة من ظواهر حياة العاشقين المدنفين الذين يبرح الغرام بهم.

يا للحمامة أودعته فرددت		في قيدها آهات قلب موجع

ذات الضـــياء تـــذوب فيـــه فيالهـــا		من نجمـــة غرقـــت بليـــل أســـفع
ضجرت فلـــم تطـــق المقـــام بظلـــه		وغـــدت تلازمـــه بـــأنف أجـــدع
وغـــدا يراودهـــا ويعلـــن وجـــده		ويـــذل شـــأن الوالـــه المتضـــرع
(أنفت وما سكنت فلمـــا واصـــلت)		قنعت وشر الناس مـــن لـــم يقنـــع
وإذا القناعـــــة تســـــتحيل صـــــبابة		ولرب وصـــل جـــاء بعـــد تمنـــع

وتتحول الكراهية إلى تآلف، ومن عجب أن يحدث ذلـك التـآلف بـين ضـدين، ومعروف أن الضدين لا يجتمعان على ألفة، ويتحول التآلف هو الآخر إلى وئـام وانسجام يدفع بالمحبين أن يتهاديا زهورًا لا ككل الزهور، إنها زهـور معطـرة بعطر غير معهود، بعطر المودة والحب الشفيف، وتتصاعد حرارة الحب إلى وجد وهيام فينسى كل منهما مواقف التنافر والتباعد التي وقعت قبلاً، ويهيم كل منهمـا بالآخر، وتنطوي ضلوعه على جمر الحب والصبابة، ونرى كلاً منهمـا مولعًـا بالآخر، فعاشا حياة الترف والسعادة والنعيم المقيم ردحًا من الزمن، جعلت الـنفس تنسى ما صادفها من شقاء ومرارة وهي ترغم على العيش في كنف ذلك الجسـد الذي كان بغيضًا لديها:

فتـــآلف الضـــدان ثـــم تهاديـــا		زهرًا بغيـر الحـب لـم يتضـوع
هامـــت وهـــام بهـــا فبـــات كلاهمـــا		يطوي الضلوع على صبابة مولـــع
وازدان عيشـــهما بـــوارف نعمـــة		رتعا بها في الدهر أطيـب مرتـــع

هذه الحياة المفعمة بكل مظاهر النعيم وألوانه جعلت النفس تنسى حماها في مقامها الرفيع أيام كانت تسبح في الفضاء الفسيح مغردة نشوى، تنساه وتنسى ذكرياتهـا الغوالي في أيامها الخوالي، وتندمج في الحياة المادية ومتطلباتها، وتعـيش حيـاة الجهاد والكفاح، وتتحمل المشاق والصعاب وتجتاز العقبات، وتتحمـل مـا ينـوء بحمله كل كمي شجاع، وتجني من الحياة حلوها ومرها، ومـن الأخـلاق نبيلهـا وأثيمها، وبذلك تحقق الغاية التي من أجلها هبطت في نظر ((ابن سـينا)) وهـي تحقيق المعارف بتسخير البدن وأعضائه في تحصيلها، ولأن بقاءها بالبدن محدود

بحياته فإن تحصيلها للعلم سيكون بقدرٍ مقدور أيضًا، وبعد ذلك ستعود إلى الجهالة التي كانت عليها قبل الهبوط، ومن هنا فإن الشاعر جعلها تتجرع كأس الجهالة من جديد، وتمنى لها أن لو استطاعت مرارة الكأس أن تصدها عن تجرعه حتى لا تسيغه:

نيست حماها في المحل الأرفع		أيام تسبح في الفضاء الأوسع
ومضت تكافح في الحياة وإنها		لتفل من جهد الكمي الأشجع
يعلو بها الخلق النبيل وتارة		تهوى بها الآثام في مستنقع
بلغت مداها في معارفها ومن		ينهل أفاويق الحجا لا يشبع
وتجرعت كأس الجهالة ليتها		عافت مرارتها ولم تتجرع

وعندما حان حين الجسد، وأزف الترحل، وظهرت نذره، ودب دبيب الموت فيه، وأصبح في وهن لا يقوى معه على مدافعة المرض، وأرسل الموت رسوله يخفق بجناحية، وينعب نعيبه الذي يبعث الانقباض في النفس، وتسير حياة البدن على وتيرة واحدة، لا تلوح فيه لائحة من صحة، ويقترب المساء متجهمًا على عادته لإحساسه بدنو الأجل هو الآخر، ومن هنا فحديث المساء صمت وسكون وحزن يفجر الفجيعة في قلوب الناس، وبينما الجسد على تلك الحال، إذ بالنفس تنفصل عنه، وتأخذ طريقها إلى عالمها العلوي الأسبق، وقد خلفت حبيبها مسجى رطيب الجسم، سليب الحركة، وتجد في طيرانها، فلم تعد بها أثقال تعيقها عن التحليق بأجنحتها متجاوزة عالم النجوم والأفلاك، منفصلة عن عالم الشهادة إلى عالم الغيب الرحيب:

حتى إذا أزف الرحيل ورفرفت		في الأفق أجنحة الغراب الأبقع
ودنا المساء كعهده متجهمًا		يلقاك بالصمت الحزين المفجع
طارت عن الجسد الحبيب وخلفت		أجلاده بين اليباب البلقع
وعلت إلى الأفق الرحيب وحلقت		بجناحها فوق النجوم الطلع

هذه النفس تميزت بالوفاء والإخلاص؛ إذ وهي تشق طريقها إلى عالمها العلوي يستبد بها الحنين، ويستولي عليها الشوق فيثني عنانها لإلقاء نظرة على ذلك الأليف الحبيب الغافي غفوة الموت التي لا قيام منها في الدنيا، وهي تنظر إلى حبيبها يطعنها سهم الأسى المسموم فيتفجع قلبها ويتوجع ثم يتقطع، ويشدها وثاق الحب المتين فتظل تحوم حول الجسد هائمة حيرى مضطربة، تراقبه وهو في طريقه إلى مثواه الأخير، وقد فصل به الناس عن داره ولما يرجعوا، وتعود إلى تذكار ماضيها السعيد وهي تختلط به وتلاصقه، ولكن الردى قسا عليها قسوةً عنيفةً قطعت عرى الاتصال حيث لا عودة إليه أبدًا، وتعود تواصل رحلة العودة، ولكنها تحمل بين جنبيها خوفًا مقلقًا حول مستقبلها الذي يغلفه ظلام الجهل بما ستكون عليها:

تعلو ويدفعها الحنين فتنثني		لأليفها الغافي بأسوأ مضجع
ترنو فيطعنها الأسى بسهامه		وارحمتاه لقلبها المتقطع
وتدور هائمة تراقب راحلاً		بأن الخليط به ولما يرجع
كانت تلاصقه فيا ويح الردى		فصم اتصالهما بأعنف مبضع
ومضت لخالقها وبين ضلوعها		خوف من المستقبل المتبرقع

ويعود الشاعر، فيقرب لنا صورة هبوط الروح، وبقائها على الأرض فترة، ثم صعودها إلى عالمها العلوي حيث مستقرها ومستودعها، وكأنه يركز ما سبق القول به من هبوط وصعود في صورة سحب السماء الممتلئة بالمطر، والتي يراها الإنسان في وضوحٍ وسفور، والرياح تسرع بها، بعد أن تلهبها بسياطها اللاذعة، فتعبر عن ألمها الممض بدمع هتون، يسقط من عليائه على الأرض بغزارة تشكل أنهارًا تفيض بالماء الطامي، فإذا ما سقطت عليه أشعة الشمس المحرقة في وقت الظهيرة تبخر جزء من هذه المياه، وصعد إلى أعلى كأن لم يسقط مطرًا.

هكذا الروح سقطت من شاهق المسافات ومكثت على الأرض حينًا من الدهر، وسرعان ما انفصلت عنها إلى حيث القدس الطهور، الذي ظفرت فيه بأسباب

الخلود، ولم تعد يفزعها خوف من مستقبل مجهول؛ لأنها وصلت إلى محل الأمانة والراحة حيث الخلود على هذا الحال الوداع المطمئن:

انظـــر إلـــى ســحب الســماء فإنهــا		من أفقك الأعلى بأوضـــح موضـــع
تســـري فتلهبهـــا الريـــاح بســوطها		فتخـــــر باكيـــــة بـــأهتن مـــدمع
وتفـــيض أنهـــارًا تـــدفق صـــدرها		تحـــت الحيـــا بالعـــارض المتـــدفع
فإذا غلـــى حـــر الهجيـــر تبخـــرت		وسمت إلى الأعلى كأن لـــم تهمـــع
فكذلك الـــروح ارتمـــت مـــن حـــالق		حيناً وطارت مثـــل بـــرق مســـرع
ظفرت بأســـباب الخلـــود فلـــم تعـــد		كالأمس ترجف لاقتراب المصـــرع

التحليل:

في هذه التجربة الشعرية التي اعتملت في وجدان الشاعر وخياله، وتفاعلت معهـا أحاسيسه ومشاعره، نرى الشاعر وقد أخذته إشراقة روحية جذبتـه إلـى العـالم العلوي الطهور، فرأى من آيات النفس ما رأى، وعز عليه أن يستمتع وحده بمـا شاهد، فدعانا إلى سياحة فكرية خيالية، حتى نستمتع بمثل ما استمتع به من مشاهد الحسن والبهاء، وعندما دعانا إلى هذه السياحة، قدم تلك الدعوة في أطباق الألفاظ الذهبية التي انتقاها لتعبر عن مشاعره وأحاسيسه.

انظر إليه وهو يوجه الخطاب في البيت الأول، فقد حمله لفظ ((طف)) وما به من رقة وما يوحي به من تلطف في الطلب، ويوجه الخطاب إلى مفرد دون تعيـين، وذلك لبيان شدة الحرص على أن يستمتع كل فرد، انبهـارًا بمـا رأى وجدانـه، وافتتاناً بما صورت له خيالاته.

ويظل وشاح الألفاظ الدقيقة الرقيقة يكسو القصيدة ويلفها، يعلل بها بعض أسـباب الفتنة والجمال، فهو عندما أنطق ورقاءه بالألحان ذوبها في فم السامع حتى أسكره فسلب شعوره بالصوت الرخيم المبدع، وقد تتابعت ألفاظ الإعجاب الدالـة علـى الجمال فأحدثت كثافة معنوية ثرية في لغة الشعر تتناسب في تناسق عجيب مع تلك العاطفة المشرقة التي اتشح بها المقطع الأول، ففي شطرة واحدة تتابعـت ألفـاظ

ثلاثة (سلبت، والرخيم، والمبدع) وبعدها ترى ألفاظ البهجة والابتهاج، فتنفرج الأسارير لكلمات: دوح، ونسيم، ومؤرج، وسجعت، والفنن الرطيب.

وعندما تآلف الضدان –في المقطع الرابع– وتساقيا أفاويق الغرام استخدم الشاعر الألفاظ المناسبة للمقام، فلفظ ((تهاديا)) يوحي بالتجاوب في الصفاء، ومن هنا كان الزهر من نوع خاص، وهو المضوع بعبير الحب لا بعبير الأرض المعتاد – ولأن الصفاء كان عن تجاوب حدث هيام، ومتى حدث هيام كانت هناك صبابة متقدة بين الضلوع، عندئذٍ يزدان العيش بوارف النعمة.

وعندما تعبس عاطفته وتتلون، يصبها في قوالب لفظية تعبر عنها أدق تعبير، نلمس ذلك وهو يتحدث عن هبوط النفس إلى الأرض، وفقدانها عرشها واحتباسها في الجسم، فتخير لذلك كلمة ((قفص)) وما توحي به وحدها من تحكم، وأتبع ذلك بما يوضح الحالة النفسية والشعورية التي يكون عليها من كتب عليه أن يحيا في مثل هذا القفص، فذكر كلمة ((الرهيب)) وأتبعها بكلمة المفزع، وعندما تخير تسمية القفص هذا ((بالسجن)) كان تعليله حسناً لهذه التسمية وهو يبرر ويبرهن على صحة التسمية؛ حيث تصور الضلوع قضباناً حديدية، وهي من خصائص السجون:

إن لم يكن سجناً يخيف نزيله		فعلام طوقه حديد الأضلع

وتبلغ العاطفة مداها من العبوس والكآبة والشاعر يطالع غرق النجوم في ظلام الليل الدامس، فقد عز عليه أن يرى النفس المشكلة من النور تذوب في الليل البهيم.

وما أعجبت الشاعر وهو يعبر عن محنة النفس في ذلك الموقف وهي تذوب في الجسم المعتم، فيعزف لها لحناً جنائزيًا انبعث من وتر الطباق الرنان، حيث كانت أبعاد الوتر ما بين ((نجمة)) و ((ليل))

ذات الضياء تذوب فيه قيالها		من نجمة غرقت بليل أسفع

وتبسط غيوم العاطفة الكئيبة أجنحتها؛ لأن الحبيبين على وشك الافتراق فيكون هنا ((غراب أبقع))، وإذا نعب كان للمساء أن يتجهم، ويكف عن الصخب الذي اعتاده كل ليلة، إذ الحدث جلل، وهل هناك فجيعة في عالم الحب أعظم من أن يرحل أحد المتيمين، ويبقى الآخر يتلظى بنار الفرقة الدائمة الموجعة؟!

ومن هنا فقد حق للمساء أن يصمت في حزن مفجع، فلم تصعد الروح إلا وهي مطعونة بسهام الأسى والمرارة، بعد أن كان المبضع قاسيًا عنيفًا وهو يفصم عرى الامتزاج الذي قام بين النفس والجسد.

وكم كان تعبير الشاعر دقيقًا، وهو يدلل عل انفصال الروح عن الجسد انفصالاً لا التقاء بعده حيث عبر عن ذلك بكلمة محدودة الحروف ولكنها عظيمة الدلالة، وهي ((فصم)) فكانت أوقع من كلمةٍ تساويها في عدد الحروف وتتجانس معها في بعض حروفها، ومع ذلك فهي لا تؤدي معناها، وهي ((فصل)).

وإذا كان الشاعر قد وفق إلى هذا القدر الموفور من الاختيار الدقيق للألفاظ فإني أرى التوفيق يجانبه وهو يجعل الروح ترتمي من حالقٍ في بيته:

فكذلك الروح ارتمت من حالق		حينًا وطارت مثل برقٍ مسرع

لأن الارتماء يوحي بالنبذ والكراهية والطرد إلى حيث لا رجعه، ولكن الشاعر قد أرجعها فعلاً فيما سبق من أبيات المقطع السادس والسابع، وبذلك يتفق مع مذهب ((ابن سينا)) في أن النفس أثمت، فهبطت للتكفير عن آثامها، ولكنها تتميز بالإدراك فقد عبر عن نزولها بالهبوط الذي يتفق في رقته مع رقة لفظ الورقاء الذي أطلقه ((ابن سينا)) عليه.

وشاعرنا أطلق عليها أيضًا ورقاء، فكيف رمى بها ومن حالق؟ ليته صاغ البيت على النحو التالي:

وبمثل ذاك هبوطها من حالق		حينًا وطارت مثل برقٍ مسرع

ولو أنه فعل لما كان لمثلي أن يلحظ ما لحظ.

كانت السحب الداكنة تسري في كثيرٍ من أوصال تلك القصيدة، وقد انعكس ذلك في التعبيرات التي حملها تلك المشاعر فنراه يتفجع للنفس، ويتوجع لها، ويتكرر أنينه من أجلها، وإعواله عليها، استرحامًا لها وعليها، فها هو ذا يتفجع وقد أودعت سجن الجسد:

يا للحمامة أودعته فرددت		في قيدها آهات قلب موجع
ذات الضياء تذوب فيه فيالها		من نجمة غرقت بليل أسفع
ترنو فيطعنها الأسى بسهامه		وا رحمتاه لقلبها المتقطع

* * * *

كانت تلاصقه فياويح الردى		فصم اتصالهما بأعنف مبضع

وقد استغرق الشاعر في رومانسية حالمة خرجت بنا من أغلاق الفلسفة ورموزها الجامدة، فما كان منا إلا أن استجبنا لتفجعه وتوجعنا معه، أسى للنفس، ورحمة بها.

ولنا أن نقف بعد ذلك أمام كلمة ((تذوب)) في بيت الشاعر:

ذات الضياء تذوب فيه فيالها		من نجمة غرقت بليل أسفع

فكلمة ((تذوب)) توحي بالاندماج التام الذي يصعب معه الانفصال، وهذا ما يخالف رأي ((ابن سينا)) وذا كان للشاعر رأيه المستقل في ذلك فقد رأيناه يعود إلى ((ابن سينا)) –بقصد أو بدون قصد– عندما عبر في نفس البيت بكلمة ((غرقت)) فكأنه عدل عن فكرة الذوبان، ويشجعني على ذلك استخدام كلمات (تلاصقه، وفصم، واتصالها)) في بيته:

كانت تلاصقه فيا ويح الردى		فصم اتصالهما بأعنف مبضع

لأن هذه الكلمات توحي باستقلال الروح عن البدن، وأن العلاقة بينهما كانت مؤقته، ولأجل معلوم، فهل الشاعر حقًا عدل عن فكرة اتحاد الروح مع البدن، فأكد ذلك بتكرار مجموعة من الكلمات الموحية المعبرة، أم إنه لم يقصد إلى ذلك سبيلاً؟

تراكيب الشاعر وعباراته ومعانيه بلغت حد الإتقان وتجاوزته إلى درجة التفوق بعد التوفيق: فعندما جسد ظلمة الجسد الداكنة جعل الشمس –على عظمتها– لا تقوى على السطوع وهي التي تبدد أحلك الظلمات حتى لو حجبتها السحب السوداء.

وكم كان الشاعر دقيقًا وهو يحدد مركز النفس من الجسد وهو القلب في الوعاء الصدري، حينما أكد أن الجسم سجن وقضبانه الضلوع، وهذا يرمز إلى أن القلب مصدر الحياة الرئيسي، فإذا توقف توقفت معه الحياة، والقلب مكانه بين حنايا الضلوع.

سلك الشاعر في معارضته سبيل التصوير المبدع فكانت له صور جزئية، وصور كلية.

أما صوره الجزئية فكثيرة، منها –على سبيل المثال– صورة النفس وهي تطوي الفضاء ليعبر عن سرعة تجاوز المسافات، وهو تصوير ملهم؛ لأنه لحظ في الروح قدرتها على الاختراق بسرعة ليست للأجرام أو الجسوم.

ويصورها وهي تهبط إلى الأرض بمن فقد عرشه من الملوك، وأي مرارة على النفس والملك يرى نفسه مخلوعًا فاقدًا هيله وهيلمانه، وأية غصة هذه تتجرعها الروح وهي تخرج من عالم القدس الطهور الذي لا يرى فيه إلا الخير المحض والجمال المطلق، إلى العالم السفلي، وما يموج فيه من شرور ومآثم، فهو عالم مظلم، نزلت إليه بعد حياتها في عالم مضيء مشرق.

وأية صورة من صور الغرام هذه التي جمعت بين اثنين كان التنافر بدايتها ثم كان الهيام ختامها والوفاء لحمتها وسداها، والسعادة الوارفة الظلال تباركها وترعاها.

والقصيدة تحمل من هذا اللون التصويري ألوانًا وأفاويق أكتفي منها بما أشرت إليه آنفًا.

أما صوره الكلية –على سبيل المثال أيضًا– فنلمح منها واحدة وهو يوضح صورة هبوط النفس، وبقائها في الجسد فترة، وصعودها من حيث أتت، وذلك في ختام القصيدة.

حيث انداحت الصورة، وتفرقت أجزاؤها ومعالمها بين خمسة أبيات من أبيات المقطع الأخير الستة، على نحو ما فعلته في عرض القصيدة.

وقد تحولت هذه الصورة الكلية إلى لوحة شعرية زاهية الأصباغ والألوان، وقد توفرت لها عناصر الصورة من صوت، ولون، وحركة.

فمن عناصر الصورة الصوتية ما تدل عليه الكلمات الآتية من صوت واقترانه بها، والكلمات هي: تسري، وتلهبها، والرياح، وتخر، وباكية، وبرق، وتفيض، وتدفق، والمتدفع، ومع ما تدل عليه هذه الكلمات من صوتٍ، فإنها تتضمن عنصر الحركة أيضًا، بالإضافة إلى كلمات: غلى، وتبخر، وسمت، وارتمت.

وأود أن أشير إلى أن الدكتور ((محمد رجب البيومي)) عرج بنا إلى السموات العلى، فرأينا ما رأينا من عالم الروح الشفاف الذي استطاع أن ينفذ إليه بقوة الشاعرية الموهوبة له، وجعلنا نطوف به ونحلق ونسبح، دون أن نتكلف عناء الرحلة ووعثاء الطريق، ذلك كله قبل أن تهبط الروح، أما ((ابن سينا)) فقد أهبط الروح إلينا دون أن يثير فينا تطلعًا إلى موضوعه، واستقبالاً لضيفه الزائر، وتلك لفته ذكية لا يسلك سبيلها إلا الشعراء الأفذاذ الموهوبون.

من ناحية أخرى فإن الدكتور ((محمد رجب البيومي)) قد تحدد بإطار موضوع ((ابن سينا)) فانطبقت عليه كل شروط المعارضه:

وتأسيسًا على ما سبق أرى وحدة الموضوع لدى الدكتور ((محمد رجب البيومي)) أوضح ما تكون جلاء وسفورًا، فليست في القصيدة موضوعات ثانوية أو جانبية – كما يقولون– حتى وهو يدخل السحب والأمطار والأنهار في إطار قصيدته، فقد ربط ذلك بالنفس برباط وثيق، حيث جعلها تشبه كل ذلك في السقوط والبقاء والصعود مرة أخرى إلى منتهاها.

أما عن التجربة الشعرية في تلك القصيدة، فقد تصورت الشاعر وهو يقرأ عينية ((ابن سينا)) ويتأملها، ويستبطن معانيها، ويسير أغوار صاحبها –نفسًا وعقلاً– ثم تصورته وهو يصب عليها عصارة فكره فتحللت واختلطت بنبضات قلبه، وتخللت منه الشغاف من القلب، وإذ به ينجح في إعادة صياغتها في قالب شعري شاعر، وقد أعمل فيه خياله المجنح الذي استطاع أن يحلق بنا فوق أجنحته البراقية، حيث اجتاز بنا عالم الحدود والسدود، إلى عالم الشهادة والنور، وما كان لنا ذلك لو لم تكن له تلك الطاقات الشعرية الهائلة، التي شحن بها ألفاظه وعباراته، وصوره وأخيلته، فأقدر أجنحة الخيال المحلق على حملنا إلى حيث يريد.

ولم تكن هذه الطاقة الشعرية الجبارة بعاجزةٍ عن أن تربط أبيات هذه القصيدة برباطٍ وثيق، جعل الوحدة الفنية تتوفر لها، وتصير لها القدرة على أن تلوي جيد النقد إليها في إعجاب ورضى، ولست أدعي ذلك من فراغ، وأمامي الدليل الدامغ، انظر إلى المقطع الأول الذي يتحدث عن عروجنا إلى المحل الأرفع، ورؤيتنا الروح تهيم نشوى بحياتها في الملأ الأعلى، وقد انتشرت مظاهر السعادة في كل مكان، نرى المقطع ينتهي بترحم الشاعر عليها؛ لأنها لا تدري ما يخبئه الدهر لها. وتكون بداية المقطع الثاني متلاحمة مع نهاية الأول والشاعر يبدي سبب ترحمه وهو فقد الروح لعرشها، وسجنها في الجسد، وفي بداية المقطع الثالث يأسى لها الشاعر مرة أخرى وهي تذوب في الظلام وتصبح مقتنعة بحياتها جوار البدن بعد تمنع، وتبدأ مظاهر السعادة بين الحبيبين، وهذا امتداد طبيعي لما انتهى إليه أمر المقطع الثاني.

وفي بداية المقطع الرابع يواصل تفصيل مظاهر السعادة التي انتهى عندها المقطع الثالث، ومن يرها على تلك الحال يظن أنها نسيت حياتها الأولى في المحل الأرفع، وأخذت تحيا حياة مادية فيها الخير وفيها الشر، وفيها تحصيل المعارف والعلوم، فكأن المقطع الخامس تولد عن المقطع الرابع.

ولأن دوام الحال من المحال، وليس لهذه الحياة السابقة في المقطع الخامس أن تدوم فقد ابتدأ المقطع السادس بتقديم نذر الرحيل.

ولأنه لا بد أن نقف على مظاهر تلك الحياة التي أظلها النعيم بجناحه لنفتش عن بعض خصائصها نرى بداية المقطع السابع تعلن عن خلق الوفاء الذي بدر من الروح وهي تلقي على حبيبها نظرة الوداع الأخيرة.

وفي المقطع الثامن –والأخير– رأى الشاعر أن يبلور صورة النفس في هبوطها، وبقائها في الجسد فترة، ثم صعودها، بتصويرها بصورة أشياءٍ أكثر قربًا منا، وأتم وضوحًا لنا، فكأنه يعيد الصياغة من جديد لتزدان الصورة إشراقًا ولمعانًا وتوهجًا. وبذلك نرى ترابط الأفكار وثيقًا، حيث لا يكون بمقدورنا أن نقدم بعض الأبيات على بعض، أو أن نحذف بعضها؛ لأننا لو حاولنا ذلك، لانهار هذا الصرح الشامخ الذي بناه الشاعر من حبات قلبه وعصارة مهجته.

ولا يقولن قائل: إن المقطع الأخير يمكن أن يكون في مكان آخر والشاعر يتحدث عن هبوط الروح؛ لأن المقطع تضمن الهبوط والبقاء في الأرض والانفصال عنها، لأني سأقول له إن وضعه الطبيعي في الختام لأنه بمثابة تلخيص وتركيز للتجربة، ومعلوم أن مكان التركيز يكون في النهاية.

وقد يقول قائل: إن المقطع الأخير يمكن الاستغناء عنه، وأنا أرد عليه بما سبق. فضلاً عن أن الشاعر لم يعلن رأيه الأخير في النفس الذي أشار إليه صراحة في المقطع الأخير، وينص عليه في قوله:

((وكذا يسبق صاحب الشفاء –ابن سينا– فيجعل الروح ورقاء تهبط من المحل الأرفع، ويثني صاحب الشوقيات فيجعل الروح أشعة شمس تتفرق وتلتقي، ويثلث صاحب صدى الأيام [9] فيجعل الروح مطرًا انهمر، ثم سال بحرًا، ثم ارتفع بخارًا [10]

---

[9]) اسم ديوان الدكتور ((محمد رجب البيومي)) الذي ضم القصيدة المعروضة – الطبعة الثانية–

ثالثًا: عينية الشاعر: عادل الغضبان

أوحت فكرة احتفال جامعة الدول العربية بذكرى ((ابن سينا)) الألفية إلى الشاعر بإنشاء هذه القصيدة ليلقيها في المهرجان الذي أقيم لهذا الغرض في بغداد، وقد عارض فيها عينية ((ابن سينا)) وإن خالفه في الرأي.

([10]) مجلة الثقافة ص 30.

((فابن سينا)) ذهب –كما أشرنا سابقًا– إلى أن النفس لما أثمت سجنها الله في البدن بعد أن أهبطها من المحل الأرفع.

والشاعر ((عادل الغضبان)) يرى أن الله المصف بالكمال ((خلق الإنسان كـــاملاً، ويتجلى كمال الإنسان في اتحاد النفس والجسد، وهما اللذان خلقهما الله معًا)) [11] ويشير إلى أن معتقد ((ابن سينا)) بأن النفس أثمت فهبطت، متأثر فيه بآراء فلاسفة الهند القديمة، وأحر بها أن تكون رمزًا إلى قصة أبينا آدم في عصيانه وطرده من الفردوس[12].

في مطلع القصيدة نرى الشاعر يدعو النفس أيضًا بالورقاء، ويجعلها مـــن جـــنس الملائكة، ويطلب إليها أن ترجع الغناء المطرب الذي يعبر عـــن صـــادق حبهـــا لخالقها، وأن تسجع بحمد ربها، وأن تختال بما منحه الله إياها من جمال عقيرتهـــا الذي يسبي القلوب، وثوبها المرصع بالجمال الرائع.

ورقاء يـــا صـــنو الملائـــك رجعـــي		نغم الهوى وبحمد ربـــك فاســـجعي
وتخـــــايلي بـــــالأجملين: عقيـــــرة		تســـبي وثـــوب بالجمـــال مرصـــع

ثم أخذ الشاعر يعرض رأي ((ابن سينا)) وسلفه ((ابن خلدون)) الذي يقـــول: إن النفس خالفت بما جعلها آثمة وقد خلقها الله طاهرة مبرأة، ولم يتورع في إثمهـــا، فأذاقها الله لباس العذاب بما كانت تصنع، ورمى بها في ظلمات الجسد الذي صنع الله منه سجنًا لها فنسيت معارفها ومداركها، فإذا ما رأيناها تبكي، فمـــن الأســـى والتوجع لما أصابها، وإذا ما حنت ومدت صوت التوجـــع شـــوقًا فمـــن آلامهـــا المبرحة، ووجدها الشديد:

قـــال الـــرئيس وقـــال عنـــك ســـليفه		مخلوقـــة أثمـــت ولـــم تتـــورع
فأذاقهـــا الـــرحمن ســـوط عذابـــه		ورمى بها فـــي حالكـــات الأربـــع

---

[11] 2) مجلة الكتاب – السنة السابعة – أبريل، 1952 م ص 424.

جســـد بـــراه الله ســـجنًا للتـــي		أثمت فعاشــت فـــي خـــراب بلقـــع
نزلتـــه فافتقـــدت بـــه آي الحجـــى		وأحالهـــا النســـيان وجـــه مقنـــع
فـــإذا بكيـــت فمـــن أســـى وتوجـــع		وإذا حننـــت فمـــن جـــوى وتفجـــع

ويأخذ الشاعر في إبداء رأيه في النفس، وينزه الله سبحانه وتعالى أن يخلق الخلق في صورة غير كاملة، فقد خلق النفس مؤتلقة بالجمال في شكلها وفي صـــورتها، وهذا الشكل البديع بعنصرية: الثوب –الريش– والصوت، خلقا معًـــا، لـــم يســـبق أحدهما الآخر في الوجود، وهذا دليل على الكمال الذي أبدعـــه الله تعـــالى فـــي الورقاء –النفس–.

حاشـــا فمـــا خلـــق الإلـــه عبـــاده		مزقـــا وســـواها بكـــف مرقـــع
الله خصـــك بالجمـــال مـــلأ لنـــا		في الريش منك وفي الصداح الأبرع
خلقـــا معًـــا وبـــدا كمالـــك فيهمـــا		يزجي الدليل على كمـــال المبـــدع

ويسبح الشاعر بحمد بديع السماء التي شـــادها عالمًـــا للأبـــرار الأقـــدس وجنـــة للخاشعين، وجعل للعرش حراسًا من الملائكة القائمين الراكعين الساجدين الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وقد انتشروا هنا وهناك في روضات الجنات، بعد أن شكلهم الله تعالى من النور المجلو بسنى الخالق الباهر، وقد شـــذ من هذا الخلق إبليس اللعين، وأبى واستكبر وتعالى وتعظم فتنكب طريق الجادة هو من تبعه من العصاة، وأبدلوا بالجنة نارًا حامية، وطُردوا من نعيم الله المقيم إلـــى عذاب الله المقيم:

سبحان مـــن بـــدع الســـماء وشـــادها		ملكـــوت أبـــرار وجنـــة خشـــع
وأحـــاط قـــائم عرشـــه بملائـــك		من قائمين علـــى الصـــلاة وركـــع
نثـــروا علـــى درج الجنـــان أشـــعة		مجلـــوة بســـنى الإلـــه الأســـطع
حتـــى ارتـــدى بالكبريـــاء زعـــيمهم		وصبا إلى عـــرش العلـــي الأرفـــع

فكبــا وطغمتــه العصــاة وأبــدلوا		نارًا لجحيم مــن النعــيم الممــرع

ويصور الشاعر حال إبليس وجنوده بعد أن طردوا من الجنة وما صاروا إليه من شقاء وتعاسة وأصبحوا سجناء الدنيا، وما يكتنفها من ظلام المادة، وهم الذين كانوا يتمتعون في عالم الصفاء والبهاء والنور، وقد ألقى بهم إثمهم على مجــامر النــار المحرقة، وتحولوا إلى سجناء يتحكم فيهم قيد أرقم يوجع منهم المعاصم، بعــد أن كانوا يمرحون في ملكوت السماء الفسيح وقد تحرقت قلوبهم شوقًا إلى تلك الحيــاة التي كانوا يحيونها في ظلال النعيم والهناء، ولكنهم يصدون عن ذلك صــدًا، ولا أمل في عودتهم إلى سابق حياتهم؛ لأن الذي يصدهم هو رب العزة، وقــد حكــم عليهم بما حكم، ولا معقب لحكمه:

كــانوا النجــوم النيــرات فأصــبحوا		سجناء فــي ظلمــات ليــل أســفع
متقلبــين علــى مجــامر إثمهــم		ومصــفدين بكــل أرقــم موجــع
يتحرقــون إلــى الســنا فيصــدهم		عــن نبعــه الفيــاض رب المنبــع

ثم يشرع الشاعر في بيان خلق آدم –عليه السلام–، ويرى أن الخالق العظيم قــد انصرف عن إبليس وجنوده، حيث أرادت مشيئته أن يخلق إنسانًا ســويًا بــديعًا، فأشار إلى خلقه من تراب؛ ولما سواه نفخ فيه من روحه، فإذا ما انتهى من خلقــه كان آدم على أحسن صورةٍ وفي أتم تكوين وتقويم، وبدا في صورةٍ متناسقة الخلق بين كل الجوارح، وأسكنه جنته وفردوسه العظيم، وأمَّره ملكًا على الخلائق كلهــم وأحله محل الآمر الناهي بينهم، وهو منهم محل التجلة والاحترام والتقدير، فالكــل يسعى لخدمته، ويُلبي أوامره، ويحقق مطالبه، ويحيا بينهم حياة السعادة والطراوة: قوته ثمار الجنة، ومشربه الكوثر الرقراق المتدفع:

أغضى عــن المــلأ الأثــيم وشــاقه		أن يصنع الإنسان أجمــل مصــنع
جبــل التــراب وقــد منــه أضــلعا		كملت وبث الــروح بــين الأضــلع
حتى إذا نفــض اليــدين رنــا إلــى		بشــــر ســــوى بالبهــــاء موشــــع
ســطع الجمــال بكــل جارحــة بــه		وجــرى بــأجنح روحــه المترفــع

فأحلـــه بالصــــدر مـــن فردوســـه		وأقامـــه ملـــك الخلائـــق أجمـــع
ينهـــى ويـــأمر والعـــوالم كلهـــا		خـــدم تلبـــي مـــا يقـــول ويـــدعي
يقتات مـــن ثمـــر الجنـــان ويســـتقي		مـــن كـــوثر مترقـــرق متـــدفع

عز على إبليس أن يحيا ((آدم)) –عليه السلام– تلك الحياة الناعمة التي كان يحياها إبليس سابقًا، أو قريبًا منها، فأراد أن يخفف عن نفسه بلواها وهـــو يـــرى ((آدم)) يطرد كما طرد، فأغواه بأن دله على شجرة الخلد وملك لا يبلى، فانســـاق ((آدم)) وأكل من الشجرة التي حرمها الله عليه، ودعاه إلى عدم القـــرب منهـــا، ولكنـــه استجاب للشيطان الغوي، وللأسف نراه ينتشيء بفعل هذا المحرم، وإذ به يفيق من تلك النشوة على صوت اهتز له الملأ الأعلى، ناداه من أعلى عليين يكفره بفعلته، وأنه لم يعد أهلاً للخلد والنعيم الذي كان يعيش فيه، وطـــرده شـــر طـــردةٍ مـــن الفردوس حيث الراحة والهناء للنفس والبدن معًـــا، إلـــى الأرض حيـــث الشـــقاء والنصب والكد والتعب، ودموع الندم التي لا يجدي نفعًا، وسوف يبلغ التعب مـــداه به، فهو مطالب بشق الصخور حتى تتفجر منها المياه، ومسئول عن بذر الحب في التراب، وانتظار ما يجود عليه الثرى من أسباب الحياة، وأنه لن يجد الإدام الـــذي يزدرد به الخبز، فيستعين عل ذلك بالدموع، وما كان أغنى ((آدم)) عن ذلك لو أنه أطاع وانصاع، ولكنه الإغواء الذي حوله من سعيد إلى شـــقي، وامـــتلأت كأســـه بالأذى يتجرعه ولا يكاد يسيغه، وقد كان قبلاً يحتسي كئوس النعيم مترعة:

أغـــواه إبلـــيس وأوغـــر صـــدره		فغـــوى وقـــال أنـــال كـــل ممنـــع
فجنى المحارم وانتشى وصحا علـــى		صوت يجلجـــل بـــالرعود مـــروع
ناداه مـــن عـــالي الـــذرا يـــا كـــافرًا		بالخلد والنعمـــي دعوتـــك فاســـمع
اغرب عن الفردوس واضـــرب فـــي		واســـكن بـــواد بالمـــدامع متـــرع
وانصب وشق الصخر واستجد الثرى		واظفر بخبـــزك ناضـــحًا بـــالأدمع
بـــدلت بالســـعد الشـــقاء فعـــش بـــه		ومـــلأت كأســـك بـــالأذى فتجـــرع

ثم يخاطب ذلك الصوت بني آدم متمثلين في أبيهم ((آدم)) بأن الإثم عاقبته وخيمة في الدنيا، فإن مات على الإثم فله العقاب الأفظع في الجحيم، ولكن لن يعـذب الله الإنسان إلا بعد إرسال الرسل، وهداية الأنبياء له، فقد أخذ على نفسه عهدًا بـذلك حيث قال: **{وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً}** فإذا استجاب الإنسان لهؤلاء الدعاة إلى الله كانت له جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، وإذا خالف، ضل ضلالاً بعيدًا، وخسر خسرانًا مبينًا.

ويوجه خطابًا خاصًا ((بآدم)) ينبئه فيه أن باب التوبة مفتوح، فـإذا تـاب وأنـاب استرد فردوسه المفقود، واستأنف حياة خالدة ناعمة:

هذا قصاصك في الحياة فـإن تمـت		فلسوف يرميـك الجحـيم بـأفظع
لكـن سـأهديك السـبيل بصـفوة		مـن أنبيـائي المرسـلين وتبعـي
فـإذا اهتـديت فجنتـي لـك مربـع		وإذا ضللت خسرت أطيـب مربـع
فردوسـك المفقـود فاكسـبه تقـم		فيـه إلـى أبـد الأبيـد وترتـع

ويرى الشاعر أن رأي ((ابن سينا)) في النفس الآثمة إنما هو أسطورة مزعومـة، توارثناها في غفلة من الزمن والعقل عن الهنود منذ زمن بعيد، أيام كان ((بوذا)) يبشر بذلك الرأي، الذي انتشر انتشارًا سريعًا بين القرى والبوادي، محمولاً علـى أجنحة الرياح الأربع، وأوحت أفكار ((بوذا)) للناس أن النفس تتنقل بين الأجسـاد في تناسخ حتى يقضي الله عليها بالتوقف والعودة إلى حماها المنيع.

ويعلن الشاعر عن رأيه في نفس ((ابن سينا)) وأن ما أورده عنها الفيلسوف إنمـا هو رمز لقصة ((آدم)) – بداية، وختامًا، وحبكة فنية–:

أسـطورة الـنفس الأثيمـة قصـة		نبتت على دمـن الزمـان المهجـع
أيـام يرتـع بالجهالـة أهلـه		ويـدين بالأوثـان كـل سـميذع
أوحى بها بوذا فسارت في القرى		وسرت بأجنحـة الريـاح الأربـع
وروت لهـا أن النفـوس ظعـائن		تبكي علـى وطـن أعـز مضـيع
تنفـك عـن جسـم وتلـبس غيـره		حتى تعـود إلـى حماهـا الأمنـع

تلـــك الروايـــة رمـــز قصــــة آدم		فـــي فنهـــا وختامهـــا والمطلـــع

ويخالف الشاعر ((ابن سينا)) مرة أخرى، ويذهب إلى أن البـــدن يترقـــرق فيـــه الضياء، وتأتي النفس له بضيائها فيصير نورًا على نور، وتجعله أكثـــر انبلاجًـــا وسطوعًا، ومن هنا فإن الروح والبدن يبادل كل منهما الآخر ألوان الحب والوجد، ويفيض كل منهما على الآخر بسنا نوره المشع المتوهج، ولم يكن هناك رفض من النفس لحلولها بالبدن وحاله كذلك، ولسعادتها بهبوطها إلى البدن أخذ جمالها ينمـــو ومعارفها تتزايد، وتتنقل في الحمى هانئة رضية، ويكبر معها الإدراك ويترعرع، وقد دخلت الجسم وهو على الفطرة أبيض نقي الصفحات ما تدركه فيـــه حواســـه الخمس ينطبع في صفحته البيضاء، وقد خلق بكرًا من المآثم لم تتسخ صفحته بمـــا سود غيره، ولن يسأل عما وقع في الماضي؛ إذ **{كل امرئ بما كسب رهين}** فـــلا يتحمل إثم غيره، ولا تفيده الأعمال العظيمة التي صدرت عـــن مخلـــوق آخـــر، فالاتكاء على الذكرى لا يحقق الأماني، إنما يحققها عمـــل جـــاد متواصـــل، وإلا لاستوى العالم والجاهل، والعاقل والأبله، والظلمات والنور، والظل والحرور:

النفس في البـــدن المرقـــرق بالســـنا		كالشمس في الكون البـــديع الأســـنع
كـــــل بصـــــاحبه يبـــــث وقيـــــده		ويحفـــــه بضـــــيائه المتفـــــرع
تنمو وآلتهـــا وتـــدرج فـــي الحمـــى		قدمًا وتكبر فـــي حجـــى مترعـــرع
وهبته سفرًا أبـــيض الصـــفحات مـــا		تكتبه فيه يـــد المـــدارك[13]يطبـــع

([13]) المدارك (بفتح الميم والدال) هي المدارك الخمس، يعني الحواس الخمس.

تقنوه [14] بكــر ســلافة لــم تمتــزج		بعصارة الــذكرى ولــم تتشعشــع
ولـــو ان بالتـــذكار إدراك المنـــى		ساويت بين أخي الحجى والأرقــع

ثم يشير الشاعر إلى النفوس تختلف فيما بينها، فمنها النفوس الكبيرة العظيمة التي يبهر ضوؤها والأخرى دون حد الإبهار، كما يتميز بعضها بالفضــائل العظيمــة، ويتمسك بالهدى والهداية، وهي ذات قلب كبيرٍ رائعٍ، وبعضها يتجرد من ذلك، هذه النفوس عاشت في الدنيا تحمل وزر ((آدم)) وتقدم القرابين إلى الله ليتقبــل منــه توبته، هذا الشقاء الذي تحياه في الدنيا ينتهي بمفارقة الحياة للبدن، حينئــذٍ تصــعد الروح إلى بارئها فتعيش هادئة هانئة منعمة، ويثير ذلك في نفس الشاعر أحاسيس التسبيح والتنزيه، فيلجأ إلى الله معترفًا له بأنه الأول والآخر والمتجلي على عباده الخاشعين الخاضعين:

إن النفوس هــي الكواكــب بعضــها		باهي الضياء وبعضــها لــم يلمــع
متميـــزات بالفضــــائل والهــــدى		مترجحــــــات بـــــالفؤاد الأروع
عاشـــت تكفــر عـــن جريـــرة آدم		فكأنهـــا قـــرب الشـــفيع الأشـــفع
يخبــو مــن الــدنيا ســعير شــقائها		في يوم تهجرهــا بطــرف مــودع
ســـبحانك اللهـــم أنـــت المبتـــدا		والمنتهـــى للعابـــديك الخضـــع

وإلى هذا الحد من الأبيات ينتهي حديث الشاعر عن النفس –الروح– مما يجعلنــا نتوقف عن عرض بقية الأبيات؛ لأنها خرجت عن الموضوع الذي نحن بصــدده، وهو معارضة ((ابن سينا)) في رأيه الذي يتعلق بالنفس.

التحليل:

---

(14) تقنوه بمعنى تخلقه، من: قنا الله الشيء قنوا = خلقه.

ارتضى الشاعر لنفسه أن يسمي الروح بالورقاء متجاوبًا مع ((ابن سينا)) في هذه التسمية، ولكنه بادر فرفعها إلى المنزلة التي أبى ((ابن سينا)) أن يحلها إياها، فقد جعلها الشاعر صنو الملائكة، إيذانًا بترفعها عن المعاصي، إذ الملائكة يسبحون بحمد ربهم، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وكشف عن هذا الاتجاه بقوله: ((وبحمد ربك فاسجعي)).

وقد خلع الشاعر عليها هالة من جمال حينما جعل لها صوتًا يسبي، وثوبًا مرصعًا بالجمال، وكأنه يشير إلى صفاتها الداخلي والخارجي، وقد جعل صيغة التفضيل وعاء لتلك المعاني السامية في قوله ((الأجملين)).

ولكن لا أدري السبب في إنفاق الوقت واستغراق عدد من الأبيات لرأي ((ابن سينا)) في النفس، أهو يسجل عليه خطأه، فيعتبر هذا لون من التهكم، أم هو يعرض الرأي حتى يكون القاريء أو المتلقي على علم بالرأيين معًا وهو يعرض رأيه فيما بعد؟ أم هو خليط من هذا وذاك؟

لقد أشار الشاعر بطريق التلميح –الكناية– إلى أن النفس لم تأثم، فقال في بيته:

سبحان من بدع السماء وشادها		ملكوت أبرار وجنة خشع

وبما أن النفس محلها في السماء، والسماء لا يسكنها إلا الأبرار، فالنفس بارة غير آثمة.

ويبدو أن الشاعر لم يتفهم هدف ((ابن سينا)) وهو يسمي النفس ورقاء، وما يستتبع ذلك من استدعاء معاني الرقة واللطافة التي يناسبها ((الهبوط)) لا ((الرمي)) فأهبطها ((ابن سنا)) في رقةٍ ووداعةٍ، أما الشاعر فقد رمى بها وهو يروي في بيته عن ((ابن سينا)):

فأذاقها الرحمن صوت عذابه		ورمى بها في حالكات الأربع

وما هكذا فعل بها ((ابن سينا)).

ويوفق الشاعر وهو يعرض حال إبليس وجنوده، ليكون في ذلك عبرةً وعظةً وتأسيًا لكل من تسول له نفسه المعصية، فقد عرض حالهم الأول وهم يحيون حياة

الانطلاق والضياء والصفاء، ثم انقلبوا إلى حالٍ بائسٍ من سجن مظلم على الأرض وأصفاد تتحكم في حركتهم.

ثم عرض حالهم مرة أخرى وهم أشد مرارة ولوعة، يتحسرون على ما كانوا عليه، وقد غلبهم الشوق إليه، حتى تحرقت أكبادهم، وإذ بأعتى القوى يصدهم عما يريدون، وهو الله سبحانه وتعالى لتنقطع آمالهم في العودة، ويعيشون في حسرةٍ دائمةٍ، وهمٍ مقيمٍ، وعذابٍ أليمٍ.

ولكن: لا أدري لماذا ينفرني قول الشاعر ((شاقه)) في بيته:

أغضى عن الملأ الأثيم وشاقه		أن يصنع الإنسان أجمل مصنع

لأن الشوق يحدث من غلبة الحب، فهل غلبت عاطفة الحب عند الله غيرها من العواطف، فيكون هناك صراع انتصرت فيه عاطفة الحب على غيرها على نحو ما يحدث في قلوب البشر؟ تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، فالله سبحانه وتعالى تستوي لديه إرادة الخلق، فلم يخلق شيئًا برغبةٍ وشيئًا آخر بدون رغبة.

كما أن كلمة مصنع –في نفس البيت– أراها مجلوبة للقافية؛ لأن الصياغة الدقيقة أن يصنع الله الإنسان أجمل صنع، وأجمل صنعًا، أما كلمة الشاعر فدلالتها على المكان أقرب من دلالتها على الحدث.

وفي مجال الصنع هذا نرى الشاعر يصور الانتهاء من تشكيل ((آدم)) فيقول:

حتى إذا نفض اليدين رنا إلى		بشر سوى بالبهاء موشع

فتصوير انتهاء الله تعالى من خلق ((آدم)) وهو ينفض يديه تصوير ثقيل الظل، ما كان لمثل ((الغضبان)) أن يصدر عنه، وهو شاعر قوي الخيال والتعبير معًا، ولو أنه قال:

حتى إذا سوى الخليط رنا إلى		بشر سوى بالبهاء موشع

لو أنه قال ذلك لكان استمد بعض معانيه من القرآن الكريم: **{فإذا سويته ونفخت فيه من روحي...}** ولأشار إلى أن ((آدم)) تكون في البدء من تراب وماء وروح، ولكن ((الغضبان)) لم يشر إلى عنصر الماء وهو يتحدث عن التكوين في بيته:

جبـــل التـــراب وقـــد منـــه أضـــلعًا		كملت وبث الـــروح بـــين الأضـــلع

وإن كان التعبير في حد ذاته ناقصًا في الدلالة على الخلق السوي.

ثم ما هذه المبالغة المغرقة التي جعلت ((آدم)) يأمر وينهي، والعوالم كلهـا خـدم تلبي ما يقول ويدعي؟! أليس في ذلك رسم واضح لصورة المستبد يلصقها الشاعر ((بآدم)) –عليه السلام– وهو منها براء، ويجريها في عالم الطهر والصفاء والنقاء، حيث قال:

فأحلـــه بالصـــدر مـــن فردوســـه		وأقامـــه ملـــك الخلائـــق أجمـــع
ينهـــي ويـــأمر والعـــوالم كلهـــا		خـــدم تلبـــي مـــا يقـــول ويـــدعي

هذه الصورة أولى بإبليس أن يتصف بها؛ لأنه عرف بالغرور.

ولا يعتذر عن الشاعر بأنه أراد أن يفخم من حياة ((آدم)) في السماء، فإذا ما طرد منها كان قد حرم شيئًا عظيمًا، أقول إن التفخيم يكتسب من مجرد كونه في المـلأ الأعلى، وأنه أول البشر، ولكن الصورة التي عرضها له ((الغضبان)) أنقصت من قدره –في نظرنا على أقل تقدير– وذلك من خلال التعبير فقط، وإلا فهو كما هو، وكما أرادنا الله عليه بالنسبة لأبينا ((آدم)).

ونقف حيارى أمام بيت الشاعر:

لكـــن ســـأهديك الســـبيل بصـــفوةٍ		مـــن أنبيـــائي المرســـلين وتبعـــي

إذ الحديث ما زال موصولاً مع ((آدم)) –عليه السلام– فكيف سـيهديه بالأنبيـاء والمرسلين؟!

وقد تحتم علينا أن نلوي عنق السياق ونجعل الخطاب موجهًا إلـى أبنـاء ((آدم)) ممثلين في أبيهم ليستقم المعنى، ومن عجب أن يعود لمخاطبة ((آدم)) على انفراد وهو يقول:

فردوســـك المفقـــود فاكســـبه تقـــم		فيـــه إلـــى أبـــد الأبيـــد وترتـــع

وهنا يضطرب التفكير لدى الشاعر فتأتي بعض الأبيات في غير موضعها إذ طلب إليه في البيت السابق الحرص على إعادة الفردوس المفقود، وقبله كان سلبيًا معه،

بمعنى أنه وضح له كلاً من طريق الهداية والضلال ومآل كل منهمـــا، والـــرأي عندي أن تأتي الأبيات على النسق التالي:

لكـــن ســـأهديك الســـبيل بصـــفوةٍ		مـــن أنبيـــائي المرســـلين وتبعـــي
فردوســـك المفقـــود فاكســـبه تقـــم		فيـــه إلـــى أبـــد الأبيـــد وترتـــع
فـــإذا اهتـــديت فجنتـــي لـــك مربـــع		وإذا ضللت خسرت أطيـــب مربـــع

وهل يعني الشاعر بقوله: ((أنبيائي المرسلين)) الرسل؟ وتكون كلمـــة ((تبعـــي)) تشير إلى الأنبياء الذين لم يكلفوا بالرسالة؟ إن كان كذلك فالتعبير تعـــوزه الدقـــة الفصيحة، وتكون القافية قد فرضت على الشاعر سلطانها فيما سبق، وفـــي هـــذا البيت أيضًا:

تلـــك الروايـــة رمـــز قصـــة آدم		فـــي فنهـــا وختامهـــا والمطلـــع

ولولا القافية لجاء المطلع في المطلع، والختام في الختام.

أما الحكم على وحدة الموضوع في هذه القصيدة فلم يتوفر لها منه وحدة؛ لأنه كما ذكرت خرج من موضوع النفس إلى موضوعات أخرى تركتها حتـــى لا أقحمهـــا على سياق الدراسة.

وواضح أن الوحدة الفنية في عمومها غير محققة في الـــنص، إذ أمكـــن لنـــا أن نستسيغ التقديم والتأخير بين بعض أبياتها دون أن ينهدم بناؤها حتى لو استشـــفعنا بالوحدة النفسية والشعورية، ويمكن التماس أدلة أخرى على ذلك، كما أن التجربة الشعرية لم تدفع الشاعر إلى التأمل والاستبطان، والتريث حتى تعتمل بها المشاعر والأحاسيس؛ لأن التأمل حتى الاختمار –غالبًا– ما يوحد بين الأفكار، ولكنا رأينـــا في القصيدة أمشاجًا من الأغراض.

على أن اللغة لم تسلم للشاعر قيادها في بعض التعبيرات –على نحو ما أشرنا– قد يكون لعدم نضج التجربة في خيال الشاعر وأعماقه البعيدة، فخرج التعبيـــر غيـــر ناضج هو الآخر، وقد يكون لسبب آخر كامن في التعبير الجزل الذي بلـــغ حـــد الصعوبة.

وليس معنى ذلك أني أحط من قدر الشاعر، فإذا لم يكن التوفيق رائعًا متوهجًا فيما عرضت له من أبيات، فالإجادة أعظم فيما تركت من أبيات –اثنان وثلاثون بيتًا– وليس من خطة الدراسة أن أتعرض لها لخروجها عن موضوع المعارضة.

ولست أسقط الشاعر من عليائه، فلا يسقط شاعر بقصيدة أو ببعض قصيدة، فللشاعر ((عادل الغضبان)) عرشه ومجده بين أقرانه، إنما هي وجهات نظر، قد تخطئ، وقد تصيب.

بين القصائد الثلاث

كان حديث النفس قدرًا مشتركًا بين الشعراء الثلاثة: ((ابن سينا)) والدكتور ((محمد رجب البيومي))، والشاعر ((عادل الغضبان))، وإن كان ((الغضبان)) قد خرج عن صلب الموضوع، حيث ابتدأ بعرض فكرة ((ابن سينا)) عن النفس، ثم أخذ يعارضه في كونها آثمة، ثم تحدث عن إبليس وجنوده، وقصة خلق ((آدم)) –عليه السلام– وإغواء إبليس له حتى أخرجه من الجنة، ثم عاد مرة أخرى إلى الحديث عن النفس، وأن فكرة إثمها فكرة هندية قديمة، وأن تلك الفكرة تنطبق على قصة ((آدم)) لا على النفس بذاتها، وأشار إلى جمال النفس، وأنها تنقسم إلى نفس خيرة وإلى نفس شريرة.

إلى هنا نستطيع أن نقول: إن ((الغضبان)) جال ذلك الجولان الفسيح في إطار النفس وما يتعلق بها، ولو أنه توقف عند ذلك لحكمنا بتوفر وحدة الموضوع لقصيدته، ولكنه خرج منه إلى الحديث عن ((ابن سينا)) ومآثره، ولو اكتفى بذلك أيضًا لأمكن التمحل بوحدة موضوعية؛ إذ الحديث عن النفس استدعى صورة صاحب الرأي فتحدث عنه، فهو حديث موصول بين النفس وصاحب فكرتها الآثمة، ولكن ((الغضبان)) انتقل إلى الإشادة براعي الاحتفال بذكرى ((ابن سينا)) الألفية، وهو الملك: عبد الإله، وأشار إلى العراق وما لها من مجد مؤثل، وجمال باهر، وعراقة في الشعر والحضارة.

وعلى العكس من ذلك نرى ((ابن سينا)) والدكتور ((محمد رجب البيومي)) قد تحددا بإطار النفس وما يدور حولها من أفكار، فتوفرت لهما وحدة الوضوع.

أما عن الوحدة الفنية، فلم تتوفر إلا للدكتور ((محمد رجب البيومي)) لأنه استطاع أن يربط بين الأفكار برباطٍ وثيقٍ جعلها تسلسل في انسياب رقراق، بحيث يسلم البيت إلى تاليه، أو المقطع إلى لاحقه، أما ((ابن سينا)) والغضبان فقد اضطرب التفكير في قصيدتيهما على نحو ما ذكرت في التحليل لكل قصيدةٍ.

التجربة الشعرية لدى الشعراء الثلاثة تفاوتت بتفاوت قدرة الشاعر منهم على معايشة التجربة، واستبطانها، وتمثلها، والاندماج فيها.

أما ((ابن سينا)) فكان له من ذلك حظ الشاعر الفيلسوف، الذي عايش التجربة، واحتواها فكره ووجدانه، وأخرجها في قالبٍ شعري، كان له نصيب موفور من الشاعرية، وكانت الألفاظ والعبارات تحمل فكره الفلسفي، وتعبر عنه بدقة.

وتجربة الدكتور ((محمد رجب البيومي)) كانت متكاملة الجوانب، فقد نضجت في فكره وخياله نضجًا تامًا، وصبها في قوالب شعرية رفافة، حيث هضم التجربة، واستوعبها خياله المجنح، فصدرت عنه في عبقرية وفن بديعين.

والشاعر ((عادل الغضبان)) كان له من التجربة الشعرية نصيب أيضًا، ولكن انشغاله بإخراجها على تلك الصورة المتشعبة جعلنا لا نطمئن إلى أنه تمحض

للتجربة، وتفرغ وجدانه لتمثل النفس وما يحيط بها من آراء، فلم تخرج من خيال شاعر محلق؛ لأنه أتخم بتلك الأمور الفرعية التي أشرت إليها في البداية، وأتخم أيضًا بتمثل ما يجب قوله في مهرجان الاحتفال ((بابن سينا)) فجاءت القصيدة في شبه أشلاء ممزقة، أضعفت التوهج الذي يكون عليه الشاعر وهو يتأمل، ويستبطن، ويعايش.

ولئن استغرق حديث النفس من قصيدة ((الغضبان)) اثنين وخمسين بيتًا، من عدد أبيات القصيدة البالغ أربعة وثمانين، فإنما يدل ذلك على طول النفس، والقدرة اللغوية والفكرية، ولكنها فقدت روح الشعر الهائمة المحلقة، وكأن الشاعر كان على عجل، –فلم يتشرب وجدانه تجربة النفس على مهل وفي أناة– ليصل إلى الجزء الثاني من القصيدة وهو ما يتعلق بالاحتفال، والعراق.

غموض الألفاظ والعبارات كان قاسمًا مشتركًا بين ((ابن سينا)) و ((عادل الغضبان)) إلا أنه كان نادرًا لدى الأول وكثيرًا في قصيدة الثاني.

وعلى العكس من ذلك وقفنا في التحليل على كثير من الألفاظ المنتقاة الموحية المعبرة في قصيدة ((ابن سينا)) ونادرًا ما عثرنا على شيء من ذلك لدى ((الغضبان)).

أما الدكتور ((محمد رجب البيومي)) فقد كان له في هذا المجال النصيب الأوفى من التوفيق، وما خرج عن المألوف كانت له مندوحة في ذلك.

تحكمت القافية في ((ابن سينا)) و((الغضبان)) فألجأتهما إلى استخدام كلمات مجلوبة من أجلها وإن كانت لدى ((الغضبان)) أكثر.

وهناك مسائل أخرى جانب الصواب ((الغضبان)) فيها، ولم يقع فيها زميلاه؛ لأنها لم ترد في قصيدتيهما، ومن أراد فليلتمسها في التحليل.

وبعد:

فهذه مجموعة من القصائد، تناولها بالعرض والتحليل والموازنة، لم يسبقني إلى تلك الموازنة أحدٌ، على أن بعضها لم أسبق بعرضه وتحليله، فكنت بذلك أرود

الطريق لأول مرة فيها، والله أسأل أن يجعلها ريادة موفقة ويفـتح علـى غيـري ليكمل المسيرة، حتى تظل حلقات الدراسات الأدبية للمعارضات موصولة، ونراها في يومٍ من الأيام جنسًا متميزًا من أجناس الأدب المتعددة.

الخاتمة

بيسرٍ من الله وتوفيقه انتهيت من هذا الكتاب، وقد توصلت في فقهيات المعارضة إلى تعريف مبسط لها، مكتفيًا بما يلتصق بها من تعاريف تحوم حول لفظ ((عرض))، واستعرضت الشروط التي ينبغي توفرها في المعارضة، وعلى ضوء هذه الشروط انقسمت المعارضة إلى: معارضة ناقصة، ومعارضة تامة.

كذلك طوفت ببواعث المعارضة المتعددة، وناقشت منها ما استحق المناقشة والمحاورة مع الباحثين الآخرين، وعرجت على أهمية دراستها.

كما قمت بتتبع المعارضة نشأةً وتطورًا على مدى الأعصر المختلفة، بدءًا بالعصر الجاهلي، وانتهاءً بالعصر الحديث، وقد تأكد لنا شيوع المعارضة، وذيوعها لأكثر من سببٍ في العصر المملوكي على وجه الخصوص، وإن كان العصر الحديث قد شهد انتشار المعارضة إلا أنه لم يكن في مستوى العصر المملوكي من الأهمية والاهتمام، وكان ((البارودي)) و ((شوقي)) من أكثر الشعراء رغبةً في المعارضة وإقبالاً عليها، وغرامًا بها إلى درجة الإلحاح، حتى إن ((البارودي)) نظم على بحر لم تنظم عليه العرب في أبياته التي يقول فيها:

املأ القدح		واعص من نصح

ويعارضه ((شوقي)) فكان مما قال:

مال واحتجب		وادعى الغضب

ولم يفتني أن أشير إلى المطارحات وما لها من صلة بالمعارضات، وكذلك الحال فيما سمي بالمماحصات.

ولئن تجاوزت الحديث عن المعارضة في الأدب العربي الأندلسي، فقد اكتفيت بالجهد الطيب الذي قام به الدكتور ((محمد محمود قاسم نوفل))، وأشرت إليه في مجاله لمن يريد الاستزاده.

وقد تناولت المعارضة والمناقضة بالحديث، وأشرت إلى أوجه الاختلاف بينهما، وما تشابها فيه أيضًا، في أي عصرٍ اختفت فيه إحداهما عن الأخرى؟ ومتى تجاورتا زمانًا ومكانًا؟

كما ناقشت علاقة المعارضة بالسرقة والتضمين، وحددت الحالات التي يمكن اعتبار المعارضة سرقة أوتضمينًا، آخذًا برأي بعض النقاد، ومحاورًا بعضهم فيما ذهبوا إليه من رأي.

وقد استعرضت مجموعةً من قصائد المعارضات، جمعت الطرافة بينها، حيث كان الشاعر المعارض يجهد نفسه، ويجتهد في أن يحمل كل بيت لونًا من ألوان علم البديع على الأقل.

ولغرام بعض الشعراء بالمعارضة، فقد اندفع إلى الإطالة المسرفة، كما حدث من ((يوسف بن إسماعيل النبهاني)) حيث عارض بردة ((كعب بن زهير)) بقصيدة في ألف وأربعمائة وأربعين بيتًا، وغيره كثير.

وقد لاحظت المعارضة وقد عرفت طريقها إلى الرسائل الشعرية، فاستشهدت ببعضها، كما وجدت المعارضة قد اقتحمت ميدان النثر والكتب:

فكانت المقامات من أبرز ما عورض في مجالها، وكانت الكتب هي الأخرى ميدانًا لذلك السباق الأدبي واللغوي فهذا ((ابن عبد ربه)) يعارض بكتابه ((العقد الفريد)) كتاب ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة.

كما وقفت على الجانب الإيجابي والسلبي للمعارضة –أو الصورة المشرقة والصورة المعتمة لها– واسعرضت مناحي الإفادة والإثراء لفن المعارضة –وما أكثرها– كما نوهت بجانبها السلبي –وما أقله–.

ولأني تجنبت تحليل ونقد أشهر القصائد التي عورضت، فقد خصصتها بشيء من الحديث مما هو بعيد عن مجال التحليل والنقد، وأعني بهذه القصائد:
لامية – بردة ((كعب بن زهير)) وبردة ((البوصيري)) ومقصورة ((ابن دريـــد)) ودالية ((الحصري)).
أما الباب الثاني –بفصوله الثلاثة– فقد جعلته للمعارضة والفن، درست فيه جملـــة من قصائد المعارضات، مما لم تسبق دراستها على النحو الذي سلكته، وقد كنـــت أعرض القصيدة، وأحللها، وأنقدها، وأوازن بينها وبين ما عارضها ممـــا تناولتـــه بالبحث والدراسة، أو بين قصيدتين عارضتا قصيدة لم أتناولها بالدراسة، كما حدث مع بردة الشاعر: ((أحمد محفوظ)) والشاعر ((ميشيل الله ويردي)) فقد عارضـــا بردة ((البوصيري)) التي تجنبت دراستها؛ لكثرة ما أقيم حولها من درسات.
ومما تناولته بالبحث قصيدة ((المتنبي)) التي يقول مطلعها:

ملومكمـــــا يجـــــل عــــن المـــــلام		ووقـــــع فعالـــــه فـــــوق الكـــــلام

وقصيدة ((شوقي)) التي عارضتها في ((نهاية رياض)) بمطلع يقول:

كبيـــــر الســـــابقين مـــــن الكـــــرام		برغمـــــي أن أنالـــــك بـــــالملام

كما تناولت بالتحليل ثلاث قصائد تتحدث عن النفس: أولاها عينية ((ابـــن ســـينا)) وثانيتها عينية الدكتور: ((محمد رجب البيومي))، وثالثتها عينية الشاعر: ((عـــادل الغضبان)).
وقد درست هذه القصائد جميعها دراسة كشفت عن قدرة هؤلاء الشـــعراء علـــى التعبير عن أفكارهم، ومشاعرهم، وأحاسيسهم، وانفعالاتهم، وعواطفهم ومدى مـــا وفقوا إليه من توظيف الكلمة والعبارة في سبيل إخراج مكنون أفئدتهم وخيـــالاتهم، ونصيب كل شاعر من القدرة على عزف الموسيقى الداخلية والخارجية، وموقـــف هذه القصائد من الوحدة الموضوعية، والفنية، والتجربة الشعرية.
راجيًا من وراء ذلك الإسهام في إضافة جهدٍ –متواضع– إلى ما يبذل في ميـــدان الدراسات الأدبية.

والله أسأله العون والتوفيق والسداد، فهو نعم المولى ونعم النصير.

المصادر والمراجع

1- بردة محفوظ، تصدير الدكتور: محمد حسين هيكل، مطبعة أمين عبد الرحمن.
2- تاريخ المعارضات في الشعر العربي، د/ محمد محمود قاسم نوفل، مؤسسة الرسالة، بيروت.
3- تاريخ النقائض في الشعر العربي، د/ أحمد الشايب، الطبعة الثانية، مكتبة النهضة المصرية.
4- جواهر الأدب، الجزء الثاني، السيد أحمد الهاشمي.
5- ديوان ابن الرومي.
6- ديوان ابن المعتز.

7- ديوان ابن نباتة.
8- ديوان أبي تمام.
9- ديوان أبي فراس الحمداني.
10- ديوان أبي نواس.
11- ديوان أحمد محرم.
12- ديوان أحمد نسيم.
13- ديوان الأخطل.
14- ديوان إسماعيل صبري.
15- ديوان امرئ القيس.
16- ديوان البارودي.
17- ديوان البوصيري.
18- ديوان الجارم.
19- ديوان جميل صدقي الزهاوي.
20- ديوان الشريف الرضي.
21- ديوان شوقي (الشوقيات).
22- ديوان صدى الأيام: د/ محمد رجب البيومي.
23- ديوان صفي الدين الحلي.
24- ديوان عبد الرحمن شكري.
25- ديوان العقاد.
26- ديوان القاياتي.
27- ديوان الماحي.
28- ديوان المتنبي.
29- ديوان محمد عبد المطلب.
30- ديوان النابغة الذبياني.

31- ديوان هاشم الرفاعي.

32- الشعر والشعراء – ابن قتيبة، الطبعة الثالثة، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر.

33- عصر سلاطين المماليك، د/ محمود رزق سليم، الطبعة الأولى.

34- غرام ولاده (مسرحية شعرية)، حسين عبد الله سراج، الطبعة الثانية، الكتاب العربي السعودي 66.

35- في الأدب الجاهلي، د/ طه حسين، الطبعة الثالثة.

36- كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، طبعة عيسى البابي الحلبي.

37- المدائح النبوية، الجزء الثاني، (شعر البارودي) تقديم الدكتور سعد ظلام.

38- المعارضات في الشعر العربي، د/ محمد بن سعد بن حسين، مطبوعات النادي الأدبي بالرياض.

39- المعارضة في الأدب العربي، د/ إبراهيم إسماعيل عوضين، الطبعة الأولى.

40- معجم البلدان، ياقوت الحموي، الجزء الأول، طبعة مصر 1906.

41- المعجم الوسيط، الجزء الثاني.

42- الموازنة بين أبي تمام والبحتري، الآمدي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد.

43- الموازنة بين الشعراء، د/ زكي مبارك، الطبعة الثانية.

44- المقامة، د/ شوقي ضيف، الطبعة الرابعة، دار المعارف – مصر

دوريات.

45- مجلة الثقافة: العدد 101 السنة التاسعة فبراير 1982 م.

46- مجلة الرسالة: العدد 93 بتاريخ 1935/4/15م.

47- مجلة الرسالة: العدد 1005 بتاريخ 1952/10/16م.

48- مجلة الكتاب: السنة السابعة أبريل ومايو 1952م.

فهرس الموضوعات